

رواية

إبراهيم عادل

دار كتاب للنشر والتوزيع



مسئول النشر

طارق رمضان

مدير التوزيع

عمر عبد السميع

مدير العلاقات

مها عادل

الطبعة الأولى

الكتاب : السجين

تأليف : إبراهيم عادل

تصنيف الكتاب : رواية

مصمم الغلاف : عبد الرحمن سندوبى

إخراج : أحمد عبد الرحمن

المقاس ١٤ × ٢٠

رقم الإيداع : ٢٠٩٥٢ / ٢٠١٨

الترقيم الدولي : 6 - 42 - 6597 - 977 - 978

جميع الحقوق محفوظة

all rights reserved . no part of this book may be repoduced ' stored in aretieval system , or transmitted in any from or by any means without prior permission in writing of the publisher .

ثم جميع الحقوق محفوظة لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينة في نطاق اســتعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال ، دون إذن خطي مسبق من الناشر .

العنوان : ٤٧ تقاطع الفلكي مع محمد محمود - القاهرة - مصر

التليفون : ٠١٠٩٧٥٥٣٣٢٨

Email : darkitabone@gmail.com

بداية

هــذا العمــل لا يمــت للواقــع بصلــة، حتــى وإن اعتمــد أو دار حــول أحــداث أو أشــخاص حقيقيــة، أو حتــى إذا احتــوى عــلى مواقــف حدثــت بالفعــل، فقــط تــم تأليفــه ليكــون هدفــه التحــدي وحكمتــه الادراك ومغــزاه الإيــمان فأســأل الله أن يجعلــه بفائــدة ويصــل بــه للقلــوب، يُنيرهــا .

الخميس ١٧ أغسطس ٢٠١٧

«أنـت فاشـل»، كتبتهـا في ورقة وتحتها اسـم الشـخص الذي قالهـا لي وعلّقتهـا أمـام مكتبـي، كانـت هـذه الجملـة هـي أول مـا نطـق بـه بعدمـا أخبرتـه أني حصلـت عـلى نسـبة ٧٠ في المئـة في الثانويـة العامـة ،قالهـا ويظهـر عـلى وجـه أغبـى الاشـارات

هل أنا فاشل حقاً ؟! أم أنني لستُ في مكانى ؟!

قمـتُ فمزقـت هـذه الورقـة مئـات القطـع، وظللـت أضغط عليهـا وأهتـف أنـا لسـت فاشـلاً بـل أنـا لسـت في مـكاني، سـأجعل الجميـع يـرى ذلـك، سـأجعلهم يندمـون عـلى نعتهـم إيـاي بالفاشـل صرت أقـول سـأصنع المجـد بالغـد وأُريهـم أني أسـتطيع فعـل مـا لا يسـتطيعون هـم فعلـه سـوف أغـير العـالم، ثـم كالعـادة خلـدت إلى النـوم وفي صبـاح اليـوم التـالي انطفـأ حمـاسي، مثلـما يحـدث دائـماً

وخـلال تنـاول الافطـار وجـدت تحـت الأطبـاق ورقـة مـن إحـدى الجرائـد مكتـوب بهـا «منصـور الشرقـاوي أغنـى عـربي تحـت سـن الأربعـين» فشـددت الورقـة لأرى الصـورة وبقيـة الـكلام ولكـن للأسـف سـبقني زيـت أمـي ليمحـوه .

قمــت في الحــال وبحثــت عنــه في الانترنــت فوجــدت محــاضرة قصــيرة لــه، ففتحتهــا متشــوق لســماع أغنــى عــربي، وأخــذ يتحــدث عــن أصلــه الــذي قــال فيــه:

- وأنــا أصــلاً مــن مدينــة يعتبرهــا البعــض أريــاف تســمى مشــتول الســوق في أطــراف محافظــة الشرقيــة

فأوقفــت الفيديــو لأقــول لنفــسي هــل مــا ســمعته حــالاً صحيــح أم إنهــا تخيــلات الفشــل التــي تلاحقنــي فأعــدت الفيديــو لأتأكــد فأقتنعــت أنهــا صحيحــة، نعــم هــو مــن مشــتول الســوق، مــن مدينتــي .

ذهبــت عــلى الفــور إلى أبــى أســأله فلــما قــال لي إنــه لا يعــرف إلا القليــل طلبــت منــه أن يُعلمنــي هــذا القليــل فقــال:

- كل مــا أعرفــه هــو أن منزلــه كان داخــل بلدتنــا وإنه سُــجِن وهــو شــاب لأســباب لا أتذكرها

- مَن قد يعرف عنه أكثر؟

استوقفته عن كلامه لأسأله ذلك مُتلهفاً فقال:

- ربــما عمــك الحــاج عبــد اللطيــف المحامــي يعلــم عنــه بعــض الــشيء إنــه أصــلاً قريبــــ..

تركتـه راكضـاً للحـاج عبـد اللطيـف غـير مُبـال باسـتكمال كلامــه حتــى، وهرعــت إلى ناصيــة شــارعنا فوجدتــه جالســاً يراقــب المــارة في صمــت فاقتربــت منــه:

- السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

- وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته، كيف حالك ؟!

- الحمـد لله، هـل تعـرف منصـور الشرقـاوي يـا عـم عبـد اللطيـف؟

- ومـن لا يعرفـه يـا بنـي رغـم أنـه لم يبلـغ الأربعـين إلا إنـه مشـهور أكثـر ممـن في سـن الثمانـين مثـلي تمامـاً

قالهـا وظـل يضحـك فضحكـت أنـا الآخـر لا عـلى كلامـه بـل عـلى ضحكتـه المميـزة التـي تزغـزغ أذني

- أنا أعرفه ولكني لأول مرة أعلم أنه من مشتول

- نعم من مشتول إن قصته جميلة

قلت ببشاشة وشغف:

- كيــف سُــجِن وكيــف صــار مــا هــو عليــه؟، أريــد أن أعرفهــا؟

- ولكني لا أعرفها

قالها، فارتسمت على وجهي علامات الحزن لأني بدأت أشعر أن قصة هذا الرجل يجب أن اعرفها لأنها ستساعدني كثيراً، ولكنه ابتسم وقال لي:

- أنا أعرفها ولكن لن أُخبرك بها

- ولماذا ؟!

- لأني سأرسلك إليه لتسمعها منه بنفسه

كتمت الضحك في داخلي على هذيان ذلك الشيخ، فكيف لذلك العجوز أن يصل إلى ذلك الرجل ببساطة هكذا ؟، فقال:

- تظن أنى أسخر منك ؟!

- إطلاقاً ولكن قل لي كيف ؟

فأشار بيده على مكتب في مدخل بيته وقال:

- اجلب لي الهاتف على هذا المكتب هناك

فقمت مقتنعاً إنه من المستحيل أن يفتح قائمة الأرقام ليُريني اسم منصور الشرقاوي في القائمة، جلبت له الهاتف فمسكه وتمتم قائلاً:

- لا تقتنعون بسهولة أيها الجيل الجديد

وحـدث مـا توقعـت عـدم حدوثـه فقـد وضـع الهاتـف أمامـي وقـال واثقـاً:

- انظر إلى هذا الاسم

- منصور الشرقاوي

هكـذا قلـت باسـتغراب وتـردد وعـدم تصديـق ولما أنزلـه قلـت لـه:

- ولكـن مـن أيـن لـك برقـم رجـل مـن أهـم رجـال الأعـمال في الوطـن العـربي بـل هـو الأهـم عـلى الإطـلاق

قال وهو يهز رأسه علامة الثقة المبالغ فيها:

- ألا تعلـم إن اسـم عائلتـي هـو الشرقـاوي ،،ومنصـور في الواقـع يكـون ابـن ابـن عمـي السـيد

صُعقـت كنفـس صعقتـي عندمـا علمـت إنـه مـن مدينتـي ،وكأننـي سـأتفاجئ عـما قريـب بـأن يكـون منصـور هـذا هـو أخـي أو ابـن عمـي أو مـا شـابه:

- حسناً .. حسناً أريد أن أعرف قصته أرجوك

قلتها مُترجياً أن أُشبع ذلك الفضول الذي أتصف به

- سأرسلك له ولكن ماذا ستدفع؟

ــ كل ما تريد !

– كوب شاي تصنعه لي

وافقت طبعاً وكنت سأنهض ولكني توقفت وقلت له:

– ولكــن بــأي صفــة ســوف أذهــب إليــه، وهــل ســيعرف هــو ؟!

– اجعلهــا مفاجــأة لــه وهديــة لــك فقــط عندمــا تذهــب لــه قــل لــه إنــك مــن طــرف عمــك عبــد اللطيــف الشرقــاوي

– ومتى أذهب إذن ؟!

– يوم السبت في شركته

– وهل سيسمحوا لي بأن أراه؟

– من تقصد ؟

– حراسه !!

– لا بالطبع، فليس له حراس أصلاً

بعــض الصمــت ســاد لهنيهــة أفكــر في كيــف ســيكون هــذا الرجــل عندمــا أقابلــه، هــل ســيكون كــما تخيلتــه؟ ،أم أن قصتــه ســتكون ضعيفــة أم ؟... قاطــع عمــي عبــد اللطيــف تفكــيري ليقــول:

– هل انتهيت من الرواية التي كنت تكتب فيها، لقد بدأت كتابتها أمامي في هذا المكان، فإلى أين وصلت فيها؟

رددت بابتسامة فشل وخيبة أمل كبرى:

– انتهيت منها ووضعتها في سلة المهملات، مكانها الطبيعي

– هل تنتهي كل أمورك بالفشل هكذا؟

– أعتقد إنها لعنة يا عمي

– حسناً ربما تُغير قصة منصور مجرى حياتك

– آمل ذلك

– سأعطيك العنوان رغم أنني أعلم إنك تعرفه

– بالطبع !

– إذاً اذهب له في الشركة الساعة التاسعة بالضبط وقل لهم إنك جار عم منصور وتريد أن تقابله سيعلموه ولن يرفض

– ولكن هل سيوافق أن يحكي قصته هكذا، هو لم يحكى إلا قشور في كلماته المصورة

– أؤكد لك إنه لن يرفض هذه المرة

متغاضياً عن هذه الثقة التي ربما تكون مبالغة هززت رأسي بأن نعم وهممت بالانصراف ولكنه أمسك بيدي وقال:

هل نسيت ثمن هذه الخدمة، اذهب للداخل واجلب كوبين من الشاي ودعنا نتحدث قليلاً فلقد مللت الوحدة

أحضرت كوبي الشاي وظللنا نتحدث قليلاً وظل هو يذكرني بضرورة وجود حافز في الحياة حتى تحياها بشكل صحيح وإن عدم وجود ذلك الحافز يُقلل من عمر الإنسان ويجعله أقل تشبثاً بها ،حتى انتهى وعدت أنا إلى منزلي أفكر في كلام عمي عبد اللطيف تارة وأفكر في قصة منصور تارة أخرى أفكر في كيف يُخرج هذا الكلام المملوء بالأمل والتفاؤل وحياته تبدو لي مملة كثيراً فقد اعتزل المُحاماة منذ وفاة زوجته وصارت حياته بهذا النهج دائماً يستيقظ صباحاً ليجلس أمام منزله يراقب المارة والسائرين يذهب للصلاة ويعود مرة أخرى، كنت أحياناً أذهب فأجلس معه لنتناول الافطار ونشرب كوب الشاي الذي طالما أُكثر من السكر فيه فيشتكي منه ،أفكر أيضاً في هذا الشخص الذي عرفته منذ ساعة تقريباً وأنا الآن على وشك أن أجلس معه وجهاً لوجه وسوف يحكي لي قصته، كيف ستكون؟! هل ستُأثر على مجرى حياتي كما قال العم، لا أعلم

***

السبت ١٩ أغسطس الساعة ٧:٤٠ صباحاً

أتى يوم السبت بعد الكثير من الانتظار، حضرت حقيبتي ووضعت فيها أجندة خاصة بالنسبة لي وكتاب أقرأه حالياً وأقلام ومسجل، خرجت من المنزل لألحق بالقطار السريع من مدينتي إلى القاهرة قاصداً القرية الذكية، أكبر تجمع لشركات التقنية في مصر، حيث تقع شركة من أكبر شركات العالم في الصناعات الكهربية، والتي وبكل فخر يرأسها مصري مسلم، منصور الشرقاوي، من القطار إلى المترو وسريعاً ما وقفت أمام الشركة العملاقة، دخلت من بابها الضخم لأمر بممر زجاجي مرسوم عليه حروف عربية تتشكل معاً على اليمين لتصنع جملة مُلهمة هي «امسح عينيك لترى أن النور داخل قلبك»، وتتجمع على اليسار لتكتب «دق الخوف الباب يوماً فلما فتح الايمان الباب لم يجد أحداً بالخارج»، وتتجمع على السقف لتكتب «هؤلاء الواقفون أعلى الجبال لم يهبطوا من السماء»، وفي نهاية الطريق يوجد شعار الشركة ثلاث مربعات بألوان العلم المصري وتحتهم اسم الشركة «مربعات»

أكملت سيري إلى الداخل لأرى عظمة هذه الشركة رأيت الاستقبال والسكرتارية في منتصف قاعة الدخول فتوجهت لها وسألتها أن أقابل رئيس الشركة، كنت أتوقع أن تضحك وتنادي الأمن ليطردني ومثل هذه الأمور ولكنها وبشكل طبيعي رفعت سماعة الهاتف لتتحدث بعد ثوانٍ أن هناك من يريد مقابلتك وهو من طرف كذا وفي لحظات أغلقت الهاتف وقالت:

- توجه إلى هذا المصعد إلى الطابق رقم سبعة وانعطف يميناً ستجد مكتبه أمامك، هو ينتظرك

هززت رأسي وتحركت، راودني شعور أنها كانت تصف في شوارع وطرق حتى أصل إلى وجهتي، أغفلت كلمة هو ينتظرك لعدم تصديقي لها، لقد كان قلبي ينتفض من عظمة المكان الذي أنا فيه أمشي ،على كل حال اتبعت ذلك الطريق إلى أن وصلت للمكتب ووقفت أمامه برهة، باب أبيض عادي مكتوب عليه «لا تقبل بأقل مما تستحق»، بدأت أتحفز وأنا لم أسمع قصته حتى الآن، وقفت قليلاً متردداً في طرق الباب، قلت لنفسي لا أعتقد إنه سيكون هناك عذراً لفشلك بعدما تسمع قصة نجاحه،

هـذا إن حكاهـا بالأسـاس، قلـت عـلي أن أثبـت نفـسي لنفـسي حتـى أسـتطيع أن أثبتهـا للنـاس، سـأدخل إلى هـذا المكتـب شـخص وأخـرج منـه شـخصاً آخـر

طرقت الباب فقال من بالداخل؟

تفضل

ففتحـت البـاب وسـلمت لأجـد شـاباً في كامـل القـوة الجسـمانية والرياضيـة يقـوم مـن عـلى كـرسي مكتبـه لتظهـر الرسـمة الشـهيرة للفضائـي ذو اللحيـة الـذي يُميـز تيشـيرتات شركـة اسـتبرق المصريـة ،فأقبـل مُصافحـاً قائـلاً:

- وعليكـم السـلام أهـلاً وسـهلاً بـك آنـت إبراهيـم جـار عمـي عبـد اللطيـف ؟

- نعم

- اهلاً وسهلاً بجار عمي وابن بلدتي

وجذبني إلى الأريكة قائلاً:

- ماذا تشرب ؟

- لا شكراً لا شيء

- أنـت في ضيافتـي، سـأشرب قهـوة هـل أطلبها لـك أيضاً ؟

- حسناً

قام فطلبها ثم قال:

- وكيـف حـال البلـدة وأهلهـا، فلـم أزورهـا مـن قرابـة الخمسـة أعـوام

- الحمد لله، كلهم بخير وفخورين بك

- عمي عبد اللطيف أوصاني بك خيراً

- هل اتصل بك ؟

- أرسل لي رسالة بذلك فهو لا يتحدث في الهاتف كثيراً

- إذن أنت تعرف لماذا أنا هنا؟

- لماذا أنت فاشل ؟

- ماذا ؟!

- هو قال ذلك في الرسالة ليس أنا

- وماذا قال ايضاً ؟!

- قال إنك تبحث عن النجاح وإنه يرى إن احتككت بالناجحين فستكون مثلهم

- وهل هذا صحيح أم مجرد تحفيز معنوي ؟!

- لا ليس صحيح، بل هو الأصح يا رجل، كيف ينجح من لا يعرف معنى النجاح، وكيف لشخص أن يعرف معنى النجاح وهو لم يفارق عتبة بيته

- حسناً ....، هل توافق على سرد قصتك لي؟

- أولاً، ماذا ستفعل بها بعد ذلك ؟!

- ماذا تقصد؟

- أقصد إن هناك الكثير حاولوا تدوين سيرتي الصغيرة وكنت أرفض، وبصراحة لم أجد سبباً مقنعاً للرفض ولكني كنت أرفض، ولكن الآن أشعر أني أريد ذلك بشدة، العم عبد اللطيف أعلمني أن لك رواية قضت نحبها منذ فترة، فهل تمانع أن جعلت قصتي هي مشروعك الأدبي الجديد

- كيف أمانع ..، بغض النظر أن ليس لي مشاريع أدبية قديمة ولكني بالطبع لا أمانع، أنا أتمنى ذلك منذ زمن بعيد، فكيف أرفض إن جاءت فرصة كهذه

– حسناً، من أين تريدنا أن نبدأ ؟

– مـن أي نقطـة تريدهـا إلى يومنـا هـذا، سـأُخرج المسـجل ونبـدأ حـالاً

– أنت مستعد إذاً لكل شيء !!

– كيـف أصـل إليـك ولا أكـون مسـتعداً، لقـد اسـتعددت مـن قبـل أن أعرفـك حتـى

– حسناً سنبدأ الآن، إلى أن تأتي قهوتنا ،

– بسم الله

– بسم الله

***

الجزء الأول

كانت مجرد حياة

الحقيقة التي لا يدركها البعض، هي أن الضوء الخافت الضعيف يُخيف أكثر من الظلام الدامس، كذلك الحياة الهادئة

(١)

تبدأ كل القصص بالحياة إلا قصتي فتبدأ بالموت، لم أبلغ الحُلُم بعد لأجد أن أبي قد مات وتركني وحيداً، كنا في العام ١٩٩١ وكان الأمر صعباً أو هكذا يبدو عندما يكون المرء في الثانية عشر من عمره، على الآن أن أكون أبي لأعول أسرتي، لا مشكلة عندي في ذلك فأبي قبل أن يموت علمني أن أعيش، علمني أن الحياة لا تعطي كل شيء بل أن الحياة لا تعطي شيئاً اصلاً، وإنما علي أن أبلغ فمها لأصيب حظي منها وأعود، فلا يهمني أن تركت التعليم لأهتم بشئون أمي وأختي

كنا دائماً في حوار، لم يشعرني أبداً بأنني لازلت صغيراً فكان يحدثني عن مشاكل الورشة والأخشاب التي يرتفع سعرها كثيراً بلا تبرير وإن الحمل قد زاد عليه، وكنت دائماً أقول له أخرجني من التعليم وسأقف أنا مكانك

ودائماً ما يرفض، كان من هؤلاء الذين يظنون أن التعليم الحكومي هو تذكرة الفقراء لعالم الأغنياء، لا ألومه وقد كثُر كلامه عن إنه يُريد أن يراني مهندساً يفتخر بي أمام الناس وأغير حياتنا بذلك اللقب، وفي الحقيقة كان هذا حلمي أيضاً، أنا لم أتمنى تلك المسطرة أو الخوذة التي يرتديها المهندسون في مواقع عملهم، كنت أعلم أن هذا المجال أوسع من أن يُختزل في ذلك، خاصة أنني شغوف بالكهرباء منذ صغري، فكنت أُؤمن على دعاء أبي وأمي بصدق شديد

تركني أبي ومالي في الدنيا بعد الله إلا أمي وأختي وورشة الأخشاب تحت منزلنا، وأسرتي هي تقريباً كل ما أملك في الحياة، في رأيي لو ضاعت الدنيا ولك أهل فبأهلك ستعوض الدنيا، أما إن ضاع أهلك فالدنيا كلها لن تكفِ لتعوضهم، أمي مريضة السكري اسمها فاطمة، لا أعلم لماذا يخجل البعض من ذكر اسم أمه كأنه عورة، رغم أننا نعلم اسم أم النبي وأسماء زوجاته وأسماء بناته ولا عيب في ذلك، وأختي مروة والتي تصغرني بقرابة الأربعة أعوام، صارت مسئوليتي من لحظة مفارقة أبي الحياة، لو لم أنزل إلى الورشة وأعمل بها بنفسي فلن نستطع أن نأكل لأنها مصدر رزقنا الوحيد، حدثت أمي أني أريد أن أخرج

مـن التعليـم لأتفـرغ لإدارة الورشـة فقالـت لي جملـة لـن أنسـاها مـا حييـت:

- إذا خرجـت مـن التعليـم سـتبقى في هـذه الورشـة للأبـد وسـنصير عـلى حالتنـا بـلا تغيـير، أمـا إذا بقيـت في التعليـم وتفوقـت فيـه وحققـت حلمنـا فسـتصبح مديـر شركـة وأنـت تعلـم مـا الفـرق بـين الورشـة والشركـة

كانـت أمـي ممـن يتحدثـون بصيغـة الجمـع دائـماً فتقـول حلمنـا و نفعـل نكـون ونصبـح ..... ودائـماً مـا تدفـع للأمـام بنصائحهـا المُلهمـة، هكـذا عهدتهـا برغـم تعليمهـا المتوسـط

أختـي لم تنتـهِ مـن تـرك دميتهـا لتتفاجـيء بـأن أبوهـا لـن يدخـل البيـت مـرة أخـرى ولـن يلعـب معهـا مـرة أخـرى بتلـك الدميـة مبتـورة القـدم، أذكـر يـوم ميلادهـا رغـم أني كنـت في الرابعـة مـن عمـري حينهـا، أذكـر تلـك الفتـاة التـي لا تسـتطع فتـح عينيهـا، أذكـر عندمـا قَبّلـتُ قدمهـا لأننـي أحببت حجمهـا متناهـي الصغـر، أذكـر .... أذكـر أن عـلي رعايتهـا لأني صرت الآن أبيهـا

بعـد وفـاة أبي بأربعـة أيـام جـاء عمـي ليتحـدث معـي، رفضـت أمـي وقالـت - اذهـب أنـت لتذاكـر وأنـا سـأتحدث معـه

كنت أعلم أنه جاء ليتحدث عن ميراث أبي وكنت أعلم إن عمي لم يترك أبي وهو حي فكيف الحال وهو ميت، غريبة هي العلاقات الأخوية من الخارج والمادية البحتة من الداخل، فلم يمض على وفاة أخيه سوى أربعة أيام وجاء ليتحدث عن نصيبه من الميراث

- ولكن هذا ظلم

سمعت أمي تقول ذلك في حسرة فرد عمي:

- لا ليس ظلماً وأنا لي حق في البيت والورشة مثل أخي بالضبط وابنك لازال طفلاً ولا يدرك أنه يجب أن يعمل فيها حتى لا تغلق وتموتوا جوعاً

- وماذا تريد ؟!

- لا أريد سوى حقي، وحقي الآن هو الورشة

- وكيف سنعيش بدونها؟

- سأعطيك ما يكفيك كل شهر

وفي هذه اللحظة ومع سكوت أمي قررت أن أتخلى عن صمتي وخرجت من غرفتي لأسدد له لكمات في صورة كلمات لطالما خنقتني:

- ومـن قـال لـك أننـي لـن أسـتطيع أن أُديـر تلـك الورشـة ومـن قـال لـك أننـا سـنقبل بتلـك الصدقـة التـي سـتأخذه مـن حقنـا لتعيدهـا إلينـا مـرة أخـرى، مـا الـذي جـاء بـك الآن هـل نسـيت أن أبي متـوفي مـن أربعـة أيـام فقـط وأنـت قـادم لتتحـدث عـن حقـك !! سـأحدثك عـن حقنـا، حقنـا هـو ألا تجلـس هنـا ،هيـا تفضـل اخـرج مـن هنـا

- منصور !

- لا يا أمي ليس اليوم

- تطـردني يـا ابـن أخـي، حسـناً سـأكتفي بمشـاهدتكم وأنتم تموتـوا جوعـاً من بعيد، حتـى تأتي إلي وتتوسـل لأُدير أنا الورشـة

- في أحلامك

قلتهـا وأعطيتـه ظهـري لأسـتمع بعـد لحظـات لصـوت غلـق البـاب

رفعـت أمـي نقابهـا ونظـرت إلي متسـائلة عـن سـبب فعـلي ذلـك، لم أرد ولكنـي نظـرت في عينيهـا، نظـرة تُفـسر الأمـر كلـه فهـزت رأسـها راضيـة

ورغـم أني كنـت لازلـت في المدرسـة الاعداديـة، صغـيراً عـلى تحمـل مثـل هـذه الصفعـات إلا أننـي - وكـما يقولـون -

أن أبي قد ترك من خلفه رجل، فتوليت إدارة الورشة كما كان يفعل أبي بل أكثر جلست مع تجار الأخشاب وصرت معروفاً بينهم لفترة ليست بالكبيرة بالنجار الصغير، استطعت أن أُنفذ تصاميم أثاث جديدة غير التقليدية في بلدتنا وكل هذا حدث في عامين فقط وأيضاً بجوار دراستي في الشهادة الاعدادية وأول الثانوية

تحدثنا عن أسرتي ولم نتحدث عني أنا، أنا - وأعوذ بالله منها كلمة واستغفر الله العظيم أن أبدأ بها كلامي - اسمي (منصور السيد الشرقاوي) من مواليد عام ١٩٧٩، مضت حياتي بين نجاح في الدراسة ونجاح آخر في العمل الشاق فيما تركه لنا أبي ،ورشة الخشب

ونفس النجاح في الدراسة والورشة يعادله تعب ومشقة وجهد نتيجة ضغط الدراسة في الثانوية - ذلك الوقت - والعمل والرعاية الطبية لأمي والمذاكرة لأختي

الكل يقول لي : « صاحب بالين كاذب «

أي بمعني أوضح أما تترك دراستك وتتفرغ لتلك الورشة أو تبيع هذه الورشة وتتفرغ لدراستك

ولكن لدي نظرة أخرى إلى صاحب البالين إنه ناجح وإلى صاحب الثلاثة بإنه عبقري وإلى صاحب الأربعة

بإنـه عظيـم بالاضافـة إلى أننـي عنيـد وعاشـق للتحـدي، لمَ لا أخـوض ذلـك التحـدي سـأعمل وسـأدرس، ببسـاطة لأنـه ليس اختيـار بـل هـو إجبار ،لأنـه لـو لم أعمـل فلـن أجـد مـن يـصرف عـلي أنـا وأسرتي، ولـو لم أدرس سـأبقى دائـماً في تلـك الورشـة كـما كان أبي وليسـت أحلامـي هنـا، فيمكـن أن أقـول أن العمـل والدراسـة بالنسبة لي هما مسـتقيمان متوازيـان أسـير عليهـما الأثنـين معـاً دون أي تقاطـع بينهـما، وقـد علمنـي أبي إنـه إذا كنـت مجـبراً عـلي فعـل شـيئاً معينـاً ولا مفـر مـن فعلـه، فعـلي إيجـاد الطريقـة الخاصـة بي لتنفيـذه

ولكـن ـ ومـع كل هـذا التعب ــ انظـر إلى غداً بأنه سـيكون أفضـل بالتأكيـد لأن دوام الحـال مـن المحـال سـواء كان ذلـك الحـال جيـداً أم سـيئاً فكنـت عـلى ثقـة أننـي ببـؤسي هـذا كلـه سـوف أربـح حيـاة جديـدة مريحـة ،أعلـم أن الراحـة والحيـاة الجديـدة سـيكون ثمنهـا باهـظ جـداً ولـن يُقـاس بالجهـد المبـذول فقـط بـل يُقـاس بصـبري وجَلـدي عـلى الأحـداث والصعـاب ومـدى تحمـلي وإصراري عـلى تحقيـق أهـدافي وتمسـكي بهـا في محطـة هجرانهـا، فثمـن المجـد هـو المسـئولية

هنـاك أحـلام أريـد تحقيقهـا مثـل حيـاة غـير متعبـة ومليئـة بالراحـة والغنـى والمجـد، ربـما كنـت أتظاهـر كل يـوم بـأني أريد كل هـذا وأنـا في نفسي فقـط أريـد أن يعـود أبي فقـد كان عصب

حياتي وعمودي الفقري الذي أقوم عليه، ولكن إن طال وقت التظاهر بشيء ترسخ في العقل إنه حقيقة وعليك أن تحارب من أجله، أننا لا نحصل على كل ما نتمناه أو نريده في هذه الحياة، و بوتيرة سريعة جرت الأحداث منذ وفاة أبي، وبالطبع ككل طلاب تلك الثانوية يحلمون بالمواد تطاردهم، لا يتركنا فرادى حتى ونحن نيام، تهاجمنا معادلات الكيمياء في عُقر أحلامنا ولكن هي فقط فترة، ستنقضي بحلوها ومرها وبغض النظر أنه لا يوجد فيها حلو ولكنها ستمر .. سوف تمر، المذاكرة متعبة وما يتعب أكثر هو اعتقاد زملائي إنه بما أنني ممتاز في الدراسة فإن هذا يمنحني راحة ممنوعين هم منها بل أني أتعب أكثر منهم، حصلت في الصف الثاني الثانوي على نتيجة مُبشرة وحقيقةً لا أذكرها ولكني أتذكر شعور الفرحة العارمة التي دخلت قلب أمي عندما أخبرتها بها واتبعتها بقولي ؛ فإذا حصلت على مثيلتها في الصف الثالث فسأدخل كلية الهندسة بإذن الله، فرفعت يدها للسماء وقالت:

- لن يخذلك الله مادام معك، وهو دائماً معك

***

(٢)

دخـل أبي عـلى غرفتـي يومـاً مـا، كنـت في الابتدائيـة وقتهـا، كنــت أعبــث في أســلاك كهربيــة معقــدة متصلــة بمصابيــح صغــيرة علّقتهــا عــلى الحائــط، فقــال:

- إن اضـــاءت هـــذه المصابيـــح بتلـــك الأســـلاك المعقـــدة ســـأعطيك جُنيهـــاً

ألتفت له وأنا أوصل بعض الوصلات وأخبرته:

- ستنير وستعطيني الجنيه سترى

أوجـت البطاريـة في صنـدوق ورقـي قـد صنعتـه لهـا، وقبـل أن اضغـط عـلى الـزر قلـت لـه:

- اطفيء النور أولاً

فمـد يـده بجـوار بـاب الحجـرة وتسـللت مـروة مـن جـواره إلى الحجـرة المظلمـة، فتحسسـت بيـدي الـزر ثـم ضغطـت، فأضـاءت مصابيـح الحجـرة كلهـا، صفقـت مـروة ورفعـت رأسي لأبي فخـراً، فمـد يـده إلى جيبـه وأخـرج الجنيـه وأعطـاني إيـاه قائـلاً:

- هذه مكافأة لصُنعك شيئاً جميلاً كهذا، ولكن

ضم يده ناحيته قليلاً، تمهيداً لما سيقوله

- لا تجعل هذه الأشياء تصرفك عن دراستك وواجباتك

مددت يدي أنا وأمسكت بكفه، قائلاً:

- لا تقلق يا أبي، لقد صنعتها بعدما انتهيت من واجباتي

كـبرتُ، وكـبر معـي هـذا الشـغف، شـغف الكهربـاء، كنـت أنتهـز كل فرصـة يتلـف فيهـا جهـاز كهـربي أو تتعطـل الكهربـاء في أي مـكان فأذهـب لأصلحـه أنـا، ومـن هـذا الشـغف كان حلمـي أن أُكمـل دراسـتي في مجـال يسـمح لي بالتعمـق فيهـا أكثـر ومـن هنـا جـاء هـدفي بدخـول كليـة الهندسـة والتـي ستُتيح لي فرصـة دراسـة الكهربـاء عـن قُـرب

لـدي هـدف أو ربـما فكـرة أريـد أن أُنفذهـا بعـد دراسـتي الكهربـاء بشـكل أوسـع هـو اخـتراع جديـد سـيخلق طفـرة

في مجـال توليـد وتخزيـن الكهربـاء، ولكـن كل شيء في مخيلتـي لا عـلى ورق قائـم عـلى أبحـاث علميـة عمليـة، عـلى كل حـال هـي خليـة شمسـية اسـميتها « الخليـة المرويتيـة « اسـم غريـب أعلـم ولكنـي أسـميتها بهـذا الاسـم بسـبب إلحـاح أختـي مروة عـلى أن اسـميها باسـمها، وهـي عبـارة عـن خليـة شمسـية فيزيائيـة تولـد الكهربـاء بفعاليـة أكـبر مـن أي خليـة موجـودة حاليـاً بنسـبة تصـل لثـلاث أضعـاف ولـدي فكـرة أخـرى وهـي مولـد وبطاريـة ذات قلـب سـداسي الشـكل يغـذي المولـد البطاريـة ويحـدث العكـس أيضـاً، شيء أشـبه بتوصيـل دينامـو وموتـور معـاً ولكنـه أعقـد، وبهـذا فيمكـن اسـتبدال كل أنـواع البطاريـات الأخـرى المسـتخدمة في كل أنـواع الأجهـزة، وكـما قلـت كل ذلـك فقـط في مخيلتـي، ينجـح فقـط في مخيلتـي لا أبحـاث لا تجـارب لا دراسـات علميـة

وفي الحقيقـة كنـت في وقتهـا لا أجـد أي فـراغ لأملـؤه بالعمـل عـلى ذلـك المـشروع ولكـن ربـما بعـد ذلـك.

وفي أواخـر عـام ١٩٩٦ اشـتد التعـب أكثـر، وبينـما الأحداث تشـتد في فلسـطين العظيمـة (*) أحـداث نفـق الـبراق، كانـت الدراسـة تشـتد هـي الأخـرى علينـا ولكـن شـتان بينهـما، ومـضى العـام الأخـير مـن الثانويـة وجـاء وقـت نتيجـة الثانويـة

العامـة، كنـت عـلى علـم وأمـل في ربي وبحمـد الله تعـالى تحقـق حلمـي أخـيراً سـأصبح مهندسـاً تفتخـر بي أمـي ويفتخـر بي مـن قبلهـا أبي، سأُحقق مـا حلمـت بـه مـن توفـير حيـاة كريمـة لأمـي وأختـي

عـدت إلى المنـزل مـاراً بمنـزل عمـي عـلى ناصيـة حارتنـا، فوجـدت أحمـد ابنـه يجلـس عـلى البـاب وينظـر لي وأنـا قـادم، غالبـاً كان ينتظـرني

- ماذا فعلت ؟!

- الحمد لله، حصلت علـ..

قاطع كلامي بلهجة مُتلهفة باردة في الوقت ذاته:

- ستدخل كلية الهندسة، صحيح ؟

- إن شاء ربي

- في النهاية ستأتي لتجلس بجواري في المقهى

ألقـى هـذه الجملـة الشـنيعة ودخـل المنـزل دون أي تعبـيرات إضافيـة أو حتـى إنتظـار لمـا إن كنـت سـأرد عـلى كلامـه أم لا، سرتُ في طريقـي أتذكـر أننـي في حيـاتي لم تسـتمر سـعادتي لوقت طويـل فدائـماً مـا يـأتي شـيئاً يقطعهـا عـلي، لمـاذا قـال ذلـك ؟!

،وعندما وصلت المنزل تذكرت إنه في الأصل خريج كلية العلوم منذ ثلاثة أعوام ولا يعمل حتى يومنا هذا، وخلال وقفتي أمام باب بيتنا لمدة ثلاثين ثانية تخيلت نفسي مكانه هل سأقضي حياتي مثله لقباً وحسب ؟

هل هذه ستكون نهايتي بعد العناء والفرحة بنتيجة هذا العناء .. هل ...

أفاقني من غيبوبتي تلك؟، زغاريد نساء الحارة الفرحين بما حققه أولادهم وبناتهم من تلك الثانوية، حارتنا بها أكثر من سبعة طلاب في الثانوية لذا فكانت المنافسة حامية، فكل أم لا تُريد أن تتفوق أي أم أخرى عليها، عادة سيئة تربينا عليها ألا وهي تمني الفشل للغير لإظهار النجاح للنفس إعتقاداً خاطئاً فلا يوجد نجاح بُنيَ على حطام فشل الآخرين

صعدتُ السلم لأجد أمي على لهفة تقابلني:

- خير يا منصور ؟!

- الحمد لله، سأدخل كلية الهندسة إن شاء الله الذي تتمنيها لي

- الحمد لله رب العالمين

وأطلقــت زغروطــة مدويــة لتُســمِع أهــل الحــارة إن بيتنــا جديــداً ضُــم إلى البيــوت الســعيدة

- ولكن لا يبدو عليك أنك سعيد، لماذا ؟!

أمــي، حتــى رغــم أننــي أحــاول أن أتصنــع عــدم وجــود شيء، شــعرت بــما في نفــسي

- لا شيء يــا أمــي أنــا ســعيد جــداً ولكــن أنــت تعرفيننــي لا أســتطيع إظهــار مشــاعري

ومضينــا إلى أمورنــا اســتعجل دخــولي إلى كليــة الهندســة إلى شــغفي الــذي حلمــت بهــا كثــيراً، ســأكمل مشروعــي ســأكمل حلمــي ســأصبح مــا أريــد ودخــولي كليــة الهندســة كان أول خطــوة، كليــة الهندســة جامعــة القاهــرة

وانتظــرت بفــارغ الصــبر أول يــوم لي في الجامعــة ولكــن الآن يجــب أن أســهر تلــك الليــالي في الورشــة لأعــوض مــا أجلتــه مــن أعــمال خــلال فــترة امتحانــاتي

كان لدخــولي كليــة الهندســة بهجــة وسرور لي ولأسرتي الصغــيرة التــي تباهــت وتفاخــرت بي في كل مــكان وكل مجلــس، وبالطبــع لا ينبغــي ،لا أذكــر وجــوه كل مــن قــال لي « اتــرك دراســتك مــن أجــل الورشــة « التــي بــدت مندهشــة مما يحــدث

- هكـذا هـم المحبطـون دائـماً - يحقنونـك بالاحبـاط حقنـاً ثـم يندهشـوا مـن عـدم عمـل مفعـول حقنتهـم عـلى بعـض النـاس

مـرت الأيـام سريعـاً، وذهبنـا إلى الجامعـة، جامعـة القاهـرة، لا أخفيـك سراً كنـت أتمنـى أن اذهـب في أي مـكان آخـر غـير ذلـك المـكان، وأيضـاً لا أُخفـي عليـك أننـي شـعرت بالوضاعة بعـض الـشيء، فلقـد رأيـت لأول مـرة تقريبـاً كيـف هـم أهـل القاهـرة، أهـل العاصمـة التـي يتحـدث أهـل الريـف عنهـم بالاسـاطير، لم يكـن عـلى أيامنـا تلـك ذلـك المعتقـد بأنـك عندما تدخـل الجامعـة سـتصتدم بفتـاة وتسـقط الكتـب لتنـزلان معـاً فتنظـرا في عينـا بعـض وتبـدأ قصـة حبكـما، ولكن بصدق شـديد ،قـول لـك أن هـذا مـا حـدث معـي بالضبـط ولكـن مـع تغيـير كلمـة فتـاة وجعلهـا سـيارة، كنـت أتأمـل تلـك القبـة العظيمـة ناسـياً متناسـياً كل مـا هـو حـولي إذ بسـيارة تشـبه علبـة الثقـاب تطيـح بي أرضـاً، لأجـد نفـسي أمامهـا بحـوالي المتريـن أنظـر لهـا دون اسـتيعاب لمـا حـدث، لا أتـألم ولكـن هنـاك عـدم فهـم لمـا حـدث، أفاقنـي ذلـك الصـوت الغاضـب الـذي نـزل مـن السـيارة النملـة ليقـول:

ــ لماذا تسير هنا أيها الغبي ؟!

قمت بسرعة ووقفت منتصباً انفض التراب من على ملابسي وبعدما ألتف الناس حولنا قلتُ:

ــ إن كان السائر غبي فإن السائق أغبى

وما هي إلا لحظات لأستمع إلى كم شهيق من المُلتفين حولي لم أسمعه في حياتي، فاستنتجت بذكائي الفظيع أن ذلك الرجل لن يقل منصبه عن دكتور في الجامعة أبداً، وبينما ألتفت الطلاب حولي طلت فتاة كانت تجلس بجواره في السيارة الصغيرة لتقول:

- الحمد لله لم يحدث شيء، أنت بخير لذا لا داعي لتلك العطلة هيا يا أبي

وسحبت يد الرجل ودخلوا السيارة وتفرق الجمع وانتهى الأمر حتى الآن .. حتى الآن، في الحقيقة لم أنسَ وجه تلك الفتاة لمدة طويلة جداً ربما نسيت وجه الرجل معها بعض الشيء، إنها كانت من النوع الذي يفرح النسيم لمروره على وجهها، من النوع الذي إذا ما تحدث الناس عن القمر أو الجمال ذُكرت هي، ظلت كلماتها البسيطة تتردد على مسامعي كثيراً حتى حفظتها ولسوء الحظ لم أراها العام الأول بأكمله ولسوء الحظ أيضاً كانت جميلة جداً

عـدتُ للمنـزل وبعـد صـلاة العـصر نزلـت الورشـة لأُنهـي بعـض الأعـمال وأُسـلمها لصاحبهـا، تجلـب لي مـروة كـوب الشـاي الـذي أعدتـه أمـي، وتجلـس تنظـر إلي

ــ لماذا تنظرِ لي هكذا ؟!

ــ كأنني أنظر لأبي

ــ هل تتذكرينه ؟!

ــ وكيف أنساه ؟!

ــ أقصد إنكِ كنت لازلتِ صغيرة

ــ كنت في الثامنة، طفلة والأطفال لا تتذكر سوى آبائهم

جلسـت ارتشـف كـوب الشـاي وصمـت برهـة لأُشاكسـها قائـلاً:

ــ أنت لازلتِ طفلة صغيرة حتى الآن، لم يتغير شيء

تـوردت وجنتاهـا قليـلاً، كنـت أحـب غضبهـا كثـيراً، قالـت بغضب :

ــ أعتقد أني سأظل في نظركم طفلة للأبد

قمت إليها فقبلت رأسها بحنان وأخبرتها:

ــ لذلك سوف ابقي أرعاك إلى أن أموت

– تمـوت، لمـاذا تقـول ذلـك ؟!، لـو سـمعتك أمي سـتغضب منــك كثيراً

– النـاس تغضـب عنـد ذكـر المـوت ولكنـه الحقيقـة، أنـا لـن أبـقَ للأبـد ولـن يفعـل أي أحـد في الدنيـا

ــ هل الموت يعرف من يأخذه ؟!

ــ بالطبع يعرف، ويعرف كم سيحزن عليه أقاربه

نظرت في الارض لثانية ثم قالت:

ــ الموت قاسٍ

ــ لماذا ؟

– هـو يعـرف كـم سـأحزن وسـنحزن عـلى فـراق أبي، ولكنه أ خذ ه

احتضنتها وهمستُ في أذنها:

ــ لأنها سنة الحياة، سنة الحياة الموت

تفكـرت في الكلمـة التـي خرجـت لتوهـا مـن فمـي، سـنة الحيـاة، الحيـاة نعـم هـي المـوت مـن الأضـداد نحيـا

ــ ترك أبي لنا ألف قصة وقصة قبل أن يرحل، فلا تقلقِ

– حقاً، أخبرني بها إذاً، كلما سألت أمي عن أبي، يغلب بكاؤها كلامها فلا أفهم منها شيئاً

– حسناً سأحكيها لكِ ولكن بعدما تنهي واجباتك الدراسية أولاً، وحتى انتهي أنا من العمل وأصعد، اتفقنا ؟!

ــ اتفقنا !

قامت مسرعة لتُنهي واجباتها لتسمع ما سأقوله عن أبي، وماذا سأقول يا مروة، كيف ،أصف الجدار، كيف أصف العمود الفقري سوى بالسند، السند الذي لا تؤثر فيه الرياح العاتية، والذي يضم ،أولاده تحته حماية من الخطر، والذي يحارب من أجلهم، يذوب الحاضر مني ذاهباً بي للماضي، لأبي رحمه الله

ــ هكذا يا منصور، هكذا

ثم يتناول المنشار مني ليقطع قطعة خشبية عنيدة معي، يقطعها بكل سهولة ويسر ويلتفت لي قائلاً:

– بهذه الطريقة ستكون قطعة الخسب في يدك كالعجين اللين يمسح عن جبينه عرقه ويمد يده بالمنشار ويقول:

ــ هيا جرب فعل ذلك

امسكه وافعل مثلما يفعل، على اعتقاد أن قطعة الخشب ستعرف أنني أريد قطعها، تقطع بعد معركة، ألتفت لأبي المبتسم قائلاً:

ــ ليست سهلة ولكني قطعتها في النهاية

ربما كنت في العاشرة أو التاسعة لا أتذكر جيداً ولكني أتذكره هو

***

(٣)

الجامعـة مزدحمـة دائـماً، تشـمخ القبـة أمـام الناظريـن للحـرم الجامعــي، تمــر الأيــام سريعــاً بهــا، لا صداقــات ولا علاقــات قامــت أو ربـما سـتقوم بهـا

ــ لماذا تترك الريف ،،وتأتي لتخنقنا هنا؟

كان التسـاؤل العنـصري الأول الـذي سـمعته منـذ أن دخلت الجامعـة، كان مـن ذلـك الفتـى الغريـب، كل أفعالـه وضحكاتـه مسـتفزة وتثـير الغضـب، يلتـف مـن حولـه فتيـان يتشـبهون بـه ،يقتـدون بـه ،لفـترة كان كل مـا يفعلـه تجاهـي هـو حديثـه المسـتفز والسـاخر العنـصري، كأنـه ولِـدَ مـن طينـة غـير التـي خُلِـق بهـا بقيـة العـالم، إلى أن جـاء يـوم لابـد منـه

كان أمــام امتحانــات نهايــة العــام الأول قرابــة الشــهر والنصـف يـوم وقـف أمامـي يمنعنـي مـن المـرور، لم يكـن

جسـدي هزيـل لدرجـة كبـيرة، ولكنـي كنـتُ أملـك القـوة لدفعـه بعدمـا علمـت أن مقصـده الشـجار وحسـب، تجمـع بعـض الشـباب، تحفـز للـرد ،فأجبتـه:

- أنـا لا أريـد أي مشـاكل، لا أريـد أن أتعـارك معـك، فأبتعـد عـن الطريـق

رد بكل سماجة:

- إذا لم تكـن تريدهـا أنـت، فأنـا أريدهـا، مـا مشـكلتك أنـت إذاً؟

صمـت أُفكـر برهـة في الـرد المناسـب مـع مثـل هـذا الشـخص، فلـم أجـد إلا لغتـه

- مشكلتي إنك تقف في طريقي

جمعـت كل قـوتي ودفعتـه دفعـة شـديدة، حتـى أنـه سـقط مـع مـن كان خلفـه، قـام ينفـض الغبـار عـن ملابسـه، وتقـدم ليبـدأ عـراك اهـرب منـه حتـى لا يمسـك بي أفـراد الأمـن الذيـن تجمعـوا عـلى أصـوات الشـباب، انتهـى الأمـر، ربـما انتهـي، لا ألم ولكنـي قللـت مـن عـدد الأيـام التـي أحضرهـا قبيـل الامتحـان لأتحاشـى الاصطـدام بهـذا الطالـب مـرة ثانيـة، وعندمـا جـاءت الامتحانـات، ولسـوء الحـظ كان يجلـس في نفـس اللجنـة ويتقدمنـي بثـلاث أفـراد، لم يفعـل شيء سـوى

النظـر باسـتفزاز مبالـغ فيـه، علمـت أن اسـمه عمـر، وعلمـت أيضـاً أن مسـتواه جيـد دراسـياً، اسـتغربت لذلـك، فغالبـاً كل الطـلاب المتنمريـن فاشـلون دراسـياً، ولكنـه فتـى غريـب عـلى كل حـال، مضـت الامتحانـات بهـذا النمـط إلى الامتحـان قبـل الأخـير، كان في مـادة « الميكانيـكا « ،اقـترب مني أحـد الزمـلاء ليقـول:

- أعتقد أن عمر لن يضايقك مرة أخرى

- لماذا ؟!

- بعـد الامتحـان المـاضي، عـاد ليجـد، منزلـه احـترق بالكامـل، ألا تـرى حالـة الـذل الـذي صـار عليهـا؟

- لا حـول ولا قـوة الا بـالله، يـا أخـي هـذه مصيبـة، أنفـرح فيـه ؟!

- لقـد كان يؤذيـك، وأني لأرى هـذا عقـاب لما فعلـه تجاهك، حتـى زمـلاؤه الـذي كان لا يسـير إلا وهم معـه، تركوه

كان الامتحـان صعبـاً بحـق، ولكننـي أجبـت عـلى أسـئلته جميعـاً، انظـر إلى عمـر هـذا يتلفـت هنـا وهنـاك ينـادي هـذا الفتـي الـذي كان يلازمـه دومـاً فـلا يـرد عليـه، أفكـر في أن مصيبتـه ربـما لم تمكنـه مـن المذاكـرة بشـكل جيـد لهـذه المـادة، كان يجلـس في صمـت وذل وحـزن، كان هنـاك مـا يقـرب مـن

نصف ساعة متبقية، نقلت الاجابات في ورقة الأسئلة وكتبت عليها عمر، قمت من مكاني واقتربت من مقعده وتعمدت إسقاط ملفه وورقته على الأرض، انحنيت لألتقط الملف وأدس فوقه ورقة أسئلتي أنا وقبل أن أسير في طريقي نادى المراقب يقول:

ـ ورقتك تلك، أليس كذلك ؟!

استدرت ناحية عمر الذي بدا عليه الاستغراب من هذه التمثيلية البسيطة، وأمسكت بورقتي من أمامه لأريها للمراقب قائلاً:

ـ اسمه عمر، يكتبه على ورقته هنا

وضعت الورقة أمامه وهمست:

ـ سريعاً انقل الاجابات في ملفك

وخرجت من اللجنة وسريعاً عدت إلى منزلي، إن بعض الأمور لا تتم إلا بحركات مجنونة كتلك

بعد ذلك بفترة ليست كبيرة جاء آخر امتحان في العام الأول، الكيمياء، كانت نظراته غير التي أعتدها منه، كانت نظرات احترام واعتذار، لم أنظر إليه كثيراً حتي لا أحرجه، أنا لست ملاك ولكني أزعم أن وراء كل فعل سبب وحكاية

كبيرة، ربما سنعرفها فيما بعد وربما ستبقى مخفية عن الناس ولكن دائماً هناك سبب وحكاية، انتهى الامتحان، وعندما أفقت من غيبوبته أدركت أنني الأخير في اللجنة، فتقدمت للمراقب بالورقة متجاهلاً نظراته الحارقة التي ربما تسبني لأنني سبب تأخيره عن عودته بيته باكراً، كان يجلس أمام اللجنة ناظراً إلى الاتجاه المقابل حيث يقف أصدقاؤه، لا أعلم إن أصبحوا قدامى أم لازالوا أصدقاؤه فعلاً، ولكني انتهزت تلك الفرصة لأهرب منه مرة أخرى، كنت أتجنب الحديث المباشر معه ولا أعلم السبب لذلك

عدت إلى بلدتي هذا اليوم منهكاً، ربما كانت الساعة الرابعة تقريباً، تسبقني في الشارع سارة عائدة من مدرستها، هي جارتنا ومثل أختي وصديقتها بحكم إنها في نفس عمرها وهي بنت الاستاذ إمام أستاذي في مدرسة الثانوية

وكان «فتوة« - إن صح التعبير - شارعنا (جاد) سانداً ظهره إلى بيت عند الناصية، فلما رآها تقدم ناحيتها وقال لها:

- ما فائدة ذهابك إلى هذه المدرسة فعندما نتزوج لن تعملِ

قالها بلغة عامية طبعاً فبلطجته لا ينبغي أن تكون با لفصحى

لم تـرد عليـه ولم ترفـع رأسـها لـه حتـى وأرادت أن تمـشي فـأسرع ورائهـا وشـد يدهـا وقـال:

ــ ستتزوج سواء وافقتي أم لم توافقِ

وهنـا يتدخـل أبلهنـا، وهـو لا يعـرف مـا سـيفعل أو مـا سـيقول فقـط يتدخـل فأمسـكت بيـده وقلـت:

ــ ألا ترى أن من العيب فعل ذلك ببنت حارتك؟

ماهـذا الهـراء الـذي قلتـه وهـل مـع هـذا البلطجـي أي عيـب، تمنيـت أن نعيـد المشـهد لأقـول شـيئاً غـير الـذي قـد قيـل ولكنـه تـم، عـلى الأقـل تركهـا تذهـب، ولكـن ....

ألتفـت إلي ولم يتحـدث بـل أومـأ برأسـه لثلاثـة آخريـن بجـواره ثـم .... ثـم أظلـم النـور ولم أشـعر بـأي شيء بعـد ذلـك

لم أكـن في هـذا الوقـت هزيـلاً ولا قويـاً أيضـاً ربـما كان بإمـكاني أن أدافـع عـن نفـسي ولكـن البغتـة هـي مـا أدت لذلـك، فتحـت عينـي لأجـدني في السريـر وبجـواري أمـي ومـروة عـلى الجنـب الآخـر مـن السريـر وهنـا فقـط أدركـت أنهـم أبرحـوني ضربـاً ..

أرفع عيني لساعة الحائط فأجدها الساعة الرابعة، كيف وضعوا كل هذه الضمادات وعدت إلى المنزل فلا وقت تقريباً فسألت مروة التي ردت بابتسامة

ــ نعم الساعة الرابعة، ولكن اليوم هو الأثنين

اللعنة، لقد كانت تلك المعركة - التي لم أدرك فيها إلا ثانيتين - يوم السبت وهذا يعني إني بقيت في السرير يومين كاملين لا أشعر بشيء، من الواضح إنهم يحبوني كثيراً

ثم بعد ذلك سكنت السرير لمدة لا أذكرها ولم أخرج من البيت لأي سبب بما فيهم الجامعة وبالإضافة إلى كل ذلك، لوم أمي الذي تنتهي منه لتعيده علي مرة أخرى

- لماذا تدخلت ؟!، (ما ينوب المخَلص إلا تقطيع هدومه)

وفي يوم ما بعدها بفترة قصيرة، حدث حوار بين ثلاثة: أسرتنا فقالت أمي

- الورشة مغلقة منذ السبت، لو لم تتدخل ذلك اليوم لكنت فتحتها والآن أخبرني من سيفتحها غيرك

فردت مروة:

ــ أنا سأفتحها أنا لست صغيرة

اعتدلت في جلستي ووجهت وجهي ناحية مروة لأقول:

- نعم لست صغيرة ولكنك بنت

فـردت وقـد بـدا عليهـا الغضـب، وتطايـر مـن عينيهـا الـشرر

- أنـت مـن يقـول ذلـك وأنـت الـذي قلـت لي أن في هـذا العـصر هنـاك فتيـات وسـيدات فعلـن مـا لا يسـتطيع الرجـال أن يفعلـوه

في الحقيقـة هـي محقـة ولكـن أغلـب النـاس يدعـون للـشيء وعندمـا يـأتي ليطبقـه عليـه يدعـو عليـه

- ولكـن قـولي لي كيـف سـتعملي فيهـا أو ليـس ذلـك حتـى كيـف سـتقابلي مـن سيتسـلم أعمالـه غـداً

- سـأتصرف مثلـما تتـصرف أنـت ومـن قبلـك أبي هـل نسـيت إني بنـت أبيـك ايضـاً ؟!

وفي الحقيقـة وافقـت عـلى ذلـك لمـا بدا عـلى وجههـا الإصرار و قلت :

- حسناً، غداً سيأتي الـ.....

وهنـا قطـع الحديـث طـرق البـاب وصـوت جارنا وأسـتاذي إمـام والد سـارة

- باشمهندس منصور

قامت مروة مسرعة وفتحت الباب ....

دلـف الاسـتاذ إمـام ومعـه ابنـه محمـد الـذي يصغـرني بعـام وخلفهـم جـاءت سـارة، فتـاة جميلـة وذكيـة ومتفوقـة في دراسـتها - مثـل أختـي تمامـاً -

لم أتحـدث معهـا مـن قبـل ولكـن مـروة أخبرتنـي إنهـا تتمنـى أن تكـون محاميـة، أتعجـب قليـلاً ولكنـي لا أركـز كثـيراً في الأمـور التـي لا تهمنـي، هـذا الأمـر يهمهـا هـي، فليرزقهـا الله مـا تريـد، ولكـن خـيراً فيهـا هـو أنهـا تـرى مسـتقبلها البعيـد وتخطـط لـه مـن الآن لأن أغلـب الطـلاب بـل أغلـب النـاس يفتقـدون لرؤيـة مبكـرة عـن مسـتقبلهم ..

عـلى كل حـال حاولـت أن أقـوم مـن عـلى السريـر فأوقفنـي، فأكتفيـت بـأن أسـند ظهـري إلى الوسـادة، فتقـدم وسـلم عـلي وقبلنـي ثـم أتـى محمـد ابنـه وهـو صديقـي بحكـم أننـا جـيران والفـارق السـني بيننـا صغـير وجلسـت سـارة مبـاشرة وكان وجههـا محمـراً بطريقـة لافتـة

رغـم كل الصفـات الحسـنة الموجـودة في هـذه الفتـاة والـذي يتوجهـا حياؤهـا، إلا انني لا أراهـا سـوى مثـل أختـي ولم أفكر بهـا غـير ذلـك

ساد الصمت برهة، طلبت أمي من مروة إحضار نظاراتها فقامت وكسر الاستاذ الصمت فقال:

– كنا سنأتي بالأمس ولكن سارة كانت مشغولة فقالت أن تكون الزيارة اليوم حتى تستطيع أن تأتي معنا

فأحمر وجهها أكثر وكأنها لم ترد أن يقول أباها أنها تريد أن تاتي معهم ثم أتت مروة وأعطت النظارة إلى أمي وأعادت النظر إلى سارة وابتسمت، حينها أدركت سبب طلب أمي لنظارتها، لقد ،أرادت أن تُقيم سارة، هل تستحق ما فعلته من أجلها ؟، هي جارتنا ولكن بحكم أن أمي لا تخرج من البيت كثيراً فلا تتذكرها بعدما كبرت

– في الحقيقة لا أعرف ماذا أقول أو كيف أشكرك على ما فعلته

ــ لا يا أستاذي أنا لم افعل أي شيء

– كيف لم تفعل، سارة تقول انك ضربتهم وخلصتها من يدهم

ابتسمت واعتدلت في جلستي أكثر وأشرت على جسمي قائلاً:

ــ واضح أنني ضربتهم بالفعل

ضحك الجميع وقالت أمي:

– الله ينتقـم مـن جـاد البلطجـي وعصابتـه ويريحنـا مـن همـه ومنصـور ابنـي فعل مـا يلزم ونـورا الجميلة تسـتحق كل مـا فعله

ــ حسبي الله ونعم الوكيل

قلتهـا بصـوت عـالي لأداري الاسـم الخاطـيء الـذي ذكرتـه أمـي، فقـال أبوهـا:

– حسـبي الله ونعـم الوكيـل في جـاد وكل مـن معـه لا يـترك النـاس في حالهـا أبـداً كأنـه وجِـدَ ليُضايـق النـاس، لابـد أن نأخـذ موقـف حقيقـي ممـا يفعلـه هـو وجماعتـه

أضاف محمد على كلام أبيه

– لـن يتكـرر هـذا الأمـر مـرة أخـرى وليحـدث مـا يحـدث، إنـه يمـس أعراضنـا

– مـا لا يمسـنا يمـس غيرنـا وإذا تركنـاه يمـس غيرنـا فحتـماً سيمسـنا يومـاً مـا، ولأن كلا منـا يفكـر في نفسـه فقـط سـنظل مطيـة البلطجيـة أمثـال جـاد وغـيره، لـو أننـا فقـط نتحـد لمـا اسـتطاع أن ينظـر مجـرد نظـرة لأحدنـا

ــ إن شاء الله سيبعد شره عنا

رفعت سارة رأسها لأول مرة وقالت:

ــ هو يعتقد أنني قد أتزوجه ولكن هذا الشيء مستحيل

ربـما اسـتجمعت كل قواهـا لتقـول ذلـك، كـدت أرد ولكـن أمـي سـبقتني

- لا ..تتزوجيــه ..مــاذا ! ... إن زوجــك جاهــز وليــس بلطجيــاً

كــدت أيضــاً أن أقــول أي شيء يضيــع الحديــث في هــذا الأمـر ولكـن تكفلـت طرقـات بـاب المنـزل بذلـك، كان عمـي وأولاده دخلـوا إلى الغرفـة فأصبحـت مليئـة بالأشـخاص فقـال الأسـتاذ إمـام:

- ســنذهب نحــن يــا منصــور وأنــا آســف جــداً عــلى ماحــدث وأنــا تحــت خدمتــك

- لا عليك أستاذي

وسلم ورحل وخلفه سارة وأتى محمد إلي فسلم وقال:

- إن شاء الله ستقوم بالسلامة

أمسكت بيده وهمست بصوت هاديء:

- أنــا أعلــم أنــك مشــغول في دراســتك ولكنــي أريــدك في طلــب بسـيط

- طبعاً، قل وحسب

- غـداً أريـدك أن تقـف مـع مـروة في الورشـة لتسـلم الأعـمال إلى أصحابهـا، هـي تعـرف كل شيء ولكنهـا في النهايـة بنـت، وأنـا لـن آمـن عليهـا وحدهـا، وأنـت مثـل أخـي

أومأ برأسه وقال:

- لا عليك لا مشكلة سأكون موجوداً معها باذن الله

ورحـل، جلـس عمـي وأولاده وزوجتـه ورحلـوا، وبغـض النظـر عـما إذا جـاء بنيـة الزيـارة أو غيرهـا ولكنـه لم يتحـدث عـن أي شيء آخـر، وجـاء الدكتـور « نـاصر « جارنـا لـيراني وطمـأن أمـي وجـاءت السـيدة « راجيـة « جارتنـا التـي لم يرهـا أحـد تخـرج مـن بيتهـا منـذ وفـاة زوجهـا منـذ أكثـر مـن عـشرون عامـاً، كانـت تحبنـي كثـيراً لأننـي كنـت أتـردد عليهـا أنظـف لهـا البيـت وأجلـس أُحدثهـا عـن أشـياء كثـيرة وهـذا مـا كان أبي يفعلـه مـن قبـلي فلـما سـألت عنـي وعرفـت أني راقـد في البيـت خرجـت مـن بيتهـا متخليـة عـن عزلتهـا الأبديـة مـن أجـلي، عـلى كل حـال، كان هـذا اليـوم هـو مـن أكثـر الأيـام الـذي دخـل فيهـا أنـاس بيتنـا وكلهـم نعرفـه ونتوقـع زيارتهـم إلا واحـداً لم يخطـر ببـالي أن يـأتي ابـداً ...

***

(٤)

فتحت مروة الباب لتجده واقفاً أمامها يسأل عني، شاب في نفس طولي وحجمي أبيض اللون، عمر

- هل هذا بيت منصور ؟!

أومأت مروة برأسها، فطلب منها أن يقابلني، خرجت فاستغربت وجوده ولكني أدخلته الغرفة وأغلقت الباب بصمت، لم أكن أدري ما أتحدث به ولكنه بدأ

- كنت أود أن أشكرك يوم ساعدتني في الامتحان ولكني لم أستطع فعل ذلك آخر يوم في الامتحانات، لأنني لم أستطع اللحاق بك، فسألت على عنوانك وها أنا ذا ،الحمد لله أنت بخير الآن، صحيح ؟!

- بخير من ماذا ؟!

- من الشجار مع ذلك البلطجي

- وكيف عرفت ؟!

- كنت أسأل البقال جاركم عنك وحكى لي ما حدث

- هل أخبرك أنهم أبرحوني ضرباً؟

- لا يهـم، مـا يهـم هـو أننـي أتيـت لأعتـذر لـك عـن تصرفـاتي الخرقـاء تلـك

- ولماذا الآن ؟! أقصد ما الداعي لذلك ؟!

- أحيانـاً يغـير الوقـت منظورنـا للأشـياء، أدركـت الآن وفقـط الآن إنـك كنـت أوفى مـن أصدقائـي الذيـن انتسـبنا لمجموعـة واحـدة، لقـد فعلـت مـا لم يفعلـوه تجاهـي، كان بيـدك أن تتركنـي وترحـل، بـل كان بإمكانـك السـخرية عـلي وقتهـا ولكنـك لم تفعـل

- لا أجـد مـا أقولـه لـك، ولكنـي لم افعـل شـيئاً كبـيراً، لقـد علمـت أنـك طالـب جيـد ولسـت فاشـلاً ولكـن ظروفـك هـي مـا قـد تـضر بـك، بالمناسـبة هـل أهلـك بخـير بعـد الحريـق ؟!

- أهلي ؟! أنا ليس لي أهل

ارتبك قليلاً ارتباك من غفل فتذكر ما سيقول فردد:

- أقصـد أننـي لا أعيش مع أهـلي في بيت واحـد، إن أبي وأمي منفصلـين منـذ زمـن وأنا أحيـا وحيـداً في شـقة مجـاورة للجامعة

- ... أظن أن وراءك قصة كبيرة

- كبـيرة لدرجـة أن حيـاتي ربـما لـن تطـول لأكمـل سردهـا، ولكنـي سأسـعد إن اعتبرتنـي صديـق، أتوافـق ؟!

- تقصد، أتمانع ؟!

- وما الفرق ؟

- الفــرق أن الصداقــة لا تُطلــب أبــداً، إنــما تحــدث بــلا مقدمـات، وبالطبـع لا أمانـع أن نكـون أصدقـاء ولكـن هنـاك ثمــن لــكل شيء

- وما هو الثمن إذاً ؟!

- سـأتحدث معـك بصراحـة، أنـا لسـت منكـم، بمعنـى أنـا لسـت مـن أهـل المدينـة الغربـاء، لـن أسـتطيع مجاراتـك أنـت وأصدقائـك، لـن أتكيـف معكـم

- ومـن قـال أننـي سـوف أطلـب منـك ذلـك، ومـن قـال لــك اصــلاً بأنهــم لازالــوا أصدقائــي، لقــد انقطعــت علاقتــي بهــم تمامــاً .... اســمع ســأخبرك بــشيء عنــي، لقــد فقــدت الحنــان منــذ ســنوات عمــري الأولى، لا أطلــب منــك ذلــك الحنــان ولكــن أطلــب شــعور الجماعــة، بعدمــا انفصــل أبي وأمي عشــت وحيــداً، لم ينتمــي لأي جماعــة تشــعره الانتــماء، حتــى

وعندما كنت بين هؤلاء الشباب لم أشعر أنني أنا، كنت أتبدل أمامهم، أقول تلك الكلمة لترضي هذا، واضحك على هذا ليفرح بي ذاك، وأسخر من الناس حتى يصبح شكلي جيد أمامهم، باختصار لم أكن أنا

- أتفهم ما تقوله وأصدقه، ولعل خيراً حدث أن نتعرف على بعضنا البعض

دقت أمي الباب، وناولتني صفحة أكواب الشاي لأقدمها له فيشكرني ويمسك بها ليضعها على يمينه تمهيداً لكلام ربما كثير سيبدأ بالتحدث فيه بعد قليل، ولكن طرقات باب المنزل القوية شتت تركيزه بعدما فعلت بي نفس الشيء، خرجت من باب الغرفة، لأرى وجه جاد وشخص آخر وراءه يقف أمام الباب الذي فتحته أمي لتوها، كانت أمي لتحسبن عليه وعلى من معه قبل أن أُنحيها لأقف أمامه قائلاً:

- نعم !!

رد بسماجة:

- من كرم الضيافة أن تقول لضيوفك تفضلوا

- ضيافة وضيوف وكرم، معك أنت، ماذا تريد يا جاد ؟!

- أريـد أن أعتـذر لـك عـما فعلنـاه، هـل سـنكمل حديثنـا هكـذا، هيـا أريـد أن أحدثـك في أمـر مهـم

أدخلتـه الغرفـة التـي كنـا وعمـر بهـا، جلـس عـلى نفـس الأريكـة التـي يجلـس عليهـا عمـر ناحيـة اليمـين يفصـل بينهـم كـوب الشـاي بينـما جلـس الكائـن التابـع لجـاد عـلى حافـة الأريكـة بمقـدار عـشر سـنتيمترات تقريبـاً، يظهـر عليـه الخجل أو ربـما البلاهـة بـدأ جـاد يتحـدث:

- لم نكـن نريـد أن نفعـل ذلـك ولكنـك تدخلـت بينـي وبـين «الجماعة»

- ولكنهـا ليسـت ملـك لـك وهـي مازالـت صغـيرة عـلى مثـل هـذا الحديـث، وفي النهايـة مـاذا، تقتـل القتيـل وتسـير في جنازتـه!

بـدا عـلى عمـر أنـه أدرك أن هـذا هـو البلطجـي الـذي نتحـدث عليـه

- لا وأنـا آسـف عـما فعلـت ولكـن إن تدخلـت بينـي وبينهـا مـرة اخـرى فلـن أغفـر لـك إنـك اخـو زوجـة صديقي

- ماذا تقول أي زوجة صديق هذا وأي اخت سيتزوجها

– مـا الـذي حـدث هـل أفرطنـا في الـضرب لهـذا الحـد يـا باشـمهندس، صديقـي هـذا « سـعيد بسـلة « وأختـك مـروة بعدمـا تنتهـي مـن تعليمهـا

فنظـرت إلى مـن يجلـس بجـواره وحقـاً يسـتحق لقـب «بسـلة» ولكـن بغـض النظـر عـن ذلـك مـروة لـن تتـزوج ذلـك البسـلة أبـداً فقـال جـاد:

– حسناً، ما هو ردك؟

مـال عمـر للأمـام ليتخطـى نظـره جـاد ويبـصر ذلك البسـلة سـاخراً قائلاً:

– هذا هو بسلة ؟!

ألتفت إليه جاد قائلاً:

– نعـم هـذا هـو بسـلة، مـن أنـت ؟! مـن بدايـة الجلسـة ولا اطمئـن لك

– القلوب عند بعضها

أشرت لعمـر أن انتظـر لا أريـد إقحامـك في مشـاكلي أنـا، ولكـن مـن نظرتـه إلى جـاد، شـعرت أنـه يسـتمتع بذلـك ويريـد اسـتعادة لياقتـه مـرة أخـرى

بالطبع أنا لن أُزوج أختي لهذا البسلة ولكن لابد لأمثالنا من إفتعال المشاكل، أردت أن أضع علامة على جاد هذا ومن معه حتى يكسر الصنم، أردت أن أكون أنا أول ضربة فأس تسقط على رأس ذلك الصنم وهو الخوف، وقفت عند باب الغرفة وفتحته لأرى مروة تقف بالقرب منا تسترق السمع لما نقول، وعلى وجهها علامات يحسبها العالم بها أنها علامات الادراك الكامل لكل ما يحدث، سألتها وهي في مكانها رافعاً صوتي:

- أتوافقي على الجواز من ......

لم تنتظر بقية السؤال وقالت لا بالطبع، فألتفت ليهم محركاً يدي لمروة أن ترفع صوتها أكثر، ففعلت فتبددت بسمة بسلة البلهاء وكأنه تفاجأ، فقلت:

- مثلما سمعت، الرد هو لا

فقام جاد غاضباً وقال:

- لا لن ترفض ولن تستطيع أن ترفض، لا أحد يستطيع أن يقول لا لجاد أو لمن معه

قام وعمر وأمسك بيد جاد ورفع صوته قائلاً:

- مثلما سمعت منها، خفف وطئ شرك فأنت لا تعلم من نحن

- وماذا تتدخل أنت، ثم حتى وإن كنت رئيس الجمهورية لا يهمني، أنا جاد، ويبدو إنك لا تعلم من هو جاد حتى الآن

كان عمر يتأهب للرد ولكني رفعت صوتي قائلاً:

- عمر !! لا فائدة من الحديث معه هو لن يفهم هذه اللغة، هو يفهم لغة أخرى، دعنا نجربها معه

وأمسكت بدورق زجاجي وضعته أمي على الكومود لأشرب منه ،وقبل أن يتحدث جاد .... سكب عمر كوب الشاي على وجهه وتبعته بثانية واحدة التصاق الدورق برأسه فتهشم واختلط ماءه بدم جاد، ولولا أن الموقف جاد لكنت ضحكت لما وجدت بسلة مصدوم مما حدث ولا يدري ماذا يفعل، كان بالفعل أبله

وبدأنا في دفعهما لخارج المنزل وفي الحقيقة لو كان جاد بكل قوته لما قدرت عليه ولكن كان مشغول بدماؤه السائلة على وجهه، وجلده الذي ربما احترق من كوب الشاي التي فرت من مصيرها في معدة عمر لتتغلغل في مسام جاد، أما بالنسبة لشخص يحمل اسم بسلة فبالطبع لن يقاوم

خرجا من المنزل وخرجت أنا وعمر وراءهم ولحقت مروة وأمي بنا إلى الشارع فاخذ يسبني ويسب أجدادي، وما هي إلا ثوانٍ ليحدث أغرب شيء يخطر في بالي وهو حدوث ثورة بين الناس، فأهل الحارة كأنهم كانوا يحلمون بجسد يسيل دماؤه ليفرغوا كل الطاقة المكبوتة فيهم في ضربه، فتجمع العشرات منهم رجال ونساء وأطفال وحتى حيوانات وانهالوا بالضرب علة جاد وبسلة ركلاً وسحلاً وتمزيقاً، وازدادوا في قوة الضرب بعدما ضموا بقية المجموعة لجاد والبسلة بجواره، حتى صار جسدهم أحمر اللون، هذا هو جاد مع مجموعته التي كان يخاف الجميع منهم منذ عدة ساعات، وهؤلاء هم أهل حارتنا « العامة « الذين عندما بادر أحدهم وكسر الصنم حملوا هم فئوسهم وأكملوا عمل رفيقهم الأول، العامة ليسوا جبناء إنهم فقط ينتظرون من يبادر

تبادلت وعمر نظرات تفاهم على نحو غريب وإن صرنا بهذا الاتفاق في لحظات لذلك أدعي بأن نقول أننا سنصبح أصدقاء، وبعدما فر جاد بأعجوبة من بين أيادى الناس وتفرق الناس، دخلنا بيتنا وأنا على يقين أن جاد لن ينسَ هذا الموقف الذي وضعته فيه للأبد وإن لم ينتقم مني وهذا ما لا يقلقني سينتقم من أهلي وهذا ما يقلقني،

ففـي الوقـت الـذي صنعـت فيـه صديقـاً جديـداً أُرحـب بـه في حيـاتي، تبعـه بلحظـات صنـع عـدو قـوي لي ولأسرتي وذلـك بيـدي أنـا

***

الساعة ١٠:٣٠ ص

شربنـا قهوتنـا، ولازالـت عـلى وجهـي آثـار الضحـك الشـديد بعدمـا حكـي مـا حـدث للبلطجـي في حارتـه قلـت:

- العامة دائماً يفعلون ذلك، يتنظروا وينتظروا

- ولكنهم يفعلوا الكثير بعد هذا الانتظار

- ولكـن ومـع احترامـي لـك وللقصـة، أنـا لا أرى أن مثـل جـاد مقارنـة بـك الآن يمثـل أي تحـدي، يمكننـي الآن أن أتوقـع مـاذا سيحدث، سـيريد جـاد أن ينتقـم منـك عـن طريـق أختـك وسـوف تـرد لـه هـذا الانتقـام وسـيزج بـه في السـجن وتنتهـي الحكايـة

انفجر في الضحك وقال مقهقهاً:

- ليتها هكذا .. ليتها هكذا ولا يحدث كل هذا التعب، يا صديقي إن ما وصلت له الآن ليس سهلاً، إن كنت تعتقد أنني وصلت لما أنا فيه بهذه البساطة فأنت مخطيء كل الخطأ، لقد كنت أتعب كل يوم حتى أصل هدفي، سهر وصبر وظلم تعرضت له، كل شيء من الممكن أن يحدث قد حدث

- أعلم أن النجاح ليس سهلاً

- وأعلم أيضاً أن صعوبته تكمن في ثمنه والمفاجآت التي سوف تواجهها في طريق سعيك، في دقيقة تخيلت أنت القصة كيف تسير ولكن دعني أقول لك أن القدر أغرب بكثير من أن تتخيله، سترى ذلك بنفسك

- حسناً ،اعذرني، أنا فقط أريد أن أصل إلى ذروة القصة لأرضي فضولي

- أحياناً يجب عليك أن تبقى مع التفاصيل بعض الوقت لإنها هي ما تصنع القصة وأي قصة، التفاصيل يا صديقي

صمتنا برهة ثم قلت:

- بالمناسبة، أنا أحب هؤلاء الأصدقاء الذين ينشأ بينهم تفاهم غير مشروط أو غير مكتسب، على هكذا جُبلوا، ما رأيك أنت ؟!

- بيني وبين عمر تقصد، صحيح، كان الأمر كله جيد بداية من وجوده في حياتي إلى خروجه منها

- خروجه منها !!، ماذا تقصد ؟!

- ذلك هو القدر، دائماً يغير قواعد اللعبة، دائماً يخالف المتوقع

***

(٥)

استعدت نشاطي وعدت إلى الجامعة بعد فترة غياب أثبتت فيها أختي مروة أنها بمئة رجل فأستطاعت فعل الكثير في الورشة هذه الأيام، كانت على حق عندما قالت لي ذلك، فقد قامت بتسليم الأثاث لأصحابه وتعاقدت على أثاث جديد، بالطبع كان ذلك مع مساعدة من محمد وبتوجيهات مني ولكنها تصرفت بحكمة أيضاً، ووقفت مع محمد وهو ينهي بعض الأشياء البسيطة، عندما دخلت عليه وجدته غارقاً في عرقه منهمكاً في قطع قطعة خشب بمنشار يدوي، ومروة تقف عند الباب، سلمت وأرحته من عناءه بأن أخبرته الطريقة السهلة لفعل ذلك، وبعدما نجح في قطعها قلت لمروة بعدما وقفت بجواري:

ــ ما رأيك في أن نوظف محمد في الورشة؟

- سيحتاج تدريب كبير

ضحكنا وشكرته وهكذا عادت الأمور إلى بعض طبيعتها

مرت الأيام سريعاً فلا يوجد شيء يذكر سوى بعض الصداقات الجديدة وإعجابات الدكاترة بي - بدون غرور - كنت متفوقاً جداً في الدراسة وكنت أُناقش الدكاترة الكبار في بعض الأمور ولكن لا أحد منهم سيفيدني في مجال بحثي، وبفضل الله بعد حوالي ٧٨٩٣٦٧٩ امتحان مر عام الإعدادي من كلية الهندسة على خير، مر العام بحلوه ومره، وإن كنت أشك كثيراً في كلمة حلوة تلك ولكن على أي حال مضى و في النهاية تخصصت في الكهرباء والحمد لله

وفي أول يوم في العام الثاني دخلت مكان المحاضرات الذي كان شبه فارغاً ولم يكن به نفس العدد الذي كان في العام السابق، انتظرنا الدكتور الأول الذي تأخر كثيراً، وهممنا بالخروج من المدرج لولا أن دخل ذلك الرجل العجوز، وكأنه كان ينتظر إلى أن يمتلك أحدنا الشجاعة للانصراف فيدخل

المهـم ؛ كان في يومـي ثـلاث محـاضرات في أول يـوم مـرت الأولى والثانيـة وجـاءت المهمـة والتـي هـي الثالثـة وكان اسـم الدكتـور هـو د.رشـاد زيـادة الـذي يعطـي جـرس موسـيقى عندمـا قرأتـه للمـرة الأولى حتـى قـال أحدهـم ضاحـكاً:

- سيكون أخو الاديبة مي زيادة

فضحكنـا ومررتهـا ولم أُعقـب بـأن مـي زيـادة ليـس اسـمها الحقيقـي ؛ المهـم، دخـل علينـا وكأنـه شـاب في العشرينيـات رغـم بيـاض شـعره الواضـح، مرتديـاً بدلـة وبنطـال كحليتـان وكرافتـة سـوداء تـبرز في الخلفيـة البيضـاء لقميصـه

وفي الحقيقـة لم أتصـوره بهـذا الشـكل لقـد تصورتـه شـأنه شـأن دكاتـرة وعلـماء الكهربـاء يكـون شـعرهم مكهربـاً ويبـدو عليهـم البلاهـة

دخـل فأرتـدى الميكروفـون عـلى رأسـه وألقـى تحيـة الإسـلام، وبعـد السـلام عـرف بنفسـه وقـال في ثقـة:

- أولاً أود أن أحكـي حكايـة صغـيرة، عندمـا كنـت طالبـاً مثلكـم اعترضـت فحرمـت مـن حقـي في التعيـين في الجامعـة ذلـك الوقـت، ،نعـم الله عـلي بـأن سـافرت لأعمـل مسـاعد دكتـور في جامعـة أوروبيـة، وعندمـا عـدت كانـت الجامعـة أنظـف مـن قبـل فتعينـت بهـا وسـاقني القـدر لأدرس لكـم

اليوم، وما أريده من هذه الحكاية القصيرة هي أن أقول لكم اعترضوا، هذا حقكم، أنا أعطيكم الحق من اليوم وإلى الأبد لتعترضوا، الاعتراض الحق هو سمة من سمات الحضارة ،،والنقد البنّاء هو سمة من سمات الأخوة في الله، كونوا أنتم ولا تدعوا أحداً يجور عليكم سواء هنا أو خارج هنا، أحبائكم قبل الغرباء عنكم، وأيضاً أريد القول أن من هنا ومن هذه اللحظة عليكم اختيار طريقكم بنفسكم، وأقولها من واقع خبرتي ،لي أصدقائي كنا في كلية الهندسة سوياً، وتخرجنا وعملوا هم في مجالات أخرى غير التي تخصصوا بها وذلك بإرادتهم، وذلك لأنهم وحسب ما قالوا قد دخلوا هذه الكلية تحقيقاً لرغبة أبيهم أو أمهم، ولا أقول أنكم هنا بغير إرادتكم ولكن أقصد أن لا تجري وراء حلم شخص آخر ،،فعمرك جعله الله مطابقاً للمدة الزمنية المتاحة لتحقيق هدفك في الأرض، فتحقيقك لأحلام غيرك يأخذ من وقت تحقيق أحلامك أنت

ابتسم الطلاب على هذه الخطبة الغير متوقعة، نزل من على المنصة العالية بعض الشيء واقترب من المكان الذي كنت أجلس فيه وهنا .. تحولت ابتسامتي إلى علامة بلهاء عندما تحققت من وجهه، إنه هو، صاحب السيارة المصغرة الذي صدمني في أول أيام الجامعة منذ عام تقريباً،

أخفضت رأسي حتى لا يراني فأكمل حديثه وهو يتحرك صاعداً على سلالم المدرج ويلتفت برأسه يميناً وشمالاً، إلى أن أتى بجواري تماماً وقال:

- كونوا أنتم

وهنا فجأة دون سابق إنذار وضع يده على كتفي بقوة كبيرة وهو يقول:

- في حدود الأدب

فزعت من الموقف فما كان لي إلا أن أقول:

- أقسم بالله العظيم لم أكن أقصد أنك الأغبي، لقد سرحت قليلاً ولم أكن أدرك أنني أمر أمام سيارتك

ضيق عينيه بنظرة كأنها تقول ها انت ذا قد جئت ملعبي فلن تخرج منه حياً، ولكنه لم يفعل شيء سوى أن همس في أذني :

تعال إلى مكتبي بعد إنتهاء المحاضرة، وسار للأمام ورفع صوته ليقول:

- دعونا نعود إلى كليتنا وإلى تعليمنا، بعد شهر من الآن لديكم امتحان، وحتى تعرفوا ما أقصد بامتحان اسألوا من سبقوكم عن امتحاناتي، امتحاناتي تكون شفوية،

سـيقف كل طالـب منكـم مـكاني هنـا وسـيجاوب عـلى سـؤال أطرحــه عليــه أمــام كل أصدقائــه، وعــلى حســب إجابتــه سـيجتاز الامتحـان بالدرجـة التـي احـدده لـه، سـنشرح الآن الفصـل الأول مـن ...

أدخلتــه وضــع الصامــت، فلــم أركــز في كلمــة قيلــت في محاضرتــه منــذ تذكــرني، وكنــت انتظــر إنتهائهــا لأذهــب إليــه وأرى مــاذا سـيفعل بي هــذا الرجـل الغريـب، ورغـم إنـه لم يـشرح سـوى ربـع سـاعة فقـط، إلا أنـه أقنعنـا بانتهـاء المحـاضرة، ذهبـت إليـه في مكتبـه، وطرقـت البـاب ليخـرج صوتــه أن تفضــل، فتحــت البــاب ودخلــت:

- السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

- وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته، كيف حالك؟

تلفــت حــولي لأرى إن كان يكلمنــي أنــا أم شــخصاً آخــر فهــذه المقابلــة مــن المفــترض ألا تكــون لي

- أنا .. الحمد لله

- اجلس يا فتى ولا تخاف

جلســت وبقيــت عينــي عليــه وهــو يضــع أوراقــه جانبــاً ويقــول:

- لم أجلبـك إلى هنـا حتـى أهينـك أو أضربـك، أنـا فقـط أردت تحيتـك عـلى جرأتـك يومهـا، فبالرغـم مـن أن هـذا الموقـف مـر عليـه أكثـر مـن عـام إلا أننـي حفظتـه لجرأتـك التي أثـارت اهتمامـي حقيقـة، ولكـن انظـر إلى صغـر الدنيـا فهـا نحـن نتقابـل اليـوم وأنـت طالـب عنـدي سـأرى وجهـك كل يـوم، مـا اسـمك ومـن أيـن أنـت ؟!

- اسـمي منصـور، منصـور الشرقـاوي مـن بلـدة في محافظـة الشرقيـة تسـمى مشـتول السـوق

- شرقـاوي، مـن محافظـة الشرقيـة، حسـناً، حتـى لا تضيـع وقتـي سـنتقابل كثـيراً وسـأرى إن كنـت لبقـاً في الدراسـة كـما أنـت لبـق في الـرد عـلى النـاس وأيضـاً .... وأيضـاً ....

وهنـا نهـض والكلـمات تتعثـر لتخـرج مـن فـاه وفجأة سـقط سـقطة قويـة شـنجت جسـدي بالكامـل، هـل مـات ؟! مـا هـذا النحـس!! وثبـت سريعـاً نحوه وأمسـكت بيـده وبحمـد الله كان لا يـزال يتنفـس وينبـض قلبـه وخـرج مـن فمـه كلامـاً برائحـة المـوت ممزوجـاً فقـال:

- الحقنة ... الحقنة في ... الدرج

تركـت رأسـه فاصطـدم بـالأرض بالقـوة، ووالله لـو كنـت في موقـف يسـمح بالسـخرية لقلـت إنـه إن لم يمـت بمرضـه

الـذي هـو فيـه فسـيموت مـن اصطـدام رأسـه بـالأرض في هـذه اللحظـة ،، فتحـت الـدرج سريعـاً لأجـد الحقنـة، وبالطبـع سـتكون هـذه أول مـرة أُعطـي حقنـة لأحـد في حيـاتي، المهـم عبـأت السرنجـة وغرسـتها في يـد الدكتـور، وانتظـرت لحظـات حسـبتها دقائـق مـاذا سـيحدث فلـم يحـدث شيء، ففكـرت بـأن الوقـت حـان لأنـادي عـلى أي بـشري مـن الخـارج لـيرى مـاذا نفعـل، وبنفـس الغبـاء تركـت رأسـه تصطـدم بـالأرض مـن جديـد، غبـي !!

فتحـت البـاب لأجـد العامـل يقـف عـلى بـاب المكتـب فشـددته مـن ياقـة قميصـه فوقعـت كـوب الشـاي منـه ولـولا جديـة الموقـف لقتلـت نفسي مـن الضحـك عـلى هـذا العامـل الـذي كان يـشرب كـوب الشـاي في أمـان تـام وفجـأة ودون سـابق إنـذار سـحبه أحـد المعاتيـه لداخـل الغرفـة، وبجانـب كوميديـا الموقـف كان هنـاك شـخصاً يمـوت بالداخـل

جلسـت أنـا والعامـل بجـوار الدكتـور فأخـذ يتفحـص نبضـه وأنـا أنظـر لـه باسـتغراب

- هل أجلب لك السماعة يا دكتور ؟!

فنظـر لي باسـتحقار ووضـع يـده عـلى فمـه أن اصمـت أيهـا الجاهـل مـا أدراك أنـت بـما أفعلـه أنـا؟

وبعد لحظات أشار إلي أن نحمله فحملناه ووضعناه على الاريكة، وبدون مبالغة تركني العامل وخرج دون أن يفتح فمه بربع كلمة، مشيت وراءه لأسأله ما الذي يحدث، فدخلت فتاة شابة محجبة هي نفس البنت التي كانت بجواره في السيارة حينها إذاً هي ابنته، ويتبعها العامل عائداً وهو يقول لها:

- جاءته الغيبوبة، وأعطاه الجرعة

وأشار إلي في آخر جملة وتركنا وسار في طريقه

تحركت الفتاة نحو أبيها وظلت بجواره بعض لحظات ثم استدارت لي وقالت:

- شكراً أنك أعطيته جرعة الانسولين الخاصة به في وقتها، هل أنت في كلية الطب ؟

- لا أنا في كلية الهندسة

- وكيف أعطيته الحقنة؟

- كنت أجرب !

- نعم ؟!

- لا أعرف فهذه أول مرة في حياتي أعطي فيها حقنة لكائن حي، هل أعطيتها إياه بطريقة صحيحة ؟!

- نعـم، وهـذا مـا جعلنـي اسـألك إن كنـت تـدرس الطـب لتحقنـه بهـذه الدقـة

- حظ !

- ماذا تقصد ؟!

- أقصـد حـظ أبيكـى،، مـن جهـة ،وحظـي لألتقـي بـكِ مـن جهـة أخـرى

- هل تقابلنا من قبل ؟!

- نعـم أنـا الشـاب الـذي اصطدمـت بـه سـيارة أبيكـي أول يـوم في الدراسـة منـذ عـام تقريبـاً

- نعـم نعـم تذكرتـك، مـا هـذه الدنيـا الصغـيرة، هـا أنـت اليـوم تنقـذه، غريبـة صحيـح

- ربما، استأذنك الآن وسأعود لأسأل عليه مرة أخرى

- حسناً، بالمناسبة ،أنا اسمي رانيا ما اسمك ؟!

- أنا ... منصور

- تشرفت بك

- فرصة سعيدة

خرجت من المكتب مسرعاً فصدمت العامل فأسقط كوب الشاي الثانية فكسرت فركضت غير مبال بسبابه إلى باب الجامعة ركضاً هستيرياً، ربما حتي أؤمن نفسي إذا ما مات هذا الرجل أكون في أبعد نقطة عنه ،ولكن الجيد في كل ما حدث أني تعرفت على هذه الفتاة، رانيا بالتأكيد لن أنسَ اسمك لأنني لم أنسَ وجهك من قبل، منذ عام تحديداً

وبعد أسبوع تقريباً دخل علينا الدكتور رشاد بصحة جيدة، حتى أن الناظر في أمره لا يشعر به مرض ولو مجرد نزلة برد خفيفة، يتحرك بنشاط عالي هنا وهناك، مرت الأيام دون أن يتحدث معي أو أقابل ابنته مرة أخرى، كنت غافلاً عن أمر في غاية الأهمية وهو امتحانه الشفوي نهاية هذا الأسبوع، تذكرت وحسب عندما تم تقسيمنا أبجدياً على أيام الأسبوع وكان حظي أنى كنت آخر طالب علي الاطلاق، كان يجلس بجوار الطلاب يطرح السؤال وينتظر، بينما يقف الطالب على المنصة يجيب على سؤاله في شكل شرح مفصل، أخذت أذاكر أسئلته فوجدتها متشابهة، قرابة العشرين سؤالاً يتكررون بعشوائية، فكنت اطمئن إلى أنني سوف اجتاز هذا الاختبار بسهولة، إلى أن أتى يوم امتحاني ..

***

(٦)

تدخـل مـروة الغرفـة ممسـكة بكتابهـا، تجلـس عـلى سريـري تحدثنــي:

- أخـي لقـد مللت المذاكـرة، أريدك أن تحكـي لي قصة عن أبي

ألتفت إليها من على مكتبي وقلت:

- لــدي امتحــان باكــر يــا حبيبتــي، هــل يمكــن أن نؤجــل ذلــك

وافقــت في خضــوع، ولكنــي عندمــا ألتفــت عائــداً إلى مــا أذاكــره اكتشــفت أن لــدي صفحــة وحيــدة باقيــة، فأخبرتهــا أنهــا محظوظــة لذلــك، فتهلــل وجههــا فرحــاً، قمــت متجهــاً إلى السريــر، وارتميــت عليــه بعدمــا أمســكت بكتابهــا بالمقلــوب، غــير مبــالي لمــا فيــه ســألتها مــاذا تعلمــت اليــوم ؟!

- كنا ندرس الأرض وطبقاتها، تعلمت أن هناك صفائح اسمها الصفائح التكتونية، تكون عميقة جداً جداً وعندما تصطدم هذه الصفائح معاً في أعماق الأرض ينتج عن ذلك الاصطدام طاقة مهولة ولكن حتى تصل هذه الطاقة إلى سطح الأرض حيث نحن تكون قد تم فقد جزء كبير جداً منها لتصبح مجرد إهتزازة ضعيفة يقيسها العلماء بمقياس ريختر للزلازل

- كل هذا تعلمتيه ؟!

- لا هناك الكثير مما تعلمته اليوم أيضاً مثل ...

أوقفتها قائلاً:

- مهلاً مهلاً،، هل ستأخذي كل وقتي في شرح ما تعلمتيه، ألا تريديني أن أحكي لك قصة عن أبي في هذا الوقت؟

- نعم بالطبع أريد، هيا أرجوك

كنت أتسائل عن ذلك الشخص الذي يملك من القصص الكثير والكثير، كيف يختار قصة من وسط هؤلاء يحكيها هذه المرة ولكني وجدت أن الأمر يتخطى الشخص ليصل للقصة، إن القصة لتفرض نفسها فرضاً على الموقف لتستحوذ على تفكير راويها

- كان الجو حاراً في هذا اليوم أتذكر كم كان عمري وقت قال لي أبي استعيذ بالله من هذا الحر وحر جهنم الذي يفوقه بما لا نقوى عليه، أنتِ تعلمين أن أبي يعشق عمله وأصر على أن يعمل في هذا اليوم على عكس بقية الناس، نزلت معه كي أساعده وأتعلم منه، بدأ في عمله، يتفنن في الرسم وينجز في القطع وينبهر بالنتيجة، بعدما خارت قوتي أويت إلى ركن الورشة أرمقه بعين الاعجاب، يمسك المنشار ببراعة ليس لها مثيل، يتعامل بشدة علي قطعة الخشب إلى أن جاءت لحظة ضعفت هذه الشدة، بدأ يغمض عينيه علامة الارهاق، تتحرك يده ببطء، أشاهده بصمت منتظر تفسير لما يحدث، كنت مجرد طفل ساذج ينتظر من الناس تفسير ما يحدث له ،،ينتظر من الناس إخباره أنه وقع في الوحل حتى يبدأ في تنظيف ملابسه، لم أكُف عن صمتي إلا وقد كان جسد أبي أنهى مقاومته وسقط على الارض، في تلك اللحظة تخليت عن سذاجتي وركضت نحوه أناديه، أطلب منه البقاء معي فلم أتعلم الحياة بعد، لم أكف عن النداء إلا عندما فتح عينيه على بعد عدة أيام في المستشفى التي أخبرنا فيها الطبيب أن أبيكم مريض قلب، كنت أعتقد أن القلب من المسميات البسيطة التي يطرحها الناس مثل الحب الحنان والدفء والطمأنينة ومثل هذه الأشياء، وأن المرض بها سوف تعوضه العلاقات

الأسريـة والحـب والحنـان، ولكـن سـذاجتي كانـت لاتـزال عالقـة بأطـراف عقـلي، ربـما عـادت الأمـور إلى مـا كانـت عليـه، غـير الأدويـة التـي يتناولهـا أبي كل يـوم وليلـة، غـير الشـدة والبراعـة التـي أعتدهمـا عليـه، ولكنـه بقـى كـما هـو .. سـند، صـار يجلـس معـي كثـيراً يحدثنـي بأمـور ربـما كنـت أعتقـد أنهـا أمـور كبـار، كان يـدرك شـيئاً مـا سـيحدث، ولكنـه يعتقـد أن أحـداً لا يعلـم، فبينـما هـو يفكـر في نقـل تفكـيره إلي، كنـت أنـا افكـر في أنـه بـات قريـب الرحيـل، أقـرب مـن أي وقـت مـضى

عـدت مـن ذلـك المـاضي السـحيق إلى هـذا الحـاضر الأليـم، أتذكـر أن لـدي امتحـان مهـم غـداً، لـذا أخـبرت مـروة بـأن كفـى حتـى هـذه اللحظـة فلنكمـل القصـة فيـما بعـد، وافقـت وخرجـت فذهبـت أنـا في النـوم أحلـم بغـدٍ الـذي يحمـل لي فرصـة كبـيرة أكـبر منـي بكثـير

***

صعـدت إلى المنصـة وجلـس هـو مجلـس الطالـب، شـعور جيـد يماثـل أن يمسـك السـجين السـوط للسـجّان لأول مـرة، وقفـت بثقـة أمـام الجميـع بينـما مـن داخـلي أردد

– متى ينتهي كل هذا ؟!

ألقى سؤاله علي فقال:

ـ ماذا لو انتهت كل مصادر الطاقة الغير متجددة ؟!

تسـمرت مـكاني للحظـات، هـذا السـؤال لم يطرحـه عـلي أحـد مـن قبـل، بـل أن مناهجنـا في العـام الحـالي لا تتحـدث أن مصـادر الطاقـة بشـكل عـام، إن الجـواب عـلى هـذا السـؤال يتطلـب موضـوع تعبـير، فكـرت لثـوانٍ أن أنـزل فأهشـم رأسـه ويحتفـل الطـلاب بي، ولكـن آثـرت السـلامة وأخـذت نفـس عميـق وقلـت لنفـسي بصـوت منخفـض:

– ستون ثانية وحسب، فقط ستون ثانية من الشجاعة

ألتفت بعدما بدأت بترتيب الأفكار داخل رأسي وقلت:

– إختيار

ثـم صمـت قليـلاً لأجعـل الجميـع ينتبـه بمـن فيهـم الدكتـور الـذي لم يكـن ينظـر لـشيء إلا الأوراق في يـده بعدمـا طـرح سـؤاله، فرفـع رأسـه لمـا اسـتبطأ الحديـث فأكملـت:

– عندمـا سـألني الدكتـور هـذا السـؤال فهـو قـد أختـار بـين سـؤال وآخـر، وكذلـك عندمـا تفنـى مصـادر الطاقـة الغـير متجـددة فـإن البشريـة وقتهـا تختـار بـين عودتهـا إلى العصـور الحجريـة أو اعتمادهـا عـلى مصـدر طاقـة جديـد

وبينما استجمع شتات عقلي نظرت له فإذا بابتسامة هادئة مرسومة على وجهه، فتحركت من مكاني الثابت بعدما أرشدني عقلي إلى شغفي فقلت:

- عندما تحدث أحداً ما قبل قرون طويلة عن اختراع المصباح قالوا إنه لمجنون، ولكن اليوم لا يخلو بيت منه، وعندما نتحدث الآن عن مصدر كهرباء مستمر لا ينقطع إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، فربما يسخر منا البعض، إنها الشمس، الخلايا الشمسية اختراع موجود ولكنه يضيع نسبة كبيرة من طاقة الشمس، ولكن الحل ليس كميائياً فالعناصر المستخدمة لا يمكن إستبدالها لذا فالحل فيزيائياً وهو طرق وضع الخلايا وإعدادها والنواقل، يمكننا بعد تعديلات فيزيائية للخلية التقليدية رفع كفائتها لثلاثة أضعاف ما كانت عليه، وفي نفس المجال يمكننا استعمال نفس الفكرة في تخزين الكهرباء، بطارية ذات قلب سداسي الشكل يؤهلها لتحتفظ بسعة أكبر ضعفي قدرة البطاريات الحالية و...

أوقفني بصوت عالي وقال:

- هل جربت ما تقول؟

- كل هذا علي الورق، تطبيقه يتطلب الكثير من البحث والمال أيضاً

قام بطريقة غريبة وصعد إلى المنصة وقال:

- المحاضرة انتهت اليوم، ونتيجة الامتحان في الأسبوع المقبل

وبعدها ربت على كتفي قال تعال معي إلى المكتب

مشيت وراءه إلى أن وصلنا للمكتب فجلس أمام مكتبه وقال:

- ارسم لي الشكل الذي تراه أفضل

وضع الورقة والقلم أمامي فبدأت ارسم الشكل الهندسي السداسي وبدأت أوضح له الانعكاسات الحادثة بين الرؤوس الستة وغيرها مما يؤدي إلى تعظيم الطاقة وتسخين أكبر عدد ممكن من الخلايا، وهو صامت لم يحرك شيئاً سوى حاجبه استغراباً لما أقول، وبعدما انتهيت نطق أخيراً

- جيد، إذا أردت مشورة في هذا الأمر فلا تتردد في طلبها، وأنصحك بدخول المكتبة، أعتقد أن فيها الكثير من الكتب التي قد تساعدك ،تفضل

- حسناً

وخرجــت دون كلمــة إضافيــة، فلقــد هربــت الكلــمات منــي، وفي الأسـبوع التـالي أخبرنـا الدرجـات بالترتيـب، وكـما كنـت الأخـير في الامتحانـات كذلـك كنـت الأخـير في إعـلان الدرجـة، وبعدمـا قـال جميـع الدرجـات التـي أغلبهـا يتجـاوز نصـف المجمـوع بدرجـات قليلـة، قـال أخـيراً درجتـي التـي كانـت نهائيـة، كانـت صدمـة بالطبـع، نظـر إلى الطـلاب عـلى أننـي بطـلاً فاتحـاً حققـت مـا عجـز عـن فعلـه الكثيريـن

مـر العديـد مـن المواقـف التـي تحدثنـا فيهـا، أسـأله فيجيـب ويسـألني فأجيـب، أصبـح يعـرف عني الكثـير، حيـاتي وأسرتي، يعـذرني بسـبب عمـلي، فيـزداد حبـي لـه، مـع مـرور السـنوات في الجامعــة أدركــت معنــى الأب، والأسرة التــي يوجــد بهــا أ، مـدرك لوجـوده، علمـت أن زوجتـه متوفيـة منـذ عـشر سـنوات وأن أسرتـه هـي ابنتـه رانيـا وابـن في الثالثـة عـشر مـن عمـره، جلســت أكثــر مــع رانيــا بحضــوره، عرفــت طريقــة تفكيرهــا وعرفـت هـي أيضـاً، ذات مـرة كانـت تُحـدث أبيهـا في حضوري في مكتبــه في الجامعــة عــن المسـتقبل والأحــلام والطموحــات، فـشردت بذهنـي لحديثهـا طريقتهـا ،حركـة يديهـا، هـل يمكـن أن يُعجـب المـرء بأحـد لهـذه الدرجـة ؟ هـل هـذا الاعجـاب صـادق أم إنـه خـرج لمجـرد وجودهـا وحسـب؟، هـل ...

- هل نام ؟!

استيقظت من ثباتي على يدها تتحرك أمامي كأنني مغشي عليه

ــ لا، فقط سرحت قليلاً

***

الساعة ١٢:٠٠ م

صدح آذان الظهر من مكان قريب، صوت المؤذن عذب نقي

– إن صوت المؤذن جميل وقريب، هل يوجد مسجد قريب؟

– إنه مسجد الشركة، في الطابق الأول، ألم تراه ؟! إن بابه بجوار المصعد

تذكرت الباب المزخرف بجوار المصعد ولكنني لم أفكر في أن يكون باباً لمسجد خاصة وأن الديكور الداخلي للشركة يأخذ بشكل عام الطراز الإسلامي

– هيا نصلي أولاً

خرج من المكتب وأنا وراءه، وقفت لثوانٍ قبل أن أمد قدمي اليسرى خارجه، وذكرت نفسي بقولي قبل أن أدخل له، سأدخل شخصاً وأخرج شخصاً آخر، ألتفت لي بعدما كان قطع مسافة من المكتب ونظر نظرة استفسار

عـن سـبب تأخـري فلـم أجـد سـبباً إلا أن اشرت بيـدي عـلى المكتـوب عـلى بابـه وقلـت:

- هـذه الجملـة « لا تقبـل بأقل مما تسـتحق « ماذا تعنـي بها ؟!

عاد عدة خطوات وتقدمت أنا له بدوري فقال:

- أعنـي منهـا أن أقـول لنفـسي في كل مـرة أراهـا، لا تـرضَ بـما تـراه قليـل وأنـت تسـتحق الكثـير، أقبـل فقـط بالتعليـم الـذي تـراه صحيحـاً، أقبـل فقـط بالوظيفـة التـي تراهـا تزيـدك علـماً لا تسـتنفذ طاقتـك، أقبـل فقـط بالزوجـة الصالحـة التـي ترضاهـا لأبنائـك قبـل أن ترضاهـا لنفسـك، أقبـل فقـط بالقـرارات التـي تقدمـك للأمـام، فقـط أقبـل بـما تسـتحق ومـا تـراه قيمـة مجهـودك، هيـا بنـا .

سرت وراءه أفكـر فيـما قالـه، هـل قبلـت يومـاً بأقـل ممـا اسـتحق ؟ هـل رضيـت بنتيجـة أقـل ممـا أردت ؟ ربـما كثـيراً، ولكـن بعـد اليـوم لا، أظـن أنـه حـان الوقـت لنقـول لا لـكل النتائـج القليلـة التـي لا ترضينـا ولا تشـبع جوعنـا للنجـاح

توضأنـا وصلينـا الظهـر في جماعـة مـع موظفـي الشركـة، بعـد الصـلاة تأملـت في المسـجد، الزخرفـة عـلى سـقفه جميلـة جـداً ومسـاحته كبـيرة وإن لم يخونـنِ ظنـي أعتقـد أن الطابـق الأرضي كلـه هـو المسـجد، صلينـا السُـنة وأسـندت ظهـري

للحائط بجوار منصور، وبعدما فرغ المسجد تقريباً سألته عن مساحة المسجد التي أراها كبيرة فقال:

- نعم إنه يأخذ تقريباً نسبة تسعون بالمئة من الطابق الأرضي، عندما نقلنا مقر الشركة إلى هنا، نويت وعقدت العزم على أن يكون أكبر شيء فيها هو المسجد، ما رأيك أن نكمل حديثنا هنا بدلاً من أن نصعد ؟!

- لا مشكلة لقد أحضرت المسجل معي

- حقيبتك تركتها في المكتب فوق، صحيح ؟!

- نعم

ابتسم قائلاً:

- آمل ألا يسرقها أحد

ضحكت وأخبرته:

- لا لن يسرقها أحد أؤكد لك ذلك، أغلى ما فيها أجندة خاصة وكتاب ولا شيء آخر ... سأشغل المسجل الآن

- حسناً، أين توقفنا ؟!

***

(٧)

- نحـن لم ننسَ مـا فعلتـه الجماعـة الإسـلامية قبـل عامـين أمـام معبـد حتشبسـوت ولا ننسـى محاولـة اغتيـال الرئيـس في أديـس أبابـا قبـل أربـع سـنوات، ونقـف أمـام كل الحـركات المتطرفـة، ولكـن في الوقـت ذاتـه لا نمجـد النظـام ونعطيـه الحـق في الضغـط عـلى الشـعب مـن أجـل مواجهـة هـذا الارهـاب اللعـين

كان هـذا حديـث عمـر الجديـد بعدمـا بـدأ يكتـب في صحيفة لا يقرأهـا أحـد اسـمها « فجـر جديـد « تحـت اسـم مسـتعار هو «فـؤاد المـصري« لم أكـن أحـب الحديـث في السياسـة، أفـترض دائـماً أن عـلاج السياسـة لم ولـن يوجـد أبـداً، فعلاجهـا في التـوازن، ومسـتحيل أن تتـوازن آراء النـاس، ربـما عمـر يفكـر بنفـس الطريقـة ولكـن هيهـات أن تقنـع النـاس بأنـه ليـس واجـب عليـك حمـد الحاكـم إذا عـدل والصـبر عليـه إذا ظلـم،

لأنها باختصار وظيفته، إن المدير لا يشكر الموظف على أداء وظيفته لأنها وظيفته، هو يستفيد منها كما يفيدها، هو أرادها واختارها، وإذا لم يؤدها فلماذا يصبر على موظف كسول؟، فليرحل ويأتي بغيره، هكذا صرنا، المهم فيما وصل إليه عمر هو أن لقائتنا صارت قليلة أما بحكم قسمه المختلف عني قسم المدني، وأما بسبب عدم التفاعل الحادث بسبب عدم اهتمامي بالسياسة التي صارت حديثه المُحبب، كنت اشتري الصحيفة لكي أرضي فضولي وأعلم ما يكتب من ناحية وكي أستطيع الرد عليه عندما يطلب رأيي في كتاباته من ناحية ثانية وكي أحفزه بأن أحداً يعرف صحيفته من ناحية ثالثة، كانت أموره كلها بسيطة، مجرد زوبعة في فنجان لا تؤثر على مذاق القهوة فيه، حتى قررت تلك الزوبعة التمرد وسكب ما في الفنجان، في صبيحة يوم ما في يناير عام ٢٠٠٠ اصطدمت حافلة محملة بعدد من العمال بسيارة ملاكي وأدى الحادث إلى انقلاب السيارة ووفاة من فيها ومن بينهم طفلة صغيرة وإصابة أغلب من كان في الحافلة، كان الحادث جللاً حيث كان سببه انفجار عجلة الحافلة بسبب الطريق ،تحدث الكثير على أن الطريق لم يكن ممهداً بما فيه الكفاية، وانتهى الأمر لمدة أسبوع حتى قرأت مقالة فؤاد المصري في الجريدة بعنوان «دماء على الأسفلت « لم يكن يهاجم الحكومة

كالعـادة ولكنـه كان يهاجـم رئيـس الدولـة نفسـه، ربـما اسـتفزني الحديـث، كيـف لهـذا المجـرم أن يتحـدث هكـذا عـلى أكـبر رأس في بلدنـا، كيـف اسـتطاع وكيـف قـدر؟، قابلتـه بعدهـا بيـوم، فأخبرتـه:

- أنني أخشى عليك أن يتم إيذائك بطريقة أو بأخرى

- لـن يسـتطعوا معرفتـي، حتـى المحـررون في الجريـدة لا يعرفـوا هويتـي، إنهـم ينـشروا لي مـا أرسـله لهـم عـن طريـق البريـد باسـم فـؤاد المـصري، لا أحـد يعلـم أن عمـر ضـاوي هـو فـؤاد المـصري إلا أنـا وأنـت وشـخص ثالـث لا يمكـن أن يفـشي سري أبـداً

- أننـي لا أتحـدث عـن أن أحـداً سـيفشي سرك ولكننـي أتحـدث عنهـم، ربـما يعلمـوك من خـلال تحرياتهـم، لهـم طرقهم في ذلـك، مـا أود أن أسـألك عنـه هـو مـا فائـدة مـا تفعـل ؟ هل تريـد تغيـير الواقـع ؟!

- فائـدة مـا أفعـل أن أُنـير الـدرب للنـاس، أننـي أود أن يقـرأ مقـالاتي الجميـع ليـس لأكـون مشـهور، فكـما تعلـم أنـا أكتـب تحـت اسـم مسـتعار، فـلا فائـدة مـن الشـهرة التـي يحظـى بهـا لقـب، ولكـن الفائـدة تكمـن في الأفـكار التـي ينشرهـا هـذا اللقـب، الجميـع لـه حـق المعرفـة الحقيقيـة الصادقـة، وأنـا أود

أن يحصلوا على حقهم في ذلك

- حتى وإن لم يَردوه ؟!

- ماذا تقصد ؟!

- أقصد أن أحياناً الناس تعلم حقوقها، ولكنها لا تريدها ولا تريد تكبد عناء المطالبة بها، رغم أنها حق

- لا ... لا أتفق معك، الناس دائماً تريد حقوقها

ربما انتهى الحديث، ولكن لم تنتهِ مفاجآت القدر، فلسوء الحظ أو لحسنه من ناحية عمر، انتشرت مقالته عن الحادث وعنوانها كما تنتشر النار في الهشيم، الجميع يتحدث عما ذكره في المقالة من حقائق صادقة وواقعة، الجميع يتحدث عن الدول الغربية التي ذكر نظم مرورها وكيف يسير، الجميع يتحدث عن الجملة الأخيرة التي ختم كلمته « لا ترتضوا القليل فحياتكم واحدة فلا تعيشونها عبيد »، كان التلفاز بدأ بأخذ نصيبه الكبير من الشهرة، فوصل الأمر إلى التلفاز وبرامجه، شخص يُدعي فؤاد المصري يمثل المعارضة، أسابيع وألحقها بمقالة نارية عن فساد في وزارة الزراعة، صارت الجريدة ،شهر وتنتظر المزيد منه وترصد له أموالاً كل مقالة، حتى ألتقيت به في الجامعة ذات يوم، كان في تدريب خاص بقسمه، وكنت هناك ابحث في شيء

مـا، خرجنـا نتحـدث عـما وصـل إليـه مـن نجـاح

– هلا تكف عما تفعله، لقد صرت محط أنظار الجميع

– خطأ، صار فؤاد محط أنظار الجميع

– اللهم بلغت فاشهد، أنني أخشى عليك

– مما تخشى علي؟

لقـد صـار الأمـر مربحـاً حتـى، أزور الجريـدة فآخـذ نصيبي مــن أرباحها

– تزورها ؟!

هل صاروا الآن يعرفونك ؟!

– نعــم ولكــن لا تخـاف، طالمـا أنفعهــم سـيظلوا محافظـين عــلى هويتــي

خرجنــا مــن بــاب الجامعــة نســير بمحــاذاة ســورها، أنــا ناحيتــه وهــو ناحيــة الطريــق

إن الأمـر لا يأخـذ أكثـر مـن ثانيـة ولكـن أثـره سـيظل إلى أن نمـوت، هـذا الأمـر هـو مقتـل شـخصاً مـا أمامـك

ربـما أتذكـر في تلـك السـاعة بعـض المشـاهد البطيئـة مثـل صـوت السـيارة السريعـة، دفعـة عمـر الغـير مكتملـة لي بعيـداً،

صــوت عظــام تهشــم أمــام ســيارة ســوداء، نظرتــه المدركــة والراضيــة لــكل مــا يحــدث، الوجــه الجامــد في الســيارة، ثــم لحظـات لاسـتيعاب أن عمـر قـد انتهـى وجـوده بيننـا، ربـما كنـا أصدقــاء لعــام، لعامــين أو حتــى ثــلاث، وقــت قليــل لإدراك قصــة هــذا الشــاب، لقــد صــدق عندمــا أخــبرني أن حياتــه ربــما لــن تطــول ليكمــل سرد قصتهــا:

لم أكــن أشــعر بقدمــي التــي تســير تجاهــه، ولا يــدي التــي ترفــع رأســه وتضعهــا عــلى ركبتــي ليقــول كلمتــه:

- مــا يؤلمنــي أننــي مــت بســبب الشــخص الثالــث الــذي حدثتــك عنــه .. كنــت أثــق بــه تمامــاً

- عمــر .... قــل الشــهادة .... أشــهد أن لا إله الله ... وأشــهد أن .. وأشــهد أن محمداً ... رســول الله

- أشهد أن لا اله الا الله .... وأشهد أن محمداً رسول الله

كنــت متأكــداً أن رأس عمــر تــزداد وزنــاً، وكنــت متأكــداً أيضــاً أن قطــرات المــاء المنهمــر عــلى وجهــه ... هــي دموعــي، ولســوف أبقــى بقيــة حيــاتي أُجــلُّ عمــر عــلى مجــرد حضــوره في جــزء مــن حيــاتي

***

(٨)

مـرت الأعـوام وصرت في آخـر عـام للجامعـة، تمـر الأيـام سريعـاً، أكثـر مـن عـام عـلى مقتـل عمـر، تطـورت العلاقـة بينـي وبـين الدكتـور رشـاد، لا يمـر يـوم إلا وأقابلـه اسـتفسر منـه عـن شـيئاً مـا قرأتـه في المكتبـة التـي أصبحـت أقـضي بهـا وقتـاً أكثـر مـن الوقـت الـذي أقضيـه في منـزلي، كنـت ذات يـوم فيهـا، حتـى تأخـر الوقـت كثـيراً، وكان لا يـزال أمامـي الكثـير مـن الكتـب التـي ابحـث فيهـا، فنجحـت في إقنـاع أمـين المكتبـة أن أسـتعير سـتة منهـم لمـدة يومـين فقـط فوافـق بـشرط أن يكونـوا أربعـة فقلـت لـه أنـه لـن يتـضرر إذ جعلهـم سـتة فلـم يوافـق، وبعـد إضاعـة نصـف سـاعة في إقناعـه، لم أجـد جـدوى لفعـل ذلـك بإرادتـه فطلبـت منـه تسـجيل الكتـب وأمليتـه أسـماء الكتابـين ضمـن مـا سـجلهم، وبعدمـا كتبهـم راح يعـد

- ولكنهم ستة كتب، إنهم عهدة يا بني آدم !

ابتسمت أن لا فائدة وقلت له:

- حسناً اشطبهم من الدفتر واجعله يمتلئ بالحبر

هـز كتفيـه لا يسـتطيع فعـل شيء، أعلـم أنـه تـصرف غـير أخلاقـي وأعلـم أن القـراء لا يسرقـون وأن اللصـوص لا يقـرأون ولكـن في هـذه الحالـة مـا الفـارق إن أعطـاني الكتابـين، عـلى كل حـال حملـت السـتة الكتـب الثقيلـة جـداً، وبينـما أنـا عـلى بـاب الجامعـة وجـدت رانيـا تقـف هنـاك، فوضعـت الكتـب جانبـاً وذهبـت نحوهـا

- لماذا تقفِ هنا في هذا الوقت المتأخر؟

- أبي ليـس في المكتـب ولا في البيـت ولا عنـد أحـد مـن أقاربنـا لا أعلـم أيـن هـو، أخشـى أن يحـدث لـه شيء

- اهدئـي، كل شيء سـيكون عـلى مايـرام، سـأعيد هـذه الكتـب إلى المكتبـة ولنذهـب إلى بيتكـم عسـى أن يكـون عـاد الآن، لا تقلـقِ، لـن أتأخـر

حملـت الكتـب وسريعـاً إلى المكتبـة، وبعـد خطـاب عنيـف مـن أمـين المكتبـة تركـت الكتـب وخرجـت، وأثنـاء خروجـي تذكـرت المثـل الشـعبي الـذي يقـول «جـت

الحزينـة تفـرح ملقتلهـاش مطـرح« وفي نفـسي أقـول «فقـري«

ذهبـت لهـا فوجـدت عيناهـا غارقتـان في الدمـوع، وممسـكة الهاتـف المحمـول الصغـير في يدهـا المرتعشـة:

- ماذا حدث ؟!

- جاءتـه الغيبوبـة وهـو يقـود السـيارة فاصطدمـت بشـجرة ونُقـل إلى المستشـفى

سـألتها أي مستشـفى، فـردت بأنهـا بجـوار منزلهـم ولكنهـا بعيـدة بعـض الـشيء عـن مكاننـا الحـالي، وبعدهـا شـددت يدها ركضـاً إلى الخـارج، أوقفـت تاكـسي، وسريعـاً إلى المستشـفى، كان بحـوزتي فقـط خمسـة جنيهـات أعطيتهـا إلى السـائق، كنـت في غايـة الخـوف عليـه لقـد صـار مثـل أبي، دخلنـا المستشـفى وسـألنا عليـه الطبيـب فـرد:

- لا تقلقـوا هـو بخير فقـط انتظـروا حتـى يفيـق مـن غيبوبة السـكر وسـيخرج غـداً معكما

- وماذا عن الحادثة ؟!

- لا لم يحـدث لـه شيء بحمـد الله، كان اصطـدام خفيـف، هـل أنـت ابنـه؟

- لا .. نعم نعم أنا ابنه

ـ حسناً يجب أن تذهب للخزينة

هززت رأسي وألتفت إلى رانيا، فقالت:

ـ سأعود إلى المنزل لأجلب المال ولن أتأخر

أوقفتها وقلت:

ـ كيف ستمشين في هذا الوقت وحدك؟

ـ لا مشكلة فالبيت ليس بعيداً عن هنا على أية حال

ـ سآتي معك

نزلنا فسألنا على المبلغ المطلوب وخرجنا قاصدين منزل الدكتور، أوقفتها لأتحدث في تليفون المستشفى إلى أهلي لأطمأنهم، طلبت الرقم فردت مروة فقلت لها أنني سأبات خارجاً اليوم ولم أنتظر ردها وأغلقت الهاتف، أنا في تلك الحالة التي يعييني فيها الكلام ويتعبني فيها التفسير، تحركت تجاهها وإلى أن وصلنا لم يتحدث أحداً للآخر مطلقاً، فقط كانت نظرات، وصلنا البيت فانتظرتها أمامه، وسريعاً نزلت مع المال، وعدنا دون كلمة أيضاً، دفعت المال وصعدنا للغرفة التي هو بها، فمنعنا الممرض من الدخول فجلسنا على الكراسي أمامها وجلست بجواري، وبعد فترة كسرت الصمت فقالت:

- لماذا قلت للدكتور أنك ابنه ؟

- ... أنـا ... والـدي متـوفي، وعندمـا سـمعت منـك أنـه في أزمـة الآن شـعرت أن أبي هـو الـذي في الازمـة

- لا أعلـم مـا أقولـه لـك الآن ولكـن شـكراً عـلى وجـودك، لا، عـرف مـاذا كنـت سـأفعل وحـدي

هــززت رأسي وأرجعتهـا للحائـط، أنظـر إلى السـقف ومـا هـي إلا لحظـات حتـى غلبنـي النـوم

اسـتيقظت عـلى آذان الفجـر وعـلى رأس رانيـا عـلى كتفـي، فتحركـت ببـطء ولكنهـا اسـتيقظت، وقبـل أن تفيـق قلـت لهـا:

- سأصلي الفجر ثم أعود إليكِ

دخلــت المســجد وفي صــلاتي دعــوت لــه، دعــوت الله أن يخفـف عنـه مـا هـو بـه، وأن يعـود سـالماً كـما كان

وفي الصبـاح قابلـت الدكتـور المعالـج الـذي قـال أنـه يريـد التحـدث معـي قليـلاً بشـأن الدكتـور رشـاد

سرت وراءه حتى دخل لحجرته وبدأ في الكلام:

- لا أريـد ان أتحـدث أمـام أختـك لأنهـا ربـما تـصرخ أو لـن تصمـد بعـد سـماع هـذا الخـبر

- خير إن شاء الله، هل هناك مشكلة مع .. أبي

- عندما جاء اشتبه الدكاترة في شيء ما وقد أجروا عليه بعض الفحوصات والتحاليل لهذا لم تستطعوا الدخول إليه ليلة أمس وبعد ظهور النتائج ظهر لنا أنه مريض بسرطان في الدم، أنا آسف لذلك ولكنك يجب أن تعلم لتتابع حالته

لم أجد كلاماً أقوله فهززت رأسي وخرجت إلى رانيا المسكينة التي لا تعلم شيئاً حتى الآن

- لمَ اصفرَ وجهك هكذا ؟!

- لا شيء فقط مجرد إرهاق

- تقول المرضة أن أبي فاق قبل قليل وسيخرج معنا بعد دقائق

- حمداً لله، سأوصلكم إلى المنزل ثم اعذريني سأرحل

- ولكنك تبدو متعباً جداً، أرح جسدك قليلاً في منزلنا ثم ارحل، والدي وأخي في المنزل لن أكون وحدي

- لا شكراً، حتى لا أتأخر أكثر على أمي وأختي

هزت رأسها وما هي إلا دقائق وخرج الممرض سانداً الدكتور رشاد، فأسندته بدلاً من الممرض وخرجنا من المستشفى باتجاه منزله، دون كلام

وعندما وصلنا لمنزلهم صعدت معه حتى أدخلته إلى حجرته وأرحته على سريره

- سأرحل أنا يا دكتور، هل تحتاج أي شيء مني قبل أن أرحل ؟

أمسك بيدي وقال لرانيا:

- اجلبي لي ماء، من فضلك

خرجت من الغرفة، وجذبني تجاهه فقال:

- لا تخبر رانيا بذلك

بقيت برهة غير مستوعب لما يتحدث عنه، هل يعرف أن عنده سرطان، فهز رأسه كأنه يسمعني ويرد على سؤالي فقال :

- نعم أعلم ذلك، وعليك أن تحفظ هذا سراً بيننا، مفهوم؟

- ولكن علاجك ...

- احمم الماء يا أبي

دخلت رانيا فتناولت الدورق من يدها وملئت الكوب وقدمته له، فأمسك به وقال:

ــ احضري الافطار لمنصور

قمــت وقلــت لــه لا لأن عــلي اللحــاق بالقطــار العائــد لبلدنــا، وانصرفــت سريعــاً

وصلـت إلى محطـة القطـار كان القطـار يسـير، بذلـت مـا في وسـعي حتـى لحقـت بـه، لم تكـن مشـكلة ولكـن المشـكلة الآن هــي أننــي لا أملــك مليـماً واحـداً في جيبـي، مـاذا سـيحدث عندمـا يمـر المحصـل، وقفـت عـلى بـاب القطـار أفكـر فـما وجـدت سـبيلاً سـوى الهـرب، المحصـل يقـترب مقدمـة العربـة التـي أنـا بهـا فأنتقـل إلى العربـة التاليـة، أنـزل إلى محطـة أتجـاوز العربـة التـي بهـا المحصـل وأركـب مجـدداً، كأننـي لـص يتخفـى مــن أعــين النــاس، إلى أن تبقــى محطــة وحيــدة قبــل بلدتنــا وهاأنــذا أقــف عــلى البــاب وفجــأة يمســك بكتفــي المحصــل قائــلاً:

– انــا ألاحــظ أنــك تجــول كل القطــار حتــى تهــرب منــي، أيــن تذكرتــك؟

– لا .. لا أهــرب ولا أختبــيء ... أنــت تريــد التذكــرة، صحيــح ؟!

– بالطبع أريد التذكرة أريني إياها أو اقطع تذكرة

– لا معي تذكرة في شنطتي، سأخرجها لك

وضعت الشنطة على الأرض وفتحتها وظللت أمد يدي بداخلها دقيقة حتى وصلنا إلى المحطة، توقف القطار والمحصل ينادي أنظر إليه بينما القطار بدأ في التحرك، فأغلقت الشنطة وشددتها وقفزت من القطار أجري قائلاً:

- أنا آسف والله، آسف سامحني

والمحصل يقف على الباب يمد رأسه يسب ويشتم

وأنا أقف والقطار يمر أمامي

إلى أن اختفي تماماً، علي أن أسير هذه المحطة حتى أصل لبلدتي، سرت بحذاء السكة الحديد، أبكي، تؤلمني قدمي من السير، أحترق من الشمس، أتعثر، أسقط، أبكي، ولكن لا أتوقف

وصلت منزلي سلمت عليهم وقلت:

- أنني لا أستطيع تفسير ما حصل الآن دعوني أنام وعندما استيقظ سأخبركم بكل شيء

ودخلت غرفتي وأرتميت على السرير، أفكر، كيف يعرف أنه مصاب بالسرطان هكذا ولا يأخذ أي علاج؟! وكيف عرفت أنه لا يأخذ علاج ؟ ربما لأنه لم يخبر ابنته؟! ولكن كيف سيبقى الأمر سراً ؟!، وأنت ماذا عنك ؟!

إلى متى ستبقى هكذا، ماذا تعني بهكذا ؟!، أسئلة أسئلة كثيرة تتجمع في عقلي تطالب بالاجابة، ومع توافد الأفكار وهتافات الأسئلة ذهبت إلى عالم الأحلام، أحلم بأنني صرت غنياً ناجحاً أقف في مكتب شركة عملاقة هي شركتي ولكنني أستيقظت في اليوم التالي على صوت أمي تقول:

- منصور، فاتورة الكهرباء

قمت سريعاً إلى ملابسي فلم أجد فيها ملياً بحثت بين كتبي وأغراضي فلم أجد، خرجت إلى المحصل وغلقت الباب خلفي وطلبت منه كعب الإيصال، الذي يمنحنا فرصة الدفع لاحقاً بمدة صغيرة، نعم تأتي علي لحظات لا أملك فيها قرشاً واحداً، ولكن كل هذا سينتهي، كل هذا سيزول

وعندما دخلت كانت أمي قد حضرت الافطار فجلسنا نتناوله وأمي ومروة ينظران لي كي أخبرهم بما حدث بالأمس، أخبرتهم كل شيء، عن الدكتور وعن مرضه وعن ابنته وعن كل شيء إلا الخمسة جنيهات التي دفعتها للتاكسي، فأنا لن أتحمل قول أمي بأن شهامتك تضعك في مواقف محرجة كثيرة وأن بهذه الخمسة جنيهات كان بإمكانك دفع أي شيء من مصروفات المنزل، فآثرت الكتمان

***

(٩)

وسريعاً ما دخلنا الامتحانات، امتحانات نهاية العام ونهاية الكلية امتحانات التخرج، كنت أذاكر لأول امتحان عندما دخلت مروة غرفتي تسألني:

- أخي أريد قلماً لأن قلمي انتهى

نظرت لها وأنا أفكر في أنني لا أملك سوى ثمن المواصلات غداً، فأمسكت بقلمي وأعطيتها إياه

- خذي قلمي الآن ولا تخرجي لأن المكتبات ستكون أُغلقت

- أُغلقت ! إن المغرب لم يؤذن حتى

- لا ستكون أُغلقت الآن اسمعي كلامي وحسب

في هـذا الموقـف أنـا أحـترق مـن الداخـل، فأنـا لا أملـك مـا يكفـي إحتياجـات أسرتي فأشـعر بالعجـز

ألقيـت الكتـاب بغضـب وأرتديـت ملابـس الورشـة ونزلت مـن الشـقة لأُنهـي بعـض الأعـمال حتـى أجني مـا يكفـي أسرتي هـذه المـدة، أنـا أعلـم أن هنـاك امتحـان بالغـد ولكـن لا بديـل لعمـلي الآن، أغلقـت بـاب الورشـة وبقيـت أعمل حتى سـمعت أقـدام شـيوخ حارتنـا ذاهبـون لفتـح المسـجد لصـلاة الفجـر، توقفـت عـن قطـع الخشـب ونظـرت حـولي إلى مـا أنهيتـه، هـذه سيتسـلمها صاحبهـا غـداً، وهـذه القطعـة تحتـاج إلى الدهانـات وحسـب، هـذه سـعرها كـذا سـتكفينا لمـدة ليسـت بالطويلـة ولكـن هـذا الـدولاب سـيغطي مصاريـف المنـزل ومصاريـف مـروة لمـدة تقـترب مـن الشـهر، ... الله اكـبر الله اكـبر

آذان الفجـر يخـبرني بـأن الله كبـير فـلا تشـغل بالـك برزقـك فقـد فعلـت الجـزء المطلـوب منـك، لقـد سـعيت

ذهبـت إلى الامتحـان، وأنـا اتأهـب للحـل اكتشـفت أنـه ليـس معـي قلـم، لقـد نسـيت أني أعطيتـه لمـروة بالأمـس، طلبـت مـن المراقـب واحـداً، فنظـر لي باسـتحقار وقـال:

- أي نـوع مـن الطـلاب أنـت ليـس معـك قلـم وأنـت في امتحـان، مـا الـذي حـدث لهـذا الجيـل!! ....

فعلت وضعية صامت لبقية حديثه أنا في حالة لا أريد أي إحباط آخر لأنني مليء به حتى طفح مني، قد أقوم لأهشم رأسه إن لم يكف عن الحديث على أنني شاب مقصر، فلا يعلم حالي إلا الله

- تفضل، وفي النهاية سترسب

تناولت القلم منه وأنا أنظر إلى عينه مباشرة، أنا أعلم أن هذه الحركة تربك بعض الناس، لذلك أفعلها، كان قد مضى من وقت الامتحان ربع ساعة على الأقل ومع ذلك أنهيته قبل ميعاد نهايته بثلثي ساعة تقريباً، أتذكر نظرات الاستغراب من الطلاب ومن المراقب ذاته أعطيته الورقة ثم القلم وقلت:

- تفضل القلم، آسف على الحبر القليل الذي أستعملته

وابتسمت ابتسامة عريضة ورحلت

***

- مبروك يا باشمهندس

هكذا قالت رانيا بعدما أعلمها أباها بأنني تخرجت من الكلية بتقدير عام جيد جداً، كانت فرحتي مضاعفة عندما ابتسمت فرحة بذلك، فرحة لا تقل عن فرحتي

بزغرودة أمي وضحكات مروة أختي، بعد فترة من حفل التخرج التي حضرها رئيس الجامعة ووزير التعليم العالي بنفسه، أخبرني الدكتور رشاد بأنني سأعمل في شركة الكهرباء الحكومية بداية من الشهر القادم، عندما أخبرت أمي بذلك قالت:

- وظيفة القطاع العام أفضل، مؤقتاً

وعندما سألتها ماذا تعنين بمؤقتاً أخبرتني:

- أنت لن تبقَ موظف طيلة العمر، سيأتي الوقت لتصبح فيه رئيس هذه الشركة، أو شركتك الخاصة

أمي لا تبالغِ، هي تقول كل ما تتمناه وأتمناه أنا لنفسي

كنت أنتظر يوم العمل الأول، سأمارس شيئاً هرمت من أجله، ولكن تأتي الوظائف بما لا يشتهي الموظفون، فها قد مر عام لم أفعل به شيئاً سوى الجلوس على المكتب ومراقبة الموظفين الآخرين لا يمارسون أعمالهم وأختام وإمضاءات على كل ورقة تأتيني، كنت في قسم خدمات الكهرباء التابع لشركة الكهرباء القابضة، أشاهد السيد حبارة يقرأ الجرائد يومياً بلا انقطاع ويختلس النظر إلى بقية الجالسين، وأراقب طريقة تحضير البامية من السيدة فوزية، أعرف كل الأخبار الرياضية من السيد رشدي، أُصاب

بالصداع من ثرثرة السيدة نوال عن ابن أختها الذي لا يجدوا له عروس، هكذا هي الحياة في الوظيفة الحكومية، وكمية النشاط الذي جئت به بدأت في الإنحدار يوماً وراء يوم، إلى أن وصلت إلى وجهة نظر ترضيني بعض الشيء، وهي أنني سواء تعبت أم لم أتعب فسوف آأخذ مرتبي دون نقصان لذا فالأفضل أن آأخذ مرتبي دون تعب، فلأستريح .

***

جلست في غرفتي أتحدث إلى نفسي كعادتي أمام المرآة، ترى أمي أن هذا يؤدي بي إلى الجنون، ولكني أرى أن هذه الطريقة هي الطريقة الأنسب لأحافظ على عقلي !

أنا الآن في وظيفة تضمن لي مرتب بسيط بعدد ساعات عمل قليلة، والورشة تسير بصورة جيدة، وصارت أختي في كلية الطب، والآن خصصت بعض الوقت أقضيه في إجراء أبحاث أكثر عن الخلية الشمسية والبطارية، لا أصل لنتيجة ولكني أسير ببطء ناحيتها وهذا أفضل، والآن ماذا؟!، نعم هل الوقت مناسب، ربما هو الوقت الأنسب للحديث عن هذا الأمر، لقد كنت أتحاشى ذكر الموضوع وأصرف حديث أمي عنه كلما فاتحتني فيه، ولكن الآن هو الوقت المناسب لإضافة عضو جديد لأسرتنا الصغيرة

قمت من جلستي تلك إلى أمي في المطبخ

- أمـي هـل يمكننـي أن أتحـدث معـك في موضـوع مهـم بعـض الوقـت

- من سعيدة الحظ ؟!

- دائـماً تعلمـين مـا أريـدك فيـه قبـل أن أتحـدث، نعـم هـذا هـو الموضـوع

غسلت يداها وألتفتت إلي بجسدها وقالت:

- ولكنهـا سـتبقى في تعليمهـا حتى تأخـذ شـهادتها، اتفقنا ؟!

ارتسمت على وجهي علاملات الاستغراب

- ماذا تعني ؟ عمن تتحدثين ؟

- سارة، سارة بنت أستاذك إمام جارنا

- لا سـارة مـاذا ! كنـت سـأحدثك عـن بنـت الدكتـور رشـاد الـذي حدثتـك عنـه كثـيراً

- بنـت الدكتـور رشـاد !، ولكنهـا ليسـت مـن توبنـا يـا منصـور، مـا الـذي يجعلـك تـترك كل بنـات بلدتنـا وتتـزوج بنـت المدينـة، هـل سـيرضيها أن تعيـش هنـا معنـا ؟! أو ترتبـط بمسـتوانا ؟!

- وما المشكلة يا أمي، لن ترفض، هي لا تفكر في مثل هذه المواضيع، ولا تهمها

- يبدو أنك تعرفها جيداً

- لا، انا لا لا أعرفها كثيراً فقط مجرد محادثات صغيرة سريعة، ولكنني متأكد أن عقليتها ليست هكذا، ثم ما الذي يجعلها ترفض، قد تم تعييني في شركة حكومية وعندما يزيد مرتبي سأكون قادراً على جعلها تحيا في مستوى لا يقل عن مستواها فيما سبق

- ليس المال هو كل شيء، الحب المشروط بالمال والماديات لا يستمر، هناك أشياء لا يستطيع المال تحمل كلفتها

- لا يا أمي اسمحي لي، هل تعجبك حالتنا التي كنا فيها ؟، أن نعيش تحت خط الفقر، أهذا ما نستحقه ؟!، المال يشتري كل شيء، كل شيء، المال يحكم المال يتحكم المال يسود ،، إن فقدنا للمال عجز

- نحن أفضل من غيرنا يا منصور، لماذا تتحدث هكذا ؟!

- الحمد لله، ولكن عندما أعجز عن جعلكم تعيشون حياة كريمة فهذا يعذبني، عندما أرى من هم في سني وأقل مني حتى يتمتعون في نعيم المال هذا يعذبني، عندما ....

– عندمـا تـرى المـرض سـتعلم كـم كنـت معـافى، عندمـا تـرى الوضاعـة سـتعلم كـم كنـت شريفـاً، عندمـا تـرى الجهـل ستعلم كـم كنـت متعلـماً، لا تتغير يـا منصـور، ولا يغرنـك المال

– لا يغـرني المـال يـا أمـي، ولـن أتغـير، ولكـن حالنـا الآن لا يرضينـي ومـا أسـعى إليـه بـكل طاقتـي هـو أن أغـيره

– لن تفهم ما أقصده الآن بأي حال، عليك أن تجرب

– حسناً دعينا نعود لموضوعنا، ما رأيك ؟!

– نعود لموضوعنا، ماذا عن سارة ؟!

– هـل وعدتـك يـا أمـي مـن قبـل بـأن أتزوجهـا ؟!، بـل حتـى أننـي أعتبرهـا مثـل مـروة

– أنت حر إفعل ما تريد

– كيـف أكـون حـر يـا أمـي ؟! بـدون موافقتـك لـن يحـدث شيء يـا سـت الـكل، هـا مـا رأيـك ؟!

– وهـل أسـتطيع أن أرفـض لـك طلـب، الله يوفقـك أنـت وكل أولاد الحـلال

قبلت يدها، وعدت إلى غرفتي، أتدرب على ما سأقوله

***

الساعة ١:٣٠ م

أخـبرني بأنـه يريـد العـودة للمنـزل، فخرجنـا مـن المسـجد متجهـين لبـاب الشركـة، لنسـير في الممـر الزجاجـي الرائـع وننعطـف يمينـاً إلى مركـن السـيارات مـروراً ببسـتان أزهـار متفتحـة جميلـة، وصلنـا للسـيارة فقادهـا خارجـاً بنـا مـن بـاب السـيارات في الشركـة، كانـت سـيارة رياضيـة مـن شركـة « الهـلال » المصريـة الشـهيرة، قـال:

- ما رأيك حتى الآن ؟!

- كل ما سمعته عكس ما أراه الآن

- ولسـوف تـرى ذلـك عـدة مـرات، وأن مـا تـراه الآن سـيغيره الزمـن حتـى لتقـول أن مـا سـمعت عنـه قديـماً صـار عكسـه الآن

- صحيح

- .. هـل تعلـم مـن رئيـس شركـة الهـلال الـذي أقـود سـيارتها الآن؟

- أعلم أنها امرأة لا أتذكر اسمها، ولكن لماذا ؟!

- لأن لها هي الأخرى قصة مشوقة

- حسناً، جيد

قلتهـا وأنـا في نفسي أقـول دعنـا نـرى قصتـك المشـوقة أولاً يـا صديقـي ثـم نـرى قصـص الآخريـن

خرجنـا للطريـق السريـع وقـال أمامنـا مـدة حتـي نصـل دعنـا نكمـل القصـة، ففتحـت المسـجل ووضعتـه أمـام عجلـة القيـادة وهـم بالتحـدث ولكنـي قاطعتـه عندمـا أدركـت أخـيراً أنــه هــو مــن يقــود السـيارة بنفســه، لا يوجـد ســائق كـما لا يوجـد حـراس، فآثـرت أن أسـأله عـن ذلـك:

- لماذا لا يوجد لك سائق أو حراس؟

- لست بخيلاً

ضحكنا ثم استدركت

- لا ... لا أقصـد ذلـك بتاتـاً، ولكنـي فقـط أعلـق عـلى تلـك الملاحظـات العابـرة التـي أفكـر فيهـا

- أشـعر بالـشيء الـذي يحـدث لي عندمـا أفعلـه بنفـسي، أن لـدي سـائق ولكنـي أعطيـه أيـام أجـازات أكثـر مـن أيـام عمـل مـع نفـس الراتـب حتـى تتسـنى لي الفرصـة بـأن أقـود لنفـسي

قاومـت بشـدة طلبـي بـأن أعمـل سـائق عنـده فخـير وظيفـة كانـت هـي، فأخبرته:

- وماذا عن الحراس ؟!

- إذا قلت لك إن الله يحرسني فلن أزيد شيئاً عن المنطق والإيمان، إن الله يحرسني دوماً، ولكني سأخبرك عن إيماني القوي بالآخرة، إيماني القوي بموتي، أنا وأنت وكل البشرية سوف تموت وتذهب لمقابلة ربها وحسابها جنة أو نار، هذه هي النهاية، تختلف المسارات ولكن النهاية واحدة، صحيح !!، عندما تعود لمنزلك اليوم، ستقول لك والدتك، هل جئت ؟!، بغض النظر عن منطقية السؤال أم لا، ولكنها سألتك عن النهاية، ولم تسألك عن الطريق الذي سلكته لتصل لتلك النهاية

- فهمت، أنت تؤمن بموتك، سواء كان موتاً عادياً أو موت مضاعف وهو القتل

- بالضبط، ثم إن هناك نقطة أخرى تضاف في هذا الصدد، وهي أنني أعتقد أنني لم أفعل شيئاً سيئاً، لذا من ماذا أخاف ؟!

- أؤمن بحديثك كل الإيمان، ولكني لا أخفيك سراً، أحياناً الخوف من الموت يسود أي موقف

- الخوف من الموت في غاية الطبيعة، الخوف من الموت يعني الخوف من كونك لست مستعداً له حتى الآن، ليس فقط من الناحية الدينية، وإنما أيضاً من الدنيوية، هل

أنـت الآن مسـتعداً للمـوت ؟!، هـل كل أفـكارك وأحلامـك وطموحاتـك مُنجـزة وكل الأشـياء الجيـدة قـد فعلتهـا ؟!، إن فعلـت ذلـك فلـن تخـاف المـوت

صمـتُ قليـلاً، كنـت أفكـر في كلامـه وأتذكـر كلامـه الـذي مـضى، هـذه دروس قـد حفـرت في حيـاتي ولـن أنسـاها مـا حييـت

بدأ يحكي، فأعرته كل حواسي

***

(١٠)

عندمـــا قابلـــت رانيـــا في المكتبـــة طلبـــت منهـــا أن تخـــرج لنتحـــدث بحريـــة عـــن موضـــوع مهـــم، فقالـــت:

- أن هنا هو أنسب مكان للحديث عن المواضيع المهمة

تلفـت حـولي كسـارق يهـرب مـن النـاس وأخـذت نفسـاً عميقـاً وقلـت في نفسي، حسـناً سـتون ثانيـة مـن الشـجاعة سـتكفي

- تتزوجينني

صمتـت قليـلاً ونظـرت للكتـاب في يدهـا ثـم نظـرت إلي وقالـت:

- جاءت متأخرة كثيراً

أدهشني الرد ولكني أجبت سريعاً

- أحياناً يجب أن تتأخر بعض الأمور كي تأتي بالصورة التي تريدينها، هل توافقِ ؟!

- بالتأكيد، اطلب يدي من أبي

- لن أطلب يدك وحسب بل سأطلبك كلك، أين أبيكِ ؟!

نعم سأتزوجها « هي من أردت هي من أحلم بها طيلة الوقت »، ذهبت إلى الدكتور رشاد وطلبتها منه فقال:

- ما ردها ؟!

- وافقت

- حسناً دعني أحدثك قليلاً على ما أنت مُقبل عليه، رانيا متقلبة المزاج كثيراً وذلك منذ وفاة أمها، أنا فقط أريد أن أُنبهك لما أنت مقبل عليه، أنت تقبل على الارتباط بمختلة عقلياً تشبهك، لا والأدهى من ذلك أنكم ستنجبوا أولاداً ستطلقوهم في المجتمع، أنا لا أتفائل بهذا الارتباط وأخاف على المجتمع منكم

- .... حسناً، ما هو ردك؟

- بارك الله لكما وبارك عليكما وجمع بينكما في خير

ابتسمت علامة النصر واحتشد الفرح في حلقي، خطوة جديدة ودرجة جديدة أترقاها في سلم حياتي، اللهم بارك لنا في هذه الزيجة وبارك في الذرية الخارجة منها

كانت الأعراف والتقاليد تقضي بأن ندخل فترة الخطوبة ثم بعد ذلك نتزوج، كانت فترة الخطوبة عام، كان العام كثير ولكن أمي رأت أنه وقت مناسب، ووافقها الدكتور رشاد، الذي أبدى إعجابه بالسيدة التي كافحت لأجل أولادها، وقال:

- والدتك سيدة عظيمة يا منصور يجب أن تكتب قصتها هذه لتخلد ذكراها

ابتسمت وأنا أقول في بالي لا، لا يمكن أن يكون الدكتور يغازل أمي، هي تكبره على كل حال، نقِ ذهنك أنت فقط، تحدثنا على الأمور المادية وكانت القسمة عادلة، ولكن تحتاج مني عامين لتدبير هذه الأموال، لا يهم سأعمل بكل جد، يتردد في ذهني مقولة أمي لي مهونة الأمر علي كلما أوشكت دخول أمر صعب « من يريد العسل يتحمل لسعات نحله » وأمرر هذا المثل على ما أنا فيه، رانيا العسل، لسعات النحل هي الظروف وما ستحدثه لي من سهر وجهد وتعب

في حفـل الخطوبـة، كان هنـاك القليـل مـن أصدقائـي لأننـي في بلـد آخـر وليـس كل أصدقائـي يفضـل السـفر، عـلى كل حـال أنـا لا أملـك أصدقـاء أصـلاً بعـد عمـر، جـاء الأسـتاذ إمـام وابنـه، وعندمـا قاربـا عـلى الرحيـل ذهبـت لأسـلم عليهم فبـارك لي أسـتاذي، وقبـل أن أرد باغتـت أمـي الرجـل فقالـت:

- إن شـاء الله سـنحضر عـرس سـارة قريبـاً بـإذن الله، لمـاذا لم تـأتِ معكـم، أليسـت صديقـة مـروة ؟!

- المواصـلات ترهقهـا، تعـوض في الليلـة الكـبرى بـإذن الله، مع السـلامة

وذهـب وعـدت أنـا لجـوار رانيـا ولا أعـرف مـا السـبب لكـن لم تفارقنـي صـورة سـارة وهـي تتحجـج كـي لا تـأتي معهـم، لمـاذا ؟ لا أعـرف

مـرت الأيـام، حيـاتي صـارت مقسـمة إلى خمسـة أقسـام، أسرتي الصغـيرة، رانيـا، عمـلي في الشركـة، ابحاثـي الخاصـة بمشروعـي، الورشـة

لا أجـد وقتـاً للتنفـس، دواء أمـي ووجـودي مـع أختـي مهـمان ولا يمكننـي الاسـتغناء عنهـما او اسـتبدالي بآخـر لعملها، لا يمكننـي ان أعتمـد عـلى مـروة لتعطـي أمـي الأدويـة، فقـد تنسـى أو قـد تكـون في جامعتهـا، وأمـي تنتظـر الفـرص التـي

أغفل فيها عن إعطائها الدواء حتى لا تأخذه، وتقول أنها تكرهه بشدة وأن الله سوف يشفيها دون الحاجة إلى دواء

رانيا لا يمكنني أن أقصر معها وإلا لن أنتهي من شكوتها بأنني أقصر معها وأنني لا أعاملها مثل كل صديقاتها و بلا بلا بلا، تبدو الفتيات لطيفات كثيراً حتى يرتبطوا بك فيتحولوا إلى كومة من الإلحاح والشكوى والغيرة الغير مبررة وغيرها الكثير

بغض النظر إلا أن الوظيفة الثابتة أمر لا مفر من الابقاء عليه، فالأمر أكبر من ذلك حيث أن مرتب الوظيفة الثابت يؤمن الراحة من مصاريف البيت وجزء تدخره أمي لمساعدتي في زواجي، بالاضافة إلى الفكرة المسيطرة على بشر الحاضر في بلدنا وهي أمان الوظيفة الحكومية، وبرغم إن مكاني كمهندس كهرباء من المفترض به أن يكون وسط الآلات والشحوم والمعدات إلا انني لم أبرح المكتب الذي جلبوه لي هؤلاء الأغراب ،عمل روتيني ممل، أؤكد لنفسي إنه ليس مكاني وأنني لا أستحق المال الذي أتقاضاه منه لأنني ببساطة لا أبذل مجهود، أرى انني سأتحول للأستاذ حبارة السمين في المكتب المقابل لي، أو لمدام فوزية التي تخيرني بين تقطيف الملوخية أو تفريط البسلة، ولكنني أستمر في تذكير نفسي كل يوم، هذا ليس مكاني هذا أقل

مما استحق بكثير، وسيأتي اليوم الذي سأقول فيه لن أقبل بأقل مما استحق أبداً، ولكنه ليس الآن على الأقل

وأيضاً أبحاثي، هي ما يخرج كل طاقتي التي لو لم تخرج هنا ستخرج في مواضع أخرى تسبب الكوارث، أُخصص لها وقتاً لأنني أثق أن هذا الطريق هو خلاصي مما أنا فيه، مشروعي هذا سينقلني وأسرتي لمستوى آخر تماماً مستوى أحلم به من قديم الأزل، مستوى يسمح لي بأن أنام ولا أحمل هم فاتورة الكهرباء أو المياه التي لم تدفع أو أهرب من محصل القطار لأنني لا أحمل ثمن التذكرة، أو أن مروة لا ترتدي ملابس جيدة مثل صديقاتها

أما عن الورشة فهي ليست مكاناً لجني المال في الفترة الحالية ولكنها مكان أبي، إن أمرها أكبر من قطعة خشب ومطرقة إنها تراث وأغلى ما نملك لأن فيها عرق ورائحة أبي، فإن كنا فقدناه، فلن نفقد ما ترك به أثره

مضت ستة أشهر منذ خطبتي برانيا، وذات مرة في يوم زيارتي لها، يوم الجمعة قالت:

– ستأتي معي حفل زفاف صديقتي الخميس المقبل

– أنا لا أعرف أحداً هناك كيف سأذهب ؟

– وهل تتركني أذهب وحدي ؟

- لا، ولكن هل من الضروري أن تذهبي ؟

- من الضروري ؟! أقول لك أنها صديقتي

- حسناً يا رانيا حسناً سأكون جاهزاً وسآتي معك

أنهيت الحوار وأنا لا أعلم من أين سآتي بالوقت لأذهب معها ولكنني قلت لها نعم حتى تكف عن هذا الحديث، أشعر أنني رُحمت، ولكني لا أدرك أن الأسبوع المقبل سيكون علي أن أذهب معها، ليكون ذهاب غير كل ذهاب سبق أو سيأتي

***

الجزء الثاني

اهتزاز

يقولون أن المصائب لا تأتي فرادى، بل تمسك
كل مصيبة بيد أختها، لتصفعك بلا انقطاع

الساعة ٢:٠٠ م

وصلنا منزله ذا الحديقة المبهجة، أخبرني بأنه لا أحد فيه الآن، أجلسني على مقعد وثير في غرفة استقبال الضيوف الواسعة، عاد بعد بضع دقائق ليعلمني بأننا سوف نتاول غداءنا أولاً ثم نكمل، وعندما أردت أن أقاوم هددني بعدم إكمال القصة فرضخت، كنت انتظر استهزاءه بي لأنني لا أستطيع أن آكل بالشوكة والسكينة ولكني تخليت عنهما بعدما رأيته يأكل بيده بصورة عادية تماماً خالية من التكلف، قام بتشغيل التلفاز على سجدة اللاعب المصري محمد صلاح بعدما أحرز هدف لفريقه الايطالي روما، غير المحطة إلى محطة الرسوم المتحركة ونظر لي نظرة أفهمها جيداً لأنني أنا أيضاً أحب الرسوم المتحركة

- لا أعلم كيف ينعم أطفال اليوم ولا يوجد على تلفازهم بكار والمغامرون الخمسة وغيرهم مما تربينا عليهم

- انتهى هذا الزمن رغم جماله

- لا أصدق أن ابنتي يضيق صدرها لمشاهدة حلقات القط والفأر وأمها توافقها الرأي

- ... بالمناسبة أين هم ؟!

- من ،القط والفأر ؟!

- لا أقصد ابنتك وأمها

- اه ... للأسف يقضون الأجازة عند حماي، كنت أتمنى أن تقابلهم

- بالطبع كنت أتمنى أن أرى ابنتك وازداد شرفاً بأن أقابل الدكتورة رانيا

نظر لي وهو عاقد الحاجبين ثم ابتسم ابتسامة خفيفة وقال:

- ... ألم أقل لك أن القدر أغرب بكثير من أن تتخيله

***

(١١)

في التاريخ ٢٠ نوفمبر ٢٠٠٣ كان يوافق الخميس، ذهبت إلى العمل كالعادة، لا شيء جديد أوراق مكدسة على المكتب الذي أمقته بشدة، منذ أن جئت إلى هنا أعلم أنني عمالة زائدة لا أفعل أي شيء يشعرني بقيمتي في العمل، لا أشعر أن العمل يهتم لأمري إن حضرت أو غبت، وأنا لا أريد هذا الطريق الطريق الذي يهمشني ويطفأ ألوان الشباب المنبعثة مني، رغم أنني قد رضخت لفترة ما ورضيت بهذا مادمت أتقاضى أجراً ولكنني الآن أريد أن يكون لي دوراً في الحياة لا أمر كمن مروا كراماً، قررت أن الوقت الآن مناسب لأتحدث إلى مديري عن ذلك، أنا لم أتخرج من الكلية لأقعد مثل بقية القاعدين هنا مهمتهم تقطيع البامية أو السبانخ أو قراءة الصحف اليومية والأخبار الرياضية

وقبل أن يدخل المدير مكتبه

- أستاذي، كنت أود الحديث معك في أمر هام

- سريعاً

- منذ عملت هنا، لا أشعر أنني أفعل أمراً مفيداً، لذا أود من سيادتك أن تعيد تقسيم العمل وأن يكون لكل منا دوراً فعالاً في المنشآة

نظر لي نظرة تجمع بين الاستغراب والاستحقار وقال:

- منذ متى وأنت تعمل هنا ؟!

- ما يقرب من سبعة أشهر

- إذاً أنت لا تعلم شيء، ستفهم الأمر بعد قليل، هل أنت متزوج ؟!

- لا، لازلت خاطباً

ابتسم ابتسامة صفراء ورحل وهو يقول:

- احمد ربك، أنت أحسن من غيرك ومني شخصياً

لم أفهم ماذا يقصد بأن أنا أحسن من غيري ولكن حالة عدم الفهم لم تطل، فبعد دقائق خرج المدير بورقة ووقف أمام الجميع الذين أوقفهم عن العمل صوت الساعي ينادي:

- « ركسوا يا اساتسة شوية ! «

كنت قريباً من المدير فألتفت عن شاشة الحاسب الآلي الحقير إليه، خلع النظارة من على أرنبة انفه وصاح

- هذا خبر سيء للجميع بمن فيهم أنا، يوجد من بيننا من خدم في هذه المنشأة منذ افتتاحها ومنا أيضاً من تم تعيينه من أيام قليلة، أريد أن أعلمكم بأنه صدر قرار بالخصخصة لهذه المنشأة لمستثمر أجنبي، ومن قرارات الخصخصة تسريح ثلاث أرباع الموظفين في كامل الادارات، مع الإبقاء على بعض مديري الإدارات، أنا آسف للجميع

أنهى كلامه بلا ذرة شعور لهؤلاء الموظفين في مكاتبهم يثبتوا وجودهم فيحللوا ما يأخذونه من الحكومة ليصرفوه على تعليم أبناؤهم وعلاجهم، بلا اهتمام للعمال الكادحين الذين حملوا فوق طاقتهم، بلا اهتمام لمن يعتمد على هذه الوظيفة كمصدر أول وأخير لرزقه، نعم قد يستحقوا ذلك لإتكالهم وعملهم غير المتقن ولكن مسؤلياتهم و .. وأنا ماذا عني ؟! كنت أحدثه عن أنني أريد دوراً أكثر أهمية في العمل، فطار كل العمل، وقفت لدقائق لا أستوعب ما تحدث به الرجل، لم أدرِ ما أفعل سوى أنني ركضت نحو مكتبه وفتحت الباب دون طلب الإذن وصحت به:

- نحن لسنا لعباً صغيرة في أيديكم توظفونا وتطردونا متى شئتم، يمكنك أن تحدث ذلك المستثمر عن أن المنشأة لن تسير إلا بهؤلاء الموظفين في الخارج، أن حياتهم كلها تعتمد على القروش التي يقبضونها آخر الشهر

تحدث الرجل بهدوء وقال:

- كيف أخبرهم بأن المنشأة لن تسير إلا بكم ؟! وقد عجزت عن إقناعهم أن المؤسسة لن تسير إلا بي مديراً لها

قام من مقعده وتحرك نحوي يقول:

- اسمع ؛ انت لازلت في مقتبل شبابك، أمامك الفرصة لتبحث عن عمل جديد، هل فكرت في الذين تخطوا الأربعين والخمسين عاماً، هل فكرت في أبنائهم الذين يريدوا التعليم أو الزواج، إن كنت تعتقد أنك وحدك من تفكر فيهم فأنت مخطئ، أنت لا تفكر إلا في مصلحتك، ولو كنت أنت من المستثنين من قرار الإقالة، لما وقفت أمامي الآن تطالب بالحقوق

استوقفته عن إكمال حديثه:

- لا غير صحيح ما تقول، كنت اعتـ ...

- صحيح أم غير صحيح، لا يهم الآن ما يهم هو أنني وأنت بتنا في الشارع ولا أحد يمكنه تغيير هذا الأمر، تفضل

بلا حديث رحلت، ليس من مكتبه وحسب بل رحلت من الشركة كلها، يتردد كلام الرجل في أذني، أحدث نفسي وأنا أجمع أشيائي من على المكتب اللعين، في كلامه حزن، لا على نفسه بل على الموظفين معه، أو علي أبناءه سمعت أن له بنتان في سن الزواج، ليس كما كان يتحدث الناس عن إنه لا يرحم الموظفين الأقل منه لأنه متكبراً ويتصيد الأخطاء، على كل حال علي التفكير فيما سأفعله أنا

عدت بلدتنا قبل ميعاد عودتي بثلاث ساعات، بررت لأمي ذلك بأنني على موعد مع رانيا لذا قررت الخروج باكراً، إن ضاعت الوظيفة فلا وقت للحزن عليها، كما أنني لا يمكنني نقل حزني هذا إلى أهلي ومن حولي، أشعر بذلك أنني أمدهم وأضربهم بسياط حارقة بدافع حبهم، لا أتحمل أن يحزن أحداً بسببي، ولعلها عيب وليست ميزة، إذ تكوم حزناً وراء حزن في قلبي وفقدت القدرة على إزاحته بعيداً بإخبار أي أحد عنه

***

(١٢)

في وقـت متأخـر مـن نفـس اليـوم - الخميـس - والـبرد كان قارسـاً وصلـت إلى منـزل رانيـا فوجدتها جالسـة جاهـزة نظـرت لهـا فقالـت:

- لماذا كل هذا التأخير يا منصور؟

- المواصلات هي سبب التأخير

- كل صديقـاتي ذهبـوا للحفـل منـذ زمـن كل واحـدة منهـم مـع خطيبهـا أو زوجهـا وأنـا لازلـت انتظـر خطيبـي كـي نذهـب

- أنـا آسـف، هـل سـنزيد التأخـير بكثرة الـكلام هـذا ؟، هيا

دخلـت مكتـب د.رشـاد فوجدتـه واضعاً رأسـه عـلى المكتب ونائـم فانصرفـت بهـدوء حتي لا أزعجـه، لا تعلـم رانيـا حتـى الآن إنـه مريـض بالسرطـان، كنـت أذهـب معـه إلى المستشـفي

وعندما تسألنا رانيا يخبرها بأننا كنا في الجامعة نستكمل أبحاثي، على كل حال تشابكت أيدينا بهذه الحركة المألوفة على المخطوبين والغريبة على المتزوجين ونزلنا إلى الشارع الذي سنتمشي فيه مدة خمس دقائق فقط حتى نصل إلى شارع اسمه شارع المطاعم والذي - للسخرية - لا يوجد به مطعم واحد، نسير فيه قرابة الربع ساعة وفي آخره ننحرف يميناً ونكون قد وصلنا إلى قاعة حفل الزفاف، لا تزال هناك غصة في حلقي، لم نتحدث كثيراً فأحاول إخفاء الأمر عليها ولكن المرء لا يقال من وظيفته كل يوم، فمن الطبيعي أن يستشعر من حولك كم الحزن الذي تحمله، كادت تسأل لولا أن وصلنا القاعة التي تشبه قاعة مؤتمرات لا أعلم لماذا يبزر هؤلاء الناس أموالهم في هذه الأماكن وفي بلدتي ينام الناس حتى ينتصروا علي الجوع في أحلامهم، تعطلنا صديقات رانيا عن صعود السلم وفي النهاية .. وصلنا ..

الجو خانق وضبابي وبعض الشباب يرقصوا وسط القاعة على أنغام الأغنية التي اشتهرت سريعاً لذلك المطرب الغريب الصغير الذي اشتهر سريعاً أيضاً، إنها المرة الأولى التي أحضر فيها حفل زفاف أهل المدينة، ربما تكون المرة الأولي التي أحضر فيها حفل زفاف بشكل عام،

لم أندمج معهم ليس لأنني لا أعرف أحداً منهم فقط بل أيضاً لأن هذه المظاهر ليست بيئتي الطبيعية، الأمر أشبه ما يكون بوضع سمكة المياه العذبة في حوض مياه مالحة، لا عيب على السمكة إذا ما نفقت ولا عيب على الماء إذا قتلها ولكن كل القصة إنها ليست بيئتها، وأنا لم أعتد على جو أبناء القصور والمنتجعات والشركات، شباب من نفس سني تقريباً من المفترض أنهم أبناء أغنى أشخاص في مصر يرتدون ملابس مُرقعة كأنهم أولاد المشردين، تذكرت الفارق الشاسع بين الأغنياء أنفسهم، فعندما حضرت في مؤتمر تم تكليفي بتمثيل الادارة فيه تحدث أمامنا أناس نحسبهم من الأغنياء والناجحين في بلدنا كانوا يتحدثوا بكل احترام وملابسهم غاية في الأناقة والاحترام، أما هنا فلربما هؤلاء الراقصون أمامنا أغنى وأبناء أنجح الشخصيات في مصر ولكنهم متخلفين عقلياً، وفي دقيقة تذكرت شعوري في المؤتمر الذي كان يخبرني بأنني أقل شخص فيه، وأقارنه بشعوري هنا الذي يخبرني بأنني ربما أكون أفضل شخصاً ها هنا، هؤلاء الشباب لا يدرك ما يحدث حولهم، ربما لا يعلموا الاحتلال الأمريكي للعراق، ولا ما يحدث في دول الجوار الآن، إلى أي مدى ضعنا ؟!، على كل حال أكتفينا بالجلوس على إحدى الطاولات وبجواري رانيا تتحدث ولا أسمع منها شيئاً فأهز رأسي إشارة أنني أوافقك على

كل كلمة ولكني لا أسمع بالأساس، حتى دنت من أذني وقالت بأعلى صوت لها:

- نحن لا نسمع بعضنا البعض هنا دعنا نذهب إلى الشرفة

وأشارت بيدها إلى الشرفة التي لحسن حظنا لا يوجد بها أحد وبابها الزجاجي سيخفف من حدة الصوت، فقمنا متجهين إلى هناك .... ثم فتحنا الباب فنشعر بضغط الهواء ونغلقه فلا نسمع من تلك الأغاني الوضيعة إلا إيقاعاً خفيفاً

جلست على حافة الشرفة ورانيا تستند بيدها عليها بجواري

- متى دورنا ؟

- دورنا في ماذا !

- أنت تعلم في ماذا ... زواجنا

- أنا قلت لكي أنا جاهز من الآن ولكنك لا توافقي على أن تعيشي معي في بلدتي وقلت لكي أيضاً أنها ستكون عيشة مؤقتة ثم سننتقل لنعيش هنا

- أنـا لـن أغـادر هنـا لأعيـش هنـاك .. آتـرك المدينـة لأعيش في الأريـاف مـع الفلاحـين يـا منصور

نزلت من علي حافة الشرفة وقلت بلهجة عالية:

- أولاً مـا العيـب في الحيـاة في الأريـاف بصـورة مؤقتـة إذا أعتبرنـا أصـلاً إن بلـدتي مـن الأريـاف بالمعنـى الـذي تعنيـه ثانيـاً هـؤلاء الفلاحـين هـم أصلنـا فلـماذا هـذه الأنفـة في الكلام ثالثـاً غـيري نـبرة كلامـك هـذه وتكلمـي بصـورة أحسـن

- وما في طريقة كلامي أنا لن أعيش إلا هنا

- حسـناً وأنـا لـن أرفـض طلبـك ولكنـي لـن اضغـط عـلى نفـسي أكثـر مـن ذلـك حتـى اشـتري بيـت أو اسـتأجر شـقة يمتـص إيجارهـا مرتبـي ... إذا كان موجـوداً أصـلاً

- ماذا تعني إذا كان موجوداً أصلاً؟

- .... لا تغـيري الحديـث في أمـور فرعيـة، عليـكِ أن تنتظـري إلى أن يتحقـق ذلـك

- إلى متـى سـأنتظر يجـب عليـك أن تعمـل في مـكان آخـر بجانـب عملـك الحكومـي هـذا

كـدت أضحـك، فكـما فعلـت أنـا، تفعـل هـي، فعندمـا طلبـت مـن المديـر دوراً فعـالاً تـم تسريحـي مـن العمـل،

وعندما تطلب هي أن أعمل بجانب عملي الحكومي أكون قد فقدته، يا لسخرية القدر!

- وهل أنتظر كلامك هذا، على العموم لو كنت أكتفيت بمرتبي الحكومي فلن نتزوج أبداً

- لكن بهذه الطريقة سنتزوج بعد عشرة أعوام سنكون عجا ئز

- ماذا أفعل، كل شيء فعلته، اذهب لوظيفتي صباحاً وأعود لأعمل في الورشة ثم أكمل أبحاثي واذهب مع أبيكي إلى ... المهم دبريني أنتِ، من أين لي بالوقت الكافي؟!

- لا أعلم، ربما تتخلى عن ذلك الوقت الذي تضيعه في أبحاثك تلك وتصرف نظر عن اجتماعك الكثير بأبي وتجد عملاً في هذا الوقت

- أضيعه في أبحاثي تلك، أنتِ من يقول ذلك؟

بصراحة ضايقني ذلك كثيراً ففي اللحظة التي يستهان فيها بتعبك قد تفقد صوابك فتهشم رأس من أمامك، ساد الصمت بضع دقائق ثم قررت في ضيق ،أن أخبرها بالحقيقة

– علـى كل حـال سـيصبح لـدي الكثـير مـن وقـت الفـراغ الفـترة المقبلـة

لفتت وجهها إلي وقالت:

– ماذا تقصـ ..

قاطعهـا دخـول عـدد مـن الفتيـات إلى الشرفـة، فقبـل أن تتحـدث سرت ناحيـة البـاب قائـلاً:

– هيا بنا حتى لا أتأخر في المواصلات

كانـت السـاعة العـاشرة مسـاءً، قمنـا فشـبكت يدهـا بيـدي وخرجنـا مـن الشرفـة فابتسـمت وهـي تلـوح لزميلاتها حتـي لا تُشـعر الفتيـات الأخريـات بأنهـا متضايقـة مـن خطيبهـا .. غُربـاء، وقفـت عـلى بـاب القاعـة فقلـت لهـا في ضيـق مـع الحـرص إلا انظـر لهـا، وهـذا مـا يجعلنـا غُربـاء أيضـاً

– هيا حتى لا نتأخر أكثر

لم تـرد – وهـذا مـا يضايقنـا – وإنـما مشـيت فقـط ورائـي ثـم دخلنـا هـذا الشـارع اللعـين « شـارع المطاعـم « الـذي في نهايتـه عـدة تفرعـات منهـا تفـرع في آخـره منـزل رانيـا، كان شـبه فارغـاً مـع إضـاءة خفيفـة وجـو مشـجع عـلى الجريمـة، وفي بدايتـه وعنـد محـل بقالـة شـبه صغـير والناحيـة الأخـرى

البنك شعرت بسيارة تمشي ببطء كما لو كانت تمشي معنا فألتفت لأجد سيارة مكشوفة بها ثلاث شبان هم رمز لفشل الوالدين في التربية يرتدون سلاسل وقمصان رقيقة تشبه « بلوزات « الفتيات ولما قال أحدهم بلغته العامية البغيضة أيضاً كما ذكرت هي ما تناسب البلطجة

- نريد هذه الفتاة « نفض لنفسك «

وعلى الفور توقفت فنزلوا من السيارة مرتدين بناطيل مقطعة مُرقعة لا تناسب مظهر السيارة الفارهة فأصبحوا لا رمز لفشل الوالدين فقط بل صاروا رمزاً لفشل المجتمع بأكمله، وظلت رانيا تجذبني وتأن لكي نرحل ولا نجلب المشاكل، غالباً نحن لا نجلب المشاكل بل المشاكل هي من تجلبنا لنحلها

- اتركها وسوف نتركك

وقف المتحدث - والذي كان يقود السيارة والذي يبدو إنه أقل مستوى من الآخرين - ممسكاً بمطواه فتناولها منه فتى آخر كان المتحدث الأول وأخذ يلفها بيده كأنما ينتظر إجابتي عليهم، ورانيا تجذبني من جديد

- سأتركها ولكن هل تظن أنني سأترككم أنتم

تحـرك الفتـى نحـوي ومـن خلفـه أتـى الآخـران فدفعـت رانيـا بعيـداً وفي الحقيقـة أنـا أخشـاهم فكنـت أدرك أننـي لم أعـد هـذا الفتـى الهزيـل الـذي أبرحـه جـاد وجماعتـه ضربـاً، فلـم أخـف منهـم وبـدأ النـزال وسرعـان مـا سـمعت صرخـات النـاس، هـذا الرجـل صاحـب المحـل جوارنـا يـصرخ بالطبـع يخـاف عـلى محلـه أكثـر منـا ولـو أن هـذه المشـاجرة حدثـت في مـكان آخـر فسـيوفر عـلى نفسـه عنـاء الـصراخ

كانـت كل الضربـات منـي في وجوههـم ولم أتلـقَ منهـم ضربـة واحـدة قـط ولسـت أقـول ذلـك عـلى سـبيل الشـجاعة ولكـن هـذا مـا حـدث، توقـف تاكـسي ونـزل منـه سريعـاً ا.يـاسر مـن جـيران رانيـا في العـمارة وأيضـاً قريبهـا فاخـذ يهـدئ مـن المتشـاجرين وفي نفس الوقـت يسـألني مـاذا يحـدث وأنـا لا أرد فأنـا مشـغول في « عجـن « هـذا الفتـى وضرب ذاك حتـى ألتفـت إليـه واحـد منهـم فـما إن نظـر لـه وجـدت التاكـسي يسـير بسرعـة .... جبـان هـرب

ولكـن المشـكلة دائـماً تحـدث، المشـكلة هـي أن أي أمـر لا يمـر كـما نتصـوره دائـماً، في معظـم الأوقـات نحـن ننتـصر تـارة ونغلـب تـارة، وهـذه مشـكلة ولكـن المشـكلة الأكـبر أن تكـون التـارة التـي ننهـزم فيهـا هـي آخـر تـارة لنـا، ولا فرصـة للتعويـض

الفتـي يخـرج سـكيناً مـن السـيارة بعدمـا أطحـت مـن يـده المطـواة وجـاء يجـرى نحـوي وفي نفـس الوقـت هجـم شـخص آخـر عـلى مـن الخلـف فقيدنـى وأصبحـت غـير قـادر عـلى الخـلاص، بـطء الموقـف يجعلـه بضـع مشـاهد مختلفـة يتذكرهـا عقـلي :

مكتـوف اليديـن، شـخص ممسـك بسـكين عـلى وشـك أن يغرسـه في قلبـي وشـخص ثالـث خلفـه مشـغول بالدمـاء التـي سـالت مـن أنفـه و رانيـا ... رانيـا تـصرخ تسـتنجد في كل الناس أن يتدخلـوا في صاحـب المحـل وفي ذلـك الرجـل الـذي يرتـدي الـروب ويقـف عـلى بـاب العـمارة مكتفيـاً بمقعـد المتفرجـين، صورتنـا عـلى زجـاج بـاب البنـك أمامنـا يقطعهـا القضبـان الفولاذيـة، أتذكـر أن هنـاك كامـيرا مراقبـة تابعـة للبنـك ربـما تصـور كل مـا يحـدث الآن، يسـير كل شيء ببـطء شـديد، وهـا هـي السـكين تقـترب وتقـترب ثـم ... أدور بجسـدي ١٨٠ درجـة حامـلاً مـن خلفـي في آخـر لحظـة ولكـن ... لحظـة ... هـذا معنـاه أن .. أن ....

***

(١٣)

بدأت اليد محكمة الغلق في الانسياب ثم سقط من كان ممسكاً بي سقطة أجزم أنه لن يقوم بعدها أبداً

قتل الشاب صديقه ولكنهما يهربان .. يهربان ويتركان صديقهما الذي توقف صدره عن الحركة وفي هذه اللحظة بطيء العرض السينمائي الذي كنا فيه، الشابان يهربان، صاحب المحل يقذف بعلبة داخل المحل ليغلقه عليها، وهذا الرجل الذي وقف واضعاً يديه على فمه من الصدمة، أما رانيا فقد كانت تجذبني ولم أكن في وعيي كفاية حتى أتمكن من ترك يديها فظللت ممسكاً بها حتى غادرنا شارع المطاعم أوصلتها لبيتها وكنت سأمشي فأمسكت بيدي وضغطت قائلة:

- لا تمر من هذا الشارع مرة أخرى أرجوك وعد إلى المنزل وكأن شيئاً لم يكن، حسناً

- حسناً

قلتها في صدمة كفيلة أن ترسم على وجهي البلاهة، نزلت وسرت من شارع آخر غير ذلك ووصلت البيت أمي نائمة ومروة في حجرتها تذاكر إذن كل شيء على ما يرام سأنام الآن وسأحلم ولن افكر في هذا مرة أخرى ..

ولكن الأحلام قد تكون في الحقيقة أيضاً والحلم هو ما حدث هذه الليلة وهو ليس حلماً بقدر ما هو كابوس لا أين هو هذا النوم لمَ لم يأت بعد؟، هذا السهر سيجعلني أفكر فيما حدث وهذا ما لا أريده، على كل حال نمت بعد صلاة الفجر واستيقظت فلم أشعر بما كنت أشعر به من قبل ولكن شعور أن هذه الحادثة لن تمر مرور الكرام بل ربما ستغير حياتي بسببها لا يتركني، حضرت نفسي للذهاب إلى العمل، فتذكرت أنه الجمعة ولا يوجد عمل اليوم ولا أي يوم آخر، بحثت عن المحفظة فلم أجدها، هل ضاعت أم أن أحدهم سرقها، من سرقها سيتفاجيء أن بها عشر جنيهات وبطاقتي وصورة فتاتين هن أختي وخطيبتي، وأن لدي بطاقة أخرى فلا مشكلة ولكن هل تكون قد ضاعت، لوهلة خطر في بالي أن تكون وقعت

منـي أثنـاء المشـاجرة ليلـة أمـس، فتمنيـت أن تكـون قـد سرقـت أو ضاعـت في أي ثقـب أسـود في الكـون أو أي مـكان في هـذا الكوكـب إلا مـكان تلـك الحادثـة، عـلى كل حـال مـر يـوم الجمعـة بخـير، ولم يحـدث شـيئاً يثـير الريبـة، حدثـت رانيـا واطمأنـت عـلي ولا داعـي للقلـق، خرجـت يـوم السـبت في ميعـاد العمـل الطبيعـي حتـي لا تشـك أمـي في شيء يجـب أن أبحـث عـن عمـل جديـد، لـذا فمـن الأفضـل أن آخـذ أوراقـي معـي، ولنـرى إن كانـت هنـاك وظيفـة لنـا بـه أم لا فأعـود ببراويـز لأعلقهـا في حجـرتي

بحـث ثـم بحـث، بحـث فبحـث، رفـض ورفـض إعتـذار وأسـف وتأجيـل ونفـي واسـتنكار، مـع كل رفـض أتلقـاه أريـد بشـدة تهشـيم رأس ذلـك الغبـي الـذي أقنـع ابنـه بـأن الوظيفـة الحكوميـة أكثـر أمانـاً مـن أي وظيفـة في العـالم، انتهـى هـذا اليـوم وعـدت إلى المنـزل في ميعـاد عـودتي مـن العمـل الفـاني ولكـن هـذه المـرة مـع خيبـة أمـل كبـيرة، وعندمـا قاربـت مـن البيـت وجـدت الأضـواء الحمـراء والزرقـاء تمـلأ المـكان أمـام منـزلي ... نعـم هـذا مـا أخشـاه

ضابـط ينـزل مـن منزلنـا و وراءه مـروة وأمـي هرعـت إليـه فاسـتوقفني عسـكري جذبـاً، فتملصت منه فجـري وراءي ينادي حتـى وصلـت للعسـكري الممسـك بمـروة فدفعتـه عنهـا ثـم ..

ثـم تجمعـوا حـولي جميعـاً كـما تجتمـع الأسـود عـلى فرائسـها، فوجهـت وجهـي لأرى الضابـط يبـدأ بالـكلام:

- من أنت ؟!

- أنا منصور .. منصور الشرقاوي

فقال بلهجة ساخرة:

- ازددنا شرفاً يا رجل، أتركهما وكبلاه وهيا بنا

جذبـوني بشـدة لداخـل السـيارة وقبـل أن أدخـل أوقفتنـي يـد علمـت أنهـا يـد الاسـتاذ عـادل فتوجـه الضابـط لـه فنهـره:

- ومن أنت أيضاً ؟

- أنـا جـاره وأسـتاذه وبمثابـة أبيـه ومـن حقـي أن أعـرف لمَ تأخذونـه معكـم؟

- حسـناً يـا مـن بمثابـة أبيـه أعتقـد إنـك سـتتبريء منـه حينـما تعلـم أنـه متهـم في قضيـة قتـل عمـد وخطـف فتـاة وأكثـر مـن ذلـك أنـا نفـسي لا أعـرف تنـح جانبـاً، هيـا

ادخلـوني السـيارة وتنحـى الأسـتاذ عـادل ناظـراً إلى وفي نظرتـه شيء يقـول لا، أنـا لا أصـدق هـذا، هـذا مسـتحيل

طوت السيارة الطرق وراءها سريعاً وما لبثنا أن وصلنا قسم شرطة منطقتنا ولم نلبث به كثيراً إذ عدنا إلى السيارات مرة أخرى وفضلاً عن أن النوافذ مغطاة بنوع من الستائر السوداء فقد غطوا وجهي فبات معرفة أين نذهب مستحيلة، ولا أعلم كيف ؟ ولكن غلبني النعاس في كل هذه الظلمة التي تجعل غلق العينين أو فتحهما سواء

وفجأة دون سابق إنذار .....

تنهال علي مياه باردة لحد تقارب فيه التجمد كانت كفيلة بأن تجعلني انتفض صارخاً:

- أين أنا ....

ثم تقدم نحوي رجلاً يرتدي زياً مدنياً غير الآخرين فقال:

- لا تقلق أنت في مأمن، وألتفت لمن حولي وقال :

- فكوه واجلبوه وراءي

وسرعان ما وجدت نفسي حراً من قيود هذا الكرسي، سحبت من كلتا يدي لخارج الغرفة ثم ممر طويل ثم سلم ثم ممر أطول فغرفة نظيفة أخرى ادخلها وراءه

- اجلس يا منصور، لا عليك، مما أنت خائف؟

جلست بعدما جلس وقلت:

- لمَ أنا هنا أنا لم أفعل أي شيء على الإطلاق

- ولكــن مــاذا فعلــت ليلــة الخميــس قبــل أمــس في شــارع المطاعــم

- هذا الشاب أقسم بالله العظيم لك أنا لم اقتله

- أعلم ذلك ولكن بـ ...

وهنــا يُفتــح البــاب بقــوة ويدخــل رجــلاً أبيــض الشــعر مرتديــاً بدلــة ســوداء يقــول لــه في غضــب:

- هــل مازلــت تتناقــش معــه ؟، إن الموضــوع منتهــي ســواء رضى أم لم يــرضَ لا وقــت يــا حــضرة الضابــط

ثم ألتفت إلي وقال:

- قم، هيا قم ووقع على هذه الأوراق

- ولكن ما هذه الأوراق أنا لن أوقع على شيء لا أعرفه

هــدأ الرجــل بصــورة غريبــة كأن تــم تخديــره فألتفــت يقــول للرجــل الأول:

- وليد، فلتتركنا وحدنا بعض الوقت قليلاً

فخرج الرجل دون أي تعليق:

- حسناً سأطلعك على ما نريد، أتعلم أن من قُتل بالأمس هو شريف ابن نائب مجلس الشعب عبد الكريم عز العرب وهل تعلم أن القاتل هو أكمل ابن وزير الداخلية سمير السيد بكل صراحة ووضوح هكذا وكل ما نريده منك هو توقيعك الكريم على هذه الوريقات ولك ما تشاء، أي شيء تريده سوف يكون

أخذت الملف منه وقرأته سريعاً ثم اكتشفت إنه أقوال محضر غير واقعية وملفقة بالكامل فهي تقول أن القاتل - وهو أنا - قتل من أجل فتاة تركته وخطبها المجني عليه فتربص له - أقصد تربصت أنا له - فقتله ثم خطفت هذه الفتاة التي اسمها رانيا - التي هي خطيبتي أنا في الأصل - فألقيت الملف على المكتب وقلت:

- ما هذا الهراء أنا أريد الخروج أريد العودة فأنا غير متهم بشيء يجعلكم تبقوني هنا

- كل ما عليك أن توقع فقط على هذه الأوراق وتسجن ثلاثة أعوام وتخرج تجد وظيفة أفضل من تلك الحكومية بل ستجد لك مالاً يكفي لتفتح شركة صغيرة

- وكل هذا من أجل أن يخرج منها ابن الوزير، صحيح ؟

- إذاً دعنا ننهي المسألة موافق أم لا ؟

صرخت في وجهه:

- لا وهل كنت سترضى أنت بهذا العرض؟

قام غاضباً فصفعني فمسكته من بدلته وهو عجوز أصلاً فكدت أن أقتله لولا أن تدخل الضابط فضربني بشيء ما على مؤخرة رأسي فتغيرت الدنيا من حولي، بين إفاقة وإغماءة أدركت أن العساكر تجرني مرة أخرى إلى الغرفة الأولى التي كنت فيها من قبل

- هنا ستتعلم كيف تعامل أسيادك جيداً

سمعتها من صوت ما ورائي لم أميز من صاحبه، ادخلوني الغرفة المظلمة التي أحتلها البرد القارس والرطوبة فألقيت على ظهري فيها وخرجوا وتركوني كنت أرتدي ملابس رقيقة نوعاً ما فبمجرد مرور خمس دقائق لم أشعر بأطرافي وأصبحت أشعر أنهم بُتروا، هذا الجو لا يحتمل، انتظمت مصادر الضوء الخافتة أمامي وقل ارتعاشها أ وتوقفت رأسي عن الدوران، لا أعلم ما المدة التي أخذتها لذلك ولكني شعرت كأن دهراً مر علي في حالتي تلك، وبعناء شديد قمت من نومتي على الأرض وتحسست أرضية الزنزانة الباردة في الضوء شديد الخفوت

- لماذا يحدث كل هذا معي لماذا، ترى كيف حال مروة وأمي ورانيا ود.رشاد، ليتني أعرف

ظللت أجوب أرجاء الزنزانة باحثاً عن أي شيء أجده غير هذه الأرضية الأسمنتية الصلبة فلم أجد فاكتفيت أن أتكوم في ركن من أركانها الأربعة التي تسرب ضوء القمر من النافذة الصغيرة ليسقط على هذا الركن إلى أن يحدث شيئاً جديداً، غلبني النوم رغم حالتي

أستيقظت على أشعة الشمس تلفح جسدي فوقفت بجوار النافذة التي قطعتها قضبان الحديد عدة أجزاء

هذا إذاً هو شعور السجين الذي أذنب ورمي في مثل هذه الحفرة ولكن ... أنا لم أذنب، أنا لم أذنب ..

فتح باب الزنزانة بصرير بغيض لأجد هذا الرجل أمامي مرتدياً نفس البدلة السوداء فقال بينما أحاط بي بعض العساكر:

- للمرة الثانية يا منصور أكرر عرضي ولا أريد منك سوى أن تقول نعم أم لا ؟

- لا

- حسناً أنت اخترت الطريق الصعب

وأشـار بيـده للعسـاكر مـن حـولي ثـم ... انهالـوا بالـضرب عــلي في كل منطقــة مــن جســدي حتــي رأسي وضــع ذلــك الرجــل قدمــه عليهــا وهــو يقــول:

- سيظلوا يضربوك هكذا حتى توافق

وأكملـــوا ضرب وجســـدي أكمـــل نـــزف دمـــاؤه حتـــى اوقفـــوني

- كل هذا سينتهي لو وافقت ووقعت على هذه الأوراق

- لا

فتخـلى عــن شـيخوخته وضربنـي بقدمـه في بطنـي فخـرج الــدم مــن فمــي وســقطت عــلى الارض لا أشــعر بــأي شيء في جســدي، أغمــي عــلي ولم أشــعر بعدهــا مــاذا حــدث، عــلي الأرجــح تركــوني نائــماً في مــكاني الــذي اســتيقظت في اليــوم التـالي بـه، كان هـذا الرجـل الـذي لم يغـير بدلتـه السـوداء حتـى الآن يقـف بجـواره ذلـك الضابـط الـذي اسـمه وليـد

- هل غيرت رأيك ؟

قالها العجوز فعدلت جلستي وبسخرية قلت:

- عندما تغير انت هذه البدلة

ولم يكـد ينظـر لمـن حـولي حتـي بـدأت جولـة الـضرب المكـررة هـذه ولمـا فرغـوا كنـت قـد فقـدت وعيـي مجـدداً وفي اليـوم الثالـث استيقظت في نفس الزنزانـة ولكـن عـلى سريـر وعـلى جسـدي الكثير مـن الضـمادات ووليـد هـذا يجلس عـلى مقعـد بجـواري ربـما ينتظـر استيقاظي فقـال:- ألـف سـلامة



(١٤)

- .. هـذه الضـمادات سـتعوق عملكـم فكوهـا حتـى تبـدأوا جو لتكم

- لا لقـد تعبنـا مـن ضربـك وقدرتـك عـلى التحمـل عاليـة وسـيتحمل جسـدك الـضرب أمـا روحـك فضعيفـة لـن تتحمل الـضرب، ساسـألك السـؤال الـذي تعرفـه ولا أريـد إجابتك إلا بعـد سـماع هـذا الصـوت

وأشـار بيـده لمـن يقـف عـلي البـاب فسـمعت صـوت فتـاة تـصرخ وتسـتغيث

- منصور يا منصور ...

انتفـض قلبـي لمـا سـمعتها فقمـت نازعـاً الضـمادات مـن عـلى جسـدي وركلـت وكيـل النيابـة وضربـت ذلـك الشـخص الواقـف عـلى البـاب وفتحـت البـاب الـذي كان

مواربـاً فوجدتهـا ... مـروة البنـت اليانعـة يمسـك بيدهـا أحـد الأشـخاص ليجعلهـا تتـألم وتـصرخ مـن الألم ولا مفـر مـن إنقاذهـا لـو تطلـب الأمـر مـوتي فهرعـت إليـه فمسـكت بـرأس هـذا الرجـل وظللـت أضرب وجهـه حتـى غطـاه الـدم فبـدأت أخنقـه غـير مبـالي بـكل الضربـات التـي تتسـاقط عـلى جسـدي الـذي صـار مكسـواً بالدمـاء حتـي جـاءوا جميعـاً وأمسـكوا بي وصـل عددهـم ـــ لمـا عرفـت بعد ذلـك مـن مـروة ـــ إلى أربعة عـشر رجـلاً، كنـت في حالـة تجعـل مـن أمامـي في موقـف لا يحسـد عليـه ،لقـد مـس هـذه النقطـة الدفينـة في كل إنسـان منـا هـذه النقطـة التـي إذا عبـث بهـا أحـد فيسـتحق المـوت مـن صاحبهـا هـذه النقطـة هـي الـروح وروحـي كانـت أسرتي واسـتطاع أربعـة عـشر رجـلاً بالـكاد منعـي مـن قتـل ذلـك الرجـل وجـروني إلى داخـل الزنزانـة وأجلسـوني عـلى الكرسـى الـذي كان يجلـس الضابـط عليـه وقيـدوني بـه ووقـف أمامـي وليـد يمسـك برأسـه وقـد سـالت بعـض الـدم مـن أنفـه فقـال:

– أتريـد أن تمـوت هنـا، أنـت لا تخـاف مـن المـوت ولكـن بالتأكيـد سـتخاف مـن مـوت أختـك او أمـك

وبعد أن هدأت أجبته ساخراً:

– يبدو أن أحداً ما ضربك، ما هذا الدم على أنفك؟

فجـن جنـون الرجـل فصفعنـي وركلنـي بقدمـه فسـقط للـوراء بالكـرسي وبعـد أن أقامـوا الكـرسي مـرة أخـرى قـال:

- سأقتلها، سأقتلها أمام عينيك

وبنظرتـه التـي تـكاد تخـرج النـار مـن عينيـه أمـر بـأن يحضروهـا هنـا وجـاءوا بهـا كانـت غارقـة في الدمـوع مكبلـة يداهـا تـود لـو أن تكـسر تلـك القيـود لتـأتي إلي

- هل ستوافق الآن؟

ووجـه مسدسـه عـلى رأسـها ناظـراً إلي وفي الحقيقـة الوحـش الـكاسر أمـام الآخريـن هـو شـخص ضعيـف جـداً أمـام أهلـه فلـم أجـد بـد لكـي أرفـض لا أود أن أرى أختـي جثـة هامـدة أمامـي وهـي في ريعـان شـبابها

- موافق سأفعل ما تريدون

- هذا هو الكلام، توافق دون أية مراوغات أو عصبية

- ولكن بشرط

ثـم دخـل رجـل البدلـة السـوداء قبـل أن يتحـدث وليـد كأنـه كان يختبـأ فقـال:

- سـتكون أختـك وأمـك في رعايـة تامـة ولـن يمسـهم أحداً بسـوء حتـى جـاد لـن يتعـرض لهـن، كل هـذا مادمـت توافـق

دون مراوغة، المحكمة بعد غد نريدك أن تتحلى بالصبر فالمتفق عليه أنك ستدخل السجن ثلاث أعوام فقط ثم تخرج فتجد حياة أجمل بكثير حياة لن يرغمك فيها أحد على شيء هذا هو المحضر، هيا وقع عليه الآن

حملت القلم بيدي اليمنى التي فك وثاقها الضابط أثناء تحدث ذلك الرجل وبلا تفكير وقعت لعدة أسباب، وقعت على هذه الأقوال الدرامية دون تردد يذكر

أولاً حتى تخرج مروة من هنا بسلام، ثانياً لأنني أخطط أن أفضح هذا السر أمام القاضي، ثالثاً رانيا وصاحب المحل وساكن العمارة الذين سأطلب شهادتهم سوف تدعم موقفي، رابعاً الكاميرا أمام البنك ستظهر الحقيقة التي لا يستطيع أحد إنكارها، بعد غد المحاكمة، بعد غد تنتهي لعبتهم

***

جاء يوم المحاكمة، وأنا على علم ببراءتي وعلى علم بأن الشهود في صالحي وأنهم كانوا أغبياء عندما ظنوا أنني باعترافي على نفسي قد مكنتهم من رقبتي، حمقى لقد نسوا الشهود وكاميرا المراقبة، على كل حال دخل القاضي في وقار بعد صيحة الحاجب بالكلمة الأشهر:

- محكمة

بدأ القاضي بحمد الله وقول العدل أساس الملك، وهذا طمأنني بأنه سيكون قاض عادل بإذن الله، أمي وأختي في الجانب مني ولكني لم ألحظهن ولم يلحظونِ للمرة الأولى فأشرت لهن فنظرت أمي إلي بثبات ومروة بجوارها تبكي، أعلم وأسمع وأشعر بما تتمتم به أمي من تحت نقابها ن هي بالتأكيد تقول أن علي الصمود ودعوة الله الحفيظ وإن الله هو الحامي من المكاره الذي لو أجتمع كل البشر على إنفاذها ما نفذت إلا بأمره، أهز رأسي أن اطمئني يا أمي أعلم كل هذا، وقف وكيل النيابة يتشدق بالكلمات ويضعط على مخارج الحروف، ربما أخطأ بعض الأخطاء اللغوية، لكن كل كلامه خطأ على أية حال، فما ينبغي التدقيق على بضع كلمات مرفوعة ينصبها أو العكس، كل هذا سينتهي حتماً سينتهي، وبين كلامه الذي سمعته قبل الذي يقوله الآن نفسه تطرقت إلى النظر في الحاضرين، رانيا تجلس هناك بعيداً عن أمي ومروة، الدكتور رشاد ليس بجوارها وليس في القاعة كلها، الأستاذ عادل بجوار سارة التي تجلس بجانب أختي مروة والتي لم ألحظهم في المرة الأولى، بعض أقاربنا يجلسون في حزن، حتى جاد بنفسه يجلس غاضباً مما يقوله وكيل النيابة،

انتهى ذلك الشاب المتغطرس من حديثه بالجملة المعروفة:

- وأطالب يا سيادة القاضي بتوقيع أقصى العقوبة عليه حتى يكون عبرة لمن تسول له نفسه أن يرتكب مثل جرمه

سادت الضوضاء القاعة لدقائق، ضوضاء تريد الفتك بهذا الرجل لافترائه وقوله بهتاناً وزوراً، يمنعها صوت مطرقة القاضي، قائلاً:

- هدوء لو سمحتم، فليتقدم الدفاع

قام الدفاع، كان رجلاً غريباً لم أعرفه، ومن علامات الاندهاش من أمي وأختي أدركت أيضاً أنهن لا يعرفوه، غير تاركاً لنا مساحة للتفكير فيمن وكله قال:

- سيدي القاضي حضرات المستشارين، لدي أدلة كثيرة على براءة منصور لا أريد ذكرها ولكني سأذكر أهمها، كيف نحتاج دليلاً سيدي القاضي ووجه منصور البريء هذا هو أكبر دليل على أنه لم يفعل شيئاً، هذا الوجه السمح، أيعقل سيادة القاضي أن يكون هذا الوجه البرئ قاتلاً، أيعقل ؟!

- ماذا تقول يا أستاذ، هذا ليس دليلاً مادياً، أعطني دليلاً يفيدني في هذه القضية

صمـت قليـلاً كأنـما يتذكـر شـيئاً مـا قـد نسـيه أو قـد تناسـاه وقال:

– آه ... الكامـيرا، نعـم الكامـيرا الخاصـة بالبنـك أمـام الواقعـة

– ورد بالفحـص الجنائـي أنهـا لم تصـور شـيئاً، ألم تقـرأ الفحـص الجنائـي يـا اسـتاذ ؟!

– لا لا قرأته، قرأته ... اطلب شهادة الشهود

ثم عاد لمكانه، وسط دهشتي ودهشة أتباعي، إلا رانيا

– نادي على الشهود بالترتيب

يثور بركان حنجرة الرجل الضخم

– الشاهد الأول ،ناصر محمد علي

دخـل رجـل أنـا أذكـر جيـداً إنـه هـو مـن كان يرتـدي الـروب أثنـاء الحادثـة، هـا قـد بدأنـا في إنهـاء هـذه اللعبـة، حلفـه القـاضي بـالله العظيـم بقـول الحقيقـة، فقـال في جفـاف حلـق:

– أقسم .. بالله العظيم ... أقول الحق

– هل حضرت الحادثة وشاهدتها كاملة ؟

- نعم، كنت أقف في شرفة منزلي، ثم هبطت إلى أسفل

- اروي لنا ما حدث بالتفصيل

- كنت أقف في الشرفة أراقب المارة، إلى أن وجدت فتاة تسير بجوار خطيبها

أستوقفه القاضي وأشار بيده ناحيتي وسأله إن كنت أنا فقال :

- لا ليس هو

نظرت ببلاهة حتى أنني شعرت أن الزمن توقف، كيف هذا، خرجت عن صمتي وقلت له:

- كيف أنه ليس أنا، أنا من كنت أسير بجانب خطيبتي

- لا تتحدث يا منصور، وأنت أكمل

- ثم توقف هذا الفتى الذي في القفص هناك بسيارته بجوارهما وأخذ يتحرش بالفتاة، ثم نزل من سيارته ليتشاجر مع الولد، وفي هذه اللحظات كنت قد هبط إليهم كي اهدأ الموقف ولكن قبل أن أصل غليهم كان هذا الفتى شاهراً سكينه ويسيل منه الدماء والفتى الآخر ملقى على الأرض غارقاً في دمه فتسمرت مكاني لا أعرف ماذا افعل ن ولكنه لم يكتفِ فجذب الفتاة إلى السيارة وراح يطوي

الشـارع وراءه بسرعتـه الجنونيـة، ولكـن محفظتـه سـقطتت منـه

– هل ألتقطت أرقام السيارة؟

– لا يـا سـيدي، فقـد نسـيت إرتـداء النظـارات قبـل أن أهبـط

– لديك أقوال اخرى

– لا سيدي، هل يمكنني الذهاب؟

أشـار القـاضي بيـده أن اخـرج ،وشـهرت أنـا يـدي للسـماء وبأعـلى مـا أملـك مـن صـوت:

– حسـبي الله ونعـم الوكيـل، أنـا لا امتلـك سـيارة حتـى، أنـا لم أقتـل أحـداً، عليـك الله يـا شـاهد الـزور

لعنتـه أمـي وسـبّه جـاد وبصـق عليـه عمـي، فعـل الجميـع شـيئاً ليعـبروا عـن اسـتيائهم منـه، إلا رانيـا

وبين الهتاف وطرقات القاضي نادى الرجل:

– الشاهد الثاني، يماني جمال حماد

دخـل ليهـدأ الجمـع منتظرين هـذا الرجـل بالعبـاءة والعمامة، كان هـذا صاحـب المحـل الصـارخ دومـاً، راهنـت عـلى إنـه ابن بلـد ولـن يقـول إلا الحقيقـة، وبعـد تحليفـه بقسـم الغمـوس،

شـهد زوراً هـو الآخـر، نعـم فقـد قـال مـا قالـه الرجـل السـابق بالنـص مـع تغيـير موضعـه فقـط، انهـال أهـلي عـلى الرجـل سـباً، ألقـى جـاد حـذاؤه عليـه فأمـر القـاضي بإخراجـه، فسـب جـاد القـاضي وقـال:

- منصور أشرف منكم يا ولاد الكلب

ردة فعـل غـير متوقعـة مـن شـخص عـلى خـلاف معـي في الحقيقـة، عـلى كل حـال تلقـى الرجـل هـو الآخـر ألفـاظ هتكـت بعرضـه ولكنـه لم يتأثـر، سـخطه الجميـع، إلا رانيـا

حسـناً، كنـت غبيـاً عندمـا أعتقـدت إنهـم أغبيـاء، جعلـت العـالم صامتـاً حتـى انتهـى هـذا الـكاذب مـن كذبـه وخـرج ،أُفكـر قليـلاً في طريقـة كلام الرجـلان، إن طبـع العبيـد ألا يطلقـوا جملـة دون أن يسـبقوها بقـول سـيدي، وهـذا مـا حـدث بالفعـل، لم يتفـوه رجلاً منهما بكلمـة إلا وسـبقها أو زرع بداخلها كلمـة سـيدي، هكـذا هـم العبيـد، يجعلـون مـن أنفسـهم ترابـاً ويجعلـون مـن هـؤلاء الحمقـى أحذيـة نظيفـة تطئـه بـلا رحمـة، إن العبوديـة طبـع يكتسـبه المـرء كلـما طبـع خـده عـلى الأرض أمـام سـيده، عـلى كل حـال أنتظـرت بفـارغ الصـبر الشـاهد الثالـث والأخـير، رانيـا

- احلفي بالله العظيم أن تقولي الحق

- أقسم بالله ... العظيم ... أن ... أقول .. الحق

أقـول في نفـسي أن شـهد العـالم كلـه زوراً لـن تفعـلِ انـت، أنـا الآن اعتمـد فقـط عـلى الله وعليـك

- قولي ما عندك

بتردد ورعشة خفيفة لا يلاحظها إلا من عشق، قالت:

- كنا عائدان من حفل زفاف صديقتي أنا وخطيبي

سكتت لحظات ثم ألقت سهماً مسموماً في قلبي فقالت:

- الله يرحمه ....

وقفت أمي ورفعت يدها للسماء قائلة:

- الله يلعنـه ويلعنـك، يـا سـافلة يـا كاذبـة يـا خائنـة، لعنـة الله عليـك وعـلى مـن جعلـوكِ تبيعـي منصـور

واسـتمرت أمـي في الحديـث وأنـا صامـت منكـس وجهـي في الأرض، عـلى عـاري الـذي سـيلاحقني مـا حييـت، وبعدمـا عجـزت طرقـات القـاضي عـلى إسـكاتها قـرر إخراجهـا مـن القاعـة، فخلخلـت هـذا السـهم المسـموم مـن مكانـه قائلـة وهـي عـلى أعتـاب البوابـة قبـل الخـروج

- قلت لك يا منصور، ليست مننا، ليست مننا

ليخفض إغلاق الباب صوتها ولكن لا يسكته، أكملت رانيا باكية بأمر من القاضي بالإكمال

- كنا سنتزوج قريباً، ولكن ... ولكنه قتله

وأشارت بيديها ناحيتي دون أن ترفع عينيها، وأنا أبدي إعجابي ببراعة تمثيلها، الدموع ونبرة الصوت تقول أنها أفضل من كل ممثلين السينما العالمية، لابد وأنها تدربت على هذا الأداء كثيراً لتخرج بما نراه الآن لتقنع به الجميع حتى أنا فبحركاتها وكلماتها تجعلني أنا نفسي أشك أنني ربما القاتل الحقيقي، ربما مالك السيارة، ولكني اتأكد إنها ليست رانيا، ليست هي، لقد غيروها، أو لقد تغيرت هي

- قتله ... لأنه كان يدافع عني، وبعدما قتله خطفني وذهب بي إلى مكان بعيد، وكتفني وساقني إلى منزل مهجور وتركني ورحل وهو يردد لم أقصد لم أقصد ومنذ هذا الحين لم أرَ وجهه حتى هذه اللحظة

يا للروعة!، كم هو رائع أن تحضر عرضاً مسرحياً بهذا الابداع، يبدو أن ضميرها يؤنبها، فخرجت عن النص الذي بالطبع كتبوه لها لتقول أنني لم أكن أقصد، بهذه الجملة هي لم تضف شيئاً، فقط فعلت مثلما يفعل القاتل في جثة قتيله عندما يسرح له شعره ويضبط هندامه

هـز القـاضي رأسـه ان انـصرف فعـادت الشـيطانة إلى مكانهـا النائـي، ووسـط النظـرات الحارقـة الموجهـة للشـيطانة والتـي تخـرج مـن عيـون مـروة وسـارة بجوارهـا وكل أقـاربي، صمـت وصُمـت عـن الـكلام، غـير مبـالي بالدنيـا غـير مكـترث بـأن ألعـن وأسـب واسـخط وأخـرج كل طاقتـي في سـبها وسـب أجدادهـا وسـب اللحظـات التـي كنـت معهـا فيهـا، لم أكـن أحبهـا، بـل كنـت أعشـقها، كانـت الدنيـا بـما فيهـا في كفـة وكانـت رانيـا في كفة أخـرى، هكذا كنـت أرى، والآن اكتشـفت أنـه مـا كان ينبغـي أن تكـون مـن الكفتـين بـشيء، نعطـي دائـماً كل نفيـس إلى مـن يخوننـا، ونعطـي كل هـين صغـير إلى مـن نثـق بهـم، ذلـك هـو العمـي الحقيقـي، لا أبـالي بالتعليـق عـلى هـذه القصـة المفككـة الضعيفـة التـي ألقتهـا، لا أبـالي بصـوت القـاضي السـمين البغيـض الفاسـد الـذي يقـول

- الحكم بعد المزاولة

لم أهتـم بسـارة التـي أوقفـت رانيـا قبلـما تخـرج مـن القاعـة تحدثهـا بعنـف وغضـب، لم أكـترث لصفعـة مـروة التـي دوت عـلى خـد رانيـا لتشـفي بعـض الغـل في صدرهـا، فقـط أشرد بذهنـي للـماضي، مـا الـذي سـاقني إلى مـا أنـا فيـه الآن، يسـير أمامـي شريـط بـكل حيـاتي، نعـم إنهـا اللحظـات السـابقة للمـوت، السـابقة للاعـدام ،شـهادة الشـهود الـزور، تعذيـب

أختـي مـروة، تعذيبـي، حبسي، لحظـة القبـض عـلي، الحادثـة، حفلـة الزفـاف، أبـو الشـيطانة نائـماً عـلى مكتبـه، عمـلي وعرقـي المنسـال مـن جبينـي عـلي قطعـة الخشـب أمامـي، الخطوبـة، قول أمـي ليسـت منـنـا، مـرض أبـو الشـيطانة، أول يـوم لي في الجامعة وأول لقـاء مـع الشـيطانة، هنـا يتوقـف الشريـط، هـذه اللحظـة، مـاذا لـو لم تحـدث ؟!، مـاذا لـو لم تصطـدم بي السـيارة ؟! مـاذا لـو لم أرهـا ؟! هـل كان كل مـا أنـا فيـه الآن سـيحدث ؟!، بالطبـع لا، لـن يحـدث أي شيء مـن هـذا، لأن ظهـور الشـيطانة هـو مـا غـير مسـار حيـاتي، ودون الانتبـاه إلى أن مـروة أمـام القفـص مـن مـدة طويلـة تبكـي، وبجوارهـا سـارة تبكـي هـي الأخـرى، دخـل القـاضي السـمين إلى القاعـة ليعلـن بالتأكيـد عـن إحالـة أوراقـي للمفتـي، ليجيـز المفتـي إعدامـي عـلى ذنـب لم ارتكبـه، وسريعـاً أدخلـت مـروة المصحـف الشريـف مـن بـين القضبـان فأخذتـه منهـا بـلا عقـل، فعـادت إلى مكانهـا تتبعهـا سـارة ناظـرة إلى نظـرة شـفقة كأنهـا تقـول مـا الـذي جـاء بـك إلى كل هـذا ؟!، فأغمضـت عينـي ورفعـت رأسي للسـماء قائـلاً بصـوت لا يسـمعه أحـد إلا الله:

- أنت تعلم يا الله، أنت تعلم يا الله

كنـت أنـوي تكرارهـا إلى اللحظـة التـي يلـف فيهـا حـول رقبتـي حبـل المشـنقة، ولكـن وأنـا مغلـق العينـين قـال القاضي:

- حكمت المحكمة حضورياً على المتهم منصور بالسجن المؤبد ....

رُفعت الجلسة

ماذا ؟!، لا إعدام !، كيف لهذا الأحمق إلا يحكم بالاعدام، إن كل الشهود ضدي، حتى من أدعيت إنها كانت خطيبتي، إن القضية مرتبة ومحبوكة من قبل أعظم كاتب حبكات قصص في التاريخ، ثم بعد ذلك يحكم بالمؤبد، يا له من غبي، أضاع جهد ذلك الرجل العبقري الذي حبك القضية، لكن ربما الله استخدمه لإعطائي فرصة أخرى للعيش، لا أعلم لماذا ؟! فما فائدة الدنيا بعدما يظهر لك كم كنت معتوهاً في حكمك على الناس، كم شخص رأيت فيه العداوة والآن يتبين لك أنه من أقرب الناس إليك، وكم شخص توددت له، رددت اسمه وتلذذت بذلك والآن يقتلني بطريقة لا يجيدها ألد الأعداء شراسة، أنني ساذج، والسذج لا يستحقوا الحياة

***

الساعة ٢:٤٠ م

قاومت رغبة ملحة بأن أقوم فأحتضنه كطفل صغير، لم تنسه الأيام هذه الذكريات ولم يصرف عنه ما فيه الآن هذه المواقف، بكى فدمعت عيناي، ابتسم قائلاً:

- عندمـا أتذكـر هـذا الموقـف لا أتذكـر سـوى ضعفـي وكـم كنـت غبيـاً وقتهـا

- هل يمكنك تذكر شعورك وقتها ؟!

- ... أعتقد إنه كان شعور الكسر والذلة

- ألا تعتقـد أن مـا مـر بحياتـك قبـل هـذه الحادثـة هـو كـسرة وذلـة ايضـاً؟

مسح دموعه التي نزلت عن وجهه وقال:

- بالطبـع هـو كذلـك، لكـن وكـما يقولـون أن الصخـرة تتحمـل الكثـير مـن الضربـات ولكنهـا تنكـسر عنـد الضربـة المئـة، ليسـت هـذه الضربـة صاحبـة الفضـل في كـسر الصخـرة ولكـن مـا قبلهـا مـن ضربـات، وهكـذا قـد صفعتنـي الدنيـا كثـيراً، لم آبـه لذلـك ولكـن عندمـا جـاءت الضربـة الأخـيرة كـسرت وتفتـت ولم يبـقَ لي أثـر

- ولكـن لم يذهـب أثـرك ولم تتفتـت ولم تُكـسر، هـا أنـت ذا صامـد

- كنت وقتها أضعف من أن أصل لمثل هذا الحديث

***

(١٥)

بضـع أيـام وانتقلـت إلى السـجن، سـجن لا أعـرف أيـن هـو بالتحديـد، أو كيـف يمكـن أن يكـون في هـذه الصحـراء التـي سرنـا فيهـا قرابـة الثـلاث سـاعات في سيارة الترحيـلات الزرقـاء القـذرة، أجلـس وحيـداً أصـارع عقـلي حتـى لا يجلـب لي تلـك الأحـداث الواقعـة خـلال الأيـام القليلـة المنصرمـة، لا أريـد أن اتذكـر أي شيء عنهـا، أريدهـا أن ترحـل كأي ذكـرى مـررت بهـا لينسـينيها الزمـن، لا أعـرف إن كان هـذا الحـدث مثـل كل الأحـداث يقـدر الزمـن عـلى محوهـا أو يعجـز ؟!، ولكـن مـا أعرفـه أننـي لا أريـد تذكـر شـكل أمـي ولا أختـي ولا أحـد مـن أقـاربي خـلال المحاكمـة، فقـط أريـد تذكـر شـكل أعدائـي حتـى إذا اجتمـع الزمـان مـع أيـاً كان لا يسـتطيع أن يجعلنـي أنسـى أشـكالهم البغيضـة، رانيـا د.رشـاد صاحـب المحـل والرجـل المسـن ووزيـر الداخليـة ورجـل

البدلـة السـوداء ووليـد والولـدان اللـذان نجيـا يـوم الحـادث ووكيــل النيابــة والقــاضي ... كثــيرون أعــداء كثــيرون، وأنــا الـذي كنـت أعتقـد أننـي صنعـت عـدواً قويـاً لي ولأسرتي عنـد معـاداة جـاد، الآن تحـول جـاد لصديـق ولم يصـير لي عـدو قـوي فقـط بـل أعـداء أقويـاء، عـلى كل حـال، وقتـما اسـتقر لا مفـر مـن تعدادهـم وإحصائهـم حتـى يلهمنـي الله القـوة المناسـبة لمواجهـة هـذا العـدد

غفـوت قليـلاً والمصحـف الشريـف الـذي أعطتنـي مـروة إيـاه بـين ضلوعـي، غابـت الشـمس ونحـن في الطريـق ولم نصـل بعـد، هـل خرجنـا عـن حـدود مـصر، نظـرت مـن نوافـذ السـيارة مـن كل ناحيـة، إن الصحـراء تحاوطنـا مـد البـصر، إلى أن خفـت سرعـة السـيارة ثـم توقفـت فانفتـح البـاب بصريـر لعـين أقشـعر لـه بـدني، حسـناً سـأتحمل المؤبـد ولكـن لـن أتحمـل سـماع هـذا الصريـر طيلـة الوقـت، خرجـت مـن السـيارة، فقابلنـي رجـلاً عجـوزاً قصـيراً يرتـدي بالطـو أسـود ثقيـل جـداً يجيـد عملـه في تدفئتـه، فـكل مـن حولـه يرتجـف مـن شـدة الـبرد، إلا هـو لا يشـعر بـما يعـاني مـن حولـه منـه، أننـا في أعـماق أعـماق الصحـراء، والـبرد ليـس قارسـاً بـل قاتـلاً، ومـع ذلـك كان أول لقائـي بسـجني الأبـدي هـو حلـق شـعري كامـلاً وتجريـدي مـن ملابـسي ودلـو ميـاه مجمـدة

اُلقـي عـلي فتجمـد نخـاع عظامـي، أتصلـب ولا أصـدق مـا حـدث لا أسـتطيع الحركـة فيدفعنـي أحدهـم دفعـاً اسـقط ليقيمنـي ويسـتمر في دفعـي إلى مـكان اخـذت فيـه ملابـس زرقـاء وبطانيـة تفـوح منهـا رائحـة عطنـة، واكمـل دفعـي عـبر الطرقـات والسـلالم ليدخلنـي الي زنزانـة كبـيرة ويغلـق البـاب بالاقفـال ويرحـل دون كلمـة، افترسـت الملابـس التـي في يـدي وألتففـت بالبطانيـة ادفـئ نفـسي بـكل خيـط صـوف فيهـا، متناسـياً رائحتهـا الكريهـة التـي تحـرق رئتـاي، أحـاول أن أتذكـر شـيئاً مـا ألهـاني عـن تذكـره ذلـك الحـمام الثلجـي، نعـم تذكـرت، لقـد أخـذوا مصحـف مـروة وخاتـم الشـيطانة، أريدهمـا الاثنـان، سأسـأل هـذا العسـكري حالمـا يعـود، ولكـن لا، هنـاك سـؤال أعتقـد إنـه أكثـر أهميـة، أيـن نحـن ؟! ومـا هـذا السـجن الـذي أنـا فيـه ؟!، قبـل أن افهـم مـا يجـري هنـا سـأتعذب كثـيراً ممـا سـيكون في الأيـام القليلـة المقبلـة، أمـي أريـد أن أنـام بجـوارك فإنـه أأمـن أماكـن العـالم ! فـلا يسـتطيع أحـد أن ينـال منـي وأنـا في حمـاكِ، ولا يسـتطيع الـبرد أن يلسـعني وأنـا في رحابـكِ



لا تبـكي فأحـزان الصغـر .. تمـضي كالحلـم مـع الفجر

وقريبـاً تكـبر ياولـدي .. وتريـد الدمـع فـلا يجـري

إن سـهرت أمطـار معنـا .. أو غطـى الـبرد شـوارعنا

فالـدفء يعمـر أضلعنـا .. ولهيـب الأرض بنـا يـسري

وشـموس رفاقـك آتيـة .. وسـتنشرق مـن غضـب الفقر

لا تبـك لا يـا ولـدي .. لا تبـك لا يـا ولـدي

قـد أرمـى خلـف الجـدران .. وتحـن لحـبي وحنـاني

فانظـر في قلبـك سـتراني .. لـن يقـوى القيد عـلى الفكر

وإذا مـا الدهـر بنـا دار .. ومضيـت إلى حيـث أوارى

أكمـل مـن بعـدي المشـوار .. لا تخلـف ميعـاد الفجر

لـن يسـقي دمـع أشـجارك .. لا تخشى النـار من الجمر

لا تبـك لا يـا ولـدي .. لا تبـك لا يـا ولـدي

سـأضمك والصـدر جريـح .. وسأعشـق والقلـب ذبيح

مهمـا عصفت ضـدي الريح .. لن أحـني في يوم ظهري

لا تبـك لا يـا ولـدي .. لا تبـك لا يـا ولـدي

لا تبـك لا يـا ولـدي .. لا تبـك لا يـا ولـدي

أغنيــة « لا تبــكِ « أداء المطــرب الرائــع حمــزة نمــرة، مــن ألبــوم « اســمعني« عــام ٢٠١٤

كلــمات آدم فتحــي، وألحــان مصطفــى نجــم، ومــن إنتــاج أويكنينــج ريكــوردز

***

(١٦)

تناسيت عـد الأيـام منـذ خامـس يـوم، فقـط كتبـت علامـة الخمسـة عـلى حائـط الزنزانة الاسـمنتي بقطعـة جير قـد وجدتها في ركـن مـن أركانهـا بعدمـا بـدد ضـوء شـمس الصبـاح كآبـة ظلمـة هـذا القـبر، لم تكـن الزنزانـة ضيقـة بـل كانـت واسـعة إلى حـد مـا ولكـن ربـما بسـبب أن الضـوء لا يصـل إليهـا جميعـاً شـعرت بضيقهـا، أو ربـما بسـبب ضيـق صـدري أنـا شـعرت إنهـا ضيقــة، في الركــن البعيــد الــذي يصلــه ضــوء خافــت يــبرز معالمــه هنــاك حمــام قــذر، عاهــدت نفــسي إلا اســتعمله، ولكــن القــدرة عــلى إيقــاف التنفــس لا تتخطــى بضــع دقائــق، كذلــك القــدرة عــلى إيقــاف عمليــة الاخــراج لا ولــن تتعــدَ بضـع سـاعات وإن طالـت سـتكون يومـاً، ولكـن ليـس للأبـد، فمرغــماً اســتعملتها في اليــوم الثــاني لي بعدمــا باتــت مثانتــي كرحــم أم في الشــهر الثالــث أو الرابــع، الكئيــب في الســجن

هـو الوحشـة والجهـل، كنـت في بيتـي أعـرف كل شيء، احفـظ أماكــن كل شيء، لا أحتــاج لبــصري ولا لســمعي لأســير في حجـرتي، حتـى في الورشـة كل شيء معلـوم، ولكـن الآن ذهـب كل مألـوف، هنـا السـجن، لا تـدري أيـن أنـت وأنـت بصـير فـما بالـك بإغـماض عينيـك، لا أحـد معـك يؤنـس ولا مسـتقبل ينـير لا تعـرف مـا يحـدث بالخـارج فتشـارك، لا أخـرج مـن هذا المـكان أبـداً، لانهـم يطبقـون المعنـي الحـرفي لكلمـة السـجن المؤبـد، أمامـي زنزانـة خاويـة، ولكـن في نفـس الطابـق اسـمع بـين الفينـة والأخـرى أصـوات منخفضـة تتبـادل الحديـث، لا أجـرأ عـلى أن أرفـع صـوتي لأخبرهـم أننـي هنـا، أننـي أريـد حقـي الطبيعـي في الحديـث، في مشـاركة العـالم صـوتي وكلـماتي، رغـم أن زنزانتـي في الطابـق الثـاني تقريبـاً إلا أنني عندمـا نظرت مـن الشـباك لم أرَ إلا أعـلى السـياج الشـائكة والصحـراء التـي لا نهايـة لهـا، مـددت يـدي لأصـل لنهايـة الشـباك فلـم أسـتطع، إن الحائـط سـميك لدرجـة لم يسـنح لي عقـلي بتخيلهـا مـن قبـل، فسـماكة الحائـط تتجـاوز طـول ذراعـي، كلـما مـرت عـلي دقيقـة يزيـد التسـاؤل في نفـسي عـن هـذا السـجن، شـككت في كل الاحتـمالات، هـل هـذا السـجن تابـع للحكومـة أم لا ؟! هـل هـو في مـصر أم لا ؟!، لم يفتـح أحـداً فمـه منـذ أن جئـت لهنـا فلـم أسـمع لهجـة مصريـة أو غيرهـا مـن اللهجـات العربيـة للـدول المحيطـة بنـا مثـلاً، لمـاذا لا أكـون مثـل بقيـة المسـاجين

العاديـين في السـجون العاديـة ؟!، ثـم بعـد عـدة أيـام أعلمـوني أنــه لا يوجــد زيــارات فقــط مراســلات خطيــة، وهــذا كان أول مـا سـمعته مـن العسـكري الـذي يجلـب لي الطعـام، لـولا الظـروف ولـولا الخـبر السـيئ الـذي القـاه عـلي لقبلتـه لانـه تحـدث اللهجـة المصريـة خاصتـي، ولكنـه قبـل ان يمـضي في طريقـه، لعنتـه ولعنـت جـده، اقـل شيء

ان الوقــت يمــضي، يمــضي سريعــا، هــا نحــن في الشــهر الاول، وربـما الثـاني لا اتذكـر، لا يخبروننـي بالمواقيـت الدقيقـة للصلـوات، لا لأنهـم لا يرتـدون سـاعات كـما لاحظـت ولكـن لأن احـدا منهـم لم يصـلي طيلـة حياتـه، لا انـسي النظـرة الغريبـة التـي نظرهـا لي العسـكري وهـو يحمـل الطعـام منصرفـا وانـا اسـأله عـن اتجـاه القبلـة، لم تكـن نظـرة اسـتحقار او اسـتهانة بـل كانـت نظـرة اسـتغراب وعـدم فهـم، ولربـما سـمعت في عقـلي صوتـه الداخـلي الـذي قـد يقـول

ـ « يعني ايه قبلة يا أخ ؟! «

عـلى كل حـال، أصـلي، إن امـي تركـت درة بداخـلي هـي ألا اتـرك الصـلاة ولـو قطعـت ايـدي وأرجـلي مـن خـلاف، ولذلـك أُصـلي، في أي اتجـاه أُصـلي، في أي وقـت أصـلي، تمـر الأيـام وابقـى أتذكـر المحاكمـة عـلى إنهـا كانـت بالامـس فقـط، هـل هـذه السرعـة أمـر جيـد أم سيء ؟!، لا أعلـم،

علـى كل حـال ألقـى العسـكري - الـذي اعتـاد اللعـن منـي - جوابـاً بعدمـا وضـع الطعـام ورحـل، تلقيـت الورقـة في اشـتياق، وضعتهـا في صـدري لمـا رأيـت عليهـا اسـم أختـي مـروة، بكيـت مـن شـدة الفرحـة، كنـت كمـن سـافر دهـراً ثـم عـاد ليرتمـي في أقـرب حضـن وجـده، التاريـخ المكتـوب بخـط واضـح يعلمنـي أنـه مـر عـلى حبسي هـذا مـا يزيـد عـن الثلاثـة أشـهر، زمـن طويـل!، فتحـت المظـروف الـذي كان مفتوحـاً مـن قبـل بالأسـاس، بالطبـع لابـد وأن يمـر عـلى إدارة المصنفـات بالأسـفل حتـى يطلعـوا إن كنـت أراسـل رئيسـة وزراء الاحتـلال أم أنهـا مجـرد رسـالة مـن أخـت لأخيهـا

ــ أخي منصور القدوة الكبير :

« اكتـب لـك فـور اسـتلامي رسـالة توضـح أن المقابـلات ممنوعـة وأن النافـذة الوحيـدة لحوارنـا هـي هـذه الورقـة ومثلهـا التـي لا أعلـم هـل سـيمكنك كتابتهـا أم لا ولا أعلـم إن كان كلامـي سـيصلك أنـت أم لا، فبالتأكيـد سـيقرأ أحـداً مـا هـذا الـكلام قبلـك، لـذا فلتذهـب يـا مـن تقـرأ هـذا الخطـاب قبـل أخـي أنـت وأمثالـك إلى الجحيـم، أخـي مـضى ثـلاث شـهور عـلى سـجنك زوراً، لا أعلـم مـاذا سـتكون ردة فعلـك عندمـا أخـبرك إن أسرتنـا صـارت فرديـن فقـط، لابـد أن تحتمـل هـذا الخـبر، توفـت أمـي منـذ شـهرين، لم تسـتطع تحمـل مـا حـدث

يـا منصـور، أنـت لسـت السـبب، هـم السـبب يـا منصـور هـم السـبب ليـس فقـط في سـجنك بـل في مـوت أمـي أيضـاً وقتـل الدكتـور رشـاد، هـذا خـبر آخـر سيء، أنـا أفعـل مـا يمكننـي فعلـه مـن أجـل أن أجعلـك معـي وأكـون معـك، وُجـد ألـد. رشــاد مقتــولاً وملقــى في إحــدى الطرقــات بعــد المحاكمــة بيـوم، وقـد تـم تعذيبـه بوحشـية شـديدة، لربـما ذلـك تـبرأة لـه مـن حبسـك ولكـن ليـس لابنتـه اللعينـة التـي سـأحرقها يومـاً مـا، الخائنـة تمـت خطبتهـا الأسـبوع المـاضي، لعلـك يـا منصـور تتعجـب مـن طريقـة كلامـي لـك الآن، ولكـن يجـب أن تعلـم أننـي مـا أتحـدث إلا لمنصـور جديـد مـن مـروة جديـدة، منصور الــذي ســيكسر القيــود لينتقــم لنــا، أخــي العزيــز أنــا وأنــت دائـماً كنـا نتحـدث عـن الخـير، عـن الايـمان، عـن التسـامح والحـب، الآن يـا منصـور لا أحدثـك إلا عـلى الانتقـام، والـدم وكـره الخائنـين، لقـد كـبرت وعلمـت أن العـالم ليـس كـما علمنــا أبوانــا، إن النــاس لا تســتحق الخــير لأنهــم لا يبذلــوه، فاسـتوصى بهـم شراً «

أغلقـت الرسـالة وظللـت أبكـي، أبكـي عـلى كل مـا جـاء فيهـا، ليتهـا لم تـأتِ، ليتنـي بقيـت عـلى علـم كاذب بـأن أمـي لازالـت حيـة تنتظـرني أخـرج لهـا، ليتنـي بقيـت عـلى جهـلي بـأن ألـد. رشـاد مـن أعدائـي، ماتـت امـي، فانتقلـت رحمـة

الله إلى رحمة الله، مات د.رشاد وكنت أظنه سبباً في دخولي السجن، لماذا لم اقابله ليحدثني عن عذابه، ليحدثني أن لا ذنب له فيما أنا فيه ؟!، لماذا لم تتحمل أمي ؟! هل ضعفت قواها لدرجة موتها بمجرد ابتعادي عنها شهراً واحداً؟!، لمن سأكافح للخروج ؟!، هل لمروة، أم للانتقام ؟! لا هذا ولا ذاك أنا لن أخرج من هنا، أنا لا أريد أن أخرج من هنا، هنا يمكنني أن اصنع عالمي الخاص عالمي المليء بنجاحي وما أريد، عالم فيه يمكنني أن أُنكل بالشيطانة والوزير والقاضي والمجتمع، أو أن أحقق أمنيات أمي وأختي المتناهية الصغر التي تتمثل في الصحة والستر، فقد عجزت في الواقع أن أفعل ذلك يا أمي، اعذريني، فأنا عندما وعدتك بذلك لم أكن أعلم ما كان يختبأ لي متربصاً سارقاً لأحلامي وأحلامكن

فقط تعقيد، إن الأمور تزداد تعقيد وحسب، هذا الصراع الذي يدور بداخلي ويتمثل في السؤال التالي : ما هي أهمية الحياة الآن ؟!، لماذا أكافح لأعيش ؟!، هل الوقت مناسب لترك لجام الفرس يذهب بي إلى حيث يشاء، يسقطني أو يبقيني لا فارق، أنا أعلم أن هناك وقت يدخل فيه المرء وقت شيخوخته ليزهد العالم وما فيه حتى النجاح فيكتفي بنجاحاته التي حققها حتى وإن لم

تكـن بالكبـيرة، ويتولـد معـه الاقتنـاع بهـذا، ولا تتصـارع نفسـه بـين خيـار العـودة أو المـضي قُدمـاً إلى حيـث يقودنـا القـدر، هـل هـذا الوقـت جـاء باكـراً لي، أنـا الآن بالفعـل أزهـد الحيـاة ومـا فيهـا، مـا النجـاح ومـا الراحـة ومـا المـال ومـا الصحـة التـي يسـعى وراءهـم جميـع الخلـق، هـل لهـم الأهميـة القصـوى التـي تجعـل حياتهـم مكرسـة لذلـك ؟!، هـل هنـاك معنـى أكـبر مـن كل المعـاني التـي مللناهـا ؟!، وإن كان هنـاك فلـماذا يغفـل عنـه البـشر ؟!، وكيـف سـيكون هـذا المعنـي ؟!

ــ أختي العزيزة، مروة

« أُحدثـكِ لاني لا أملـك الأقـلام والـورق، أُحدثـكِ لأن الحديـث حـق مجـاني لا يحتـاج لرخصـة اسـتخدام أو إذن انطـلاق لا يحتـاج لـشيء سـوى بضـع أصـوات يخرجهـا فمـي في جـوف الظلمـة الماديـة والمعنويـة التـي أحياهـا، فاسـتمعي لي بقلبـك، ثمانيـة أشـهر في مـكان واحـد وطعـام واحـد، سـجن، حتـى وإن نبتـت بـين أركانـه الـورود، وسـطعت جدرانـه الأربـع بالنـور، حتـى وإن اتخـذ الحـمام قضبـان نافذتـه مسـكناً ومـلاذاً، يبقـى سـجن، تصدمنـي يـا مـروة هـذه الحقيقـة كلـما فكـرت في الخـارج، وسـوف تظـل تصدمنـي وتصـدم كل سـجين حتـى إذا وضعـوا أمامـه أفخـم أنـواع الأطعمـة وأنعـم أنـواع الأَسِرة، لأنـه في النهايـة سـيقع نظـره عـلى قضبـان أو

سـجّان أو قيـود أو أي شيء يُذكـره بسـجنه، إنـه سـجن حتـى ولـو كان بالألـوان، لي ثـلاث أكـواب مـاء يوميـاً لأشرب منهـم فاسـترق بعضـاً اتوضـأ بـه في الصبـاح لباقـي اليـوم، وكل شـهر لي كوبـين لاسـتحم بهـما، المـاء مجمـد ولكنـه السـبيل الوحيـد حتـى لا أتعفـن، صـار لـون بـشرتي شـديد الصفـار وتتقـشر باسـتمرار وشـفتاي جافتـين تمامـاً لا تترطـب إلا مـع الكـوب الصغـير كل ثلـث يـوم، جسـدي صـار ضعيفـاً جـداً فـلا أتحمـل النهـوض ولا الإتـكاء عـلى عظامـي دقائـق معـدودة، أنـا لـن أقـول لـكِ أن الملـل سـيقتلني، ولكـن الـصراع هـو مـا سـيقتلني، أنـت تعلمـين أننـي لم أملـك دقيقـة وحيـدة لنفـسي لأفكـر فيهـا عـن كثـب، كانـت كل أوقـاتي لأشـياء أو أشـخاص غـيري، لـذا فـإن جلـوسي وحيـداً لمـدة ثمانيـة أشـهر أتـاح لي الفـرص الكثـيرة لا تعـرف عـلى نفـسي أكثـر، يـا مـروة يهمنـي أمـر خروجـي، ولكـن اتسـائل لمـاذا أخـرج مـن هـذه العزلـة، إن الوحـدة لذيـذة بشـكل لا يصـدق، لا يصـدق بالنسـبة لشـخص ذاق الخـارج لدهـور ثـم نـال مـذاق العزلـة أخـيراً، إن الخـارج يكتـظ بالأشـخاص المُحمّلـين بالأحـلام التـي يحاربـون ويَقتِلـون ويُقتَلـون مـن أجلهـا، أشـخاص يعتقـدوا أن السـعي سـيصل بهـم للنجـاح، عميـان لا يدركـوا أنهـم مجـرد دمـى في يد مـن أكـبر منهـم، إن الخـارج غابـة، ليـس هنـاك قانـون يحكمهـا سـوى قانـون الكبـار، ومـا يُبقـي عـلى الصغـار إلا لخدمتهـم،

الخـارج ضوضـاء، أشـخاص يكرهـون النـاس وأنفسـهم، لا وظيفـة لهـم إلا ترويـع الآمنـين في عزلتهـم، لقـد وجـدت هـا هنـا حقيقـة البـشر، وجـدت المتعـة في الابتعـاد عنهـم، لـن أطيل عليـك هـذا الخطـاب، ولـن أسـب مـن يقـرؤه قبلـك، لأنـه لا أحـد سـيقرأه قبلـك، فقـط مـا أتمنـاه هـو ألا يصـير عـدد أفـراد أسرتنـا واحـداً هـو أنـتِ »



(١٧)

عـام كامـل مـر عـلي اليـوم، سـمعت تاريـخ اليـوم مـن استراقي السـمع مـن الراديـو أو التلفـاز الـذي بالـدور الاول، وكأن هـذا الراديـو لا يوجـد فيـه إلا محطـة الأغـاني، أقـف كثـيراً أُنـادي مَـن أمامـه بـأن يحـول إلى محطـة القـرآن الكريـم فـلا يـرد عـلي أحـد، منـذ أربعـة أيـام كان هنـاك سـجين مـن سـجناء الزنازيـن الداخليـة التـي لم أرَ بعضهـم إلا مـرة واحـدة وهـم يتجهـون إلى زنزانتهـم التـي يبقـوا بهـا للأبـد، يجـره العسـاكر وهـو غـارق في دمـاء شرايـين يـده المقطوعـة، أقـول لنفـسي هـا قـد تـرك أحـداً لجـام قـدره، يمـروا مـرور الأشرار فيلقـى العسـكري مقولتـه الخالـدة:

ــ الدور عليك !

لست مندهشاً من قوله ولكني مندهش من اللا مبالاة الذين يتعاملوا بها مع جثة هذا السجين، يمسك كل عسكري بقدم ويسحبوه أرضاً، قد تصدم رأسه فلا يتوقفه، وقد ينزف ظهره فلا يبالون، فهززت رأسي حتى أفيق مما أراه ورفعت صوتي:

ـ الدور عليكم قبلي يا ولاد الكلاب ......

انطوي وانكمش على نفسي أفكر وأفكر أُحارب ذلك الوحش النائم داخل عقلي، حتى مرت أيام ومرت من أمامي ما يزيد عن خمسة جنازات، بين شرايين مقطوعة وبين قطعة حديدية بارزة من الحلق وبين وجه أزرق اللون قاتم، رحلوا، جميعهم كانوا شباباً، من لم أره وهو حي رأيته وهو ميت، رأيت الجسد الذي ربما لم يأكل حراماً يوماً، وربما كانت حياته من أجل أسرته، وربما جاء إلى هنا ليحمل ذنب ليس ذنبه، وربما ظلم بسبب بيعه من أقرب الناس إليه، تختلف مساراتهم ولكن تتفق في نهايتها، نهاية كئيبة تحمل من السواد ما لا تحمله صفحة السماء الفارغة من السحب والنجوم ليلاً، هل حان وقتي أم أن أمر ربك لم يأتِ بعد ؟!، ماذا علي أن أفعل ؟!، إن حالي صار أسوء من هؤلاء الذين يفارقون الدنيا بأيديهم، صرت أنام بالأربعة أيام ولا استيقظ أبداً، وبعدها أظل

مستيقظاً لفترة تقارب فترة نومي الأولى، احترق لحمي وظهرت العظام بارزة، تأت أيام أظل اضحك فيها منذ طلوع الفجر وحتى الغروب، وأيام أخرى لا أبرح البكاء حتى تجمد عيناي عن الدمع، مرة أأكل كل الأكل وأريد أن أأكل الأطباق معها أو العسكري الذي جلبهم إن أمكن، وأحياناً أخرى لا أمس الطعام ولو بنظرة، لم يأتينِ رد مروة حتى الآن، أو إن قلبها عجز عن سماع خطابي لها بسبب المسافة، انتظر بشدة ردها، ربما لم أخذ حتى الآن خطوة فعالة لأنني انتظر ردها، فمنذ كلمة أمي ــ رحمها الله ــ حينما قالت لي أنني من اختر........

علي كل حال دخلت في حالة من عدم الثقة بالنفس التي تؤهل إلى عدم القدرة على اتخاذ اي قرار

مضت الأيام على نفس المنوال، إن جنوناً قادماً في الطريق، بسبب كم الشباب الذي يمر أمام زنزانتي على قدميه وبعد أقل من شهر يمر مرة أخرى مجروراً بلا أي اهمية

ــ أخي منصور القدوة الكبير :

« اكتب لك رغم عدم معرفتي هل تصلك هذه الرسائل أم لا ؟!، أعلم إنك تسمع قلبي يحدثك لأنني

كذلـك اسـتمعت لنبـض قلبـك يصاحـب كلماتـك تصـف فيهـا حالتـك هنـاك، اطمئـن إلى نـبرة كلامـك، عـلى كل حـال اشـتقت إليـك يـا أخـي اشـتقت لكونـك الرجـل الأول والأخـير في حيـاتي جـدي وأبي وأخـي وزوجـي وكل شيء، هـل تعتقـد أننـي كنـت فعـلاً أكرهـك عندمـا تشـاجرنا وأنـت في الاعداديـة وقلـت لـك ذلـك، أؤكـد لـك مـن يومهـا لم أعشـق أحـداً بمقـدارك، كانـت سـخافة وحماقـة يـا منصـور، لا أنسـى مقـدار حزنـك بعـد سماعك لهـذه الكلمـة التـي تمنيـت آلاف المـرات أن يقطـع لسـاني قبـل أن أنطقهـا، أتمنـى لـو تمتـد الورقـة لتشـمل العـالم كلـه فأحكـي لـك عـن كل شيء يحـدث لي، عـلى نصيحتـك سرت يـا منصـور امتيـاز في الجامعـة طيلـة السـنين واضعـة صـورة تفوقـك ونبوغـك امامـي قـد قلـت لي مـرة ان التعليـم هـي وظيفـة الفقـراء أمثالنـا لنحكـم العـالم هـا أنـا أنفـذ مـا تقولـه أنفـذه رغـم كرهـي لـه رغـم إيـماني بـأن الطريقـة الوحيـدة التـي سـيحكم بهـا أحـد العـالم هـي الـدم والمشـانق والقيـود، يـا منصـور إن قومنـا إذا تحدثـت معهـم عـن الحريـة لسـوف يحدثونـك عـن سـياط الكبـار وزنازنهـم وقيودهـم لا أمـل لهـم في الخـلاص إلا بالمـوت، صرت طبيبـة لأسـاعد النـاس ولكنـي لسـت مقتنعـة بمعالجـة الأمـوات، إن بعـض النـاس تعفـن مـن الفسـاد، تحلـل مـن الفقـر، وتبـدد مـن الحاجـة لا أقـول لـك أن عالمـك جيـد ولكـن أقـول لـك

أن العـالم يريـد ثـورة تغـيره، وأنـا لـن أحدثـك عـما يحـدث لي كفـرد ولكـن أحدثـك عـما يحـدث لنـا كأمـة صـار أقـصى امـاني شـبابها مجـرد كـرسي في القطـار، مجـرد وظيفـة أيـاً كانـت، مجـرد بيـت وزوجـة، هكـذا جعلنـا، صـارت سـارة محاميـة تسـعى هـي الأخـرى إلى العـدل مـع مجتمـع ظـالم لنفسـه، تحدثنـي دومـاً بأنهـا سـتكون دفاعـك لتخـرج مـن حبسـك، وهكـذا أريـدك بجـواري فناضـل مـن أجـل أن تسـاعد في تغيـير مـا يحـدث لنـا، ناضـل مـن أجـل ألا يبقـى ظـالم فاسـد أمثـال الوزيـر الفاسـد والقـاضي الظـالم والشـيطانة وشـهود الـزور، ناضـل حتـى تـرى التغيـير بعينيـك «

ألقيـت الرسـالة وفي بـالي الانتقـام وحسـب، الآن أدركـت قيمـة لوجـودي وقيمـة لعدم إعطـاء القـاضي لي حكـم الاعدام، الآن وحسـب يمكننـي أن أجـد نفسـي في شيء، أننـي أفكـر منـذ اللحظـة الأولى في الانتقـام، لمـاذا لم أنفـذ أي شيء في هـذا الصـدد مـن قبـل، إن لي مـا يزيـد عـن عـام وسـط هـذه الجـدران ولم اتخـذ أي إجـراء أو تخطيـط لعمليـة هـروب أو انتقـام، إن كنـت سـأموت لا محالـة، فقبـل أن أرحـل عـلي أن أدمـر حيـاة هـؤلاء الكبـار في الخـارج، إذن لقـد حـان وقـت إظهـار الوجـه الآخـر لهـؤلاء الذيـن حسـبهم النـاس مـن الأخيـار، أنـا لسـت طفـلاً ينعـم بنعمـة الـلا أدري ولسـت شـيخاً ينعـم بنعمـة الـلا أتذكـر،

أحيانـاً تكـون نعـم، ولكنـي لا أملكهـا، لا أملكهـا، إن كنـت ذكيـاً بشـهادة الجميـع فدعنـا نـرى مـا يوصلنـا هـذا الـذكاء إليه

نهضـت رغـم كل الألم في جسـدي، أمسـكت بقطعـة ضخمـة مـن الجـير كنـت قـد اسـتخدمتها مـرة واحـدة منـذ كتابتـي علامـة الخمـس أيـام، حملتهـا مـن عـلٍ وهويـت بهـا عـلى الأرض فتكـسرت لقطـع كثـيرة، وبـدأت ارسـم كل مـا يخطـر في بـالي عـن مدخـل السـجن وعـن مواقـع العسـاكر بالأسـفل والمـكان الـذي صبـوا عـلي المـاء فيـه كان هنـاك مـا يلمـع عـلى الحائـط بالتأكيـد كان مفتاحـاً، ولكـن مفتاحـاً لمـاذا، لا أعلـم، ثـم خرجـت بخيـالي مـن البوابـة الكبـيرة فوجـدت الطريـق الأسـفلتي الممتـد لقلـب الصحـراء التـي إذا أردت أن أسـيرها كلهـا سـأظل بتقديـري يـوم كامـل ركضـاً دون دقيقة اسـتراحة، ولكـن بالطبـع إذا علمـوا سـيخرجوا ورائـي عـلى نفـس الطريق لعلمهـم أننـي لـن أكـون غبيـاً فابتعـد عنـه فأمـوت تائهـاً في الصحـراء الواسـعة، لابـد أن هنـاك طريقـة للهـروب مـن هنـا ! وحتـماً لا أبـرح حتـى أبلـغ هـذه الطريقـة

***

بقيـت أيامـاً اتأمـل الصـورة الرديئـة التـي رسـمتها معتمـداً عـلى ذاكـرتي منـذ أكثـر مـن عـام، لا أقـوم للطعـام، أنـام في مـكاني، كل مـا أفعلـه حرفيـاً هـو أن أشرب مـن الأكـواب

القــذرة وأتامــل الحائــط أمامــي، حســناً إن عــلي أن أقــوم لأحســب بعــض الحســابات، إن هنــاك فتــى صغــيراً صرخ صرخــة مكتومــة منــذ قليــل وكالعــادة ســيأتي العســاكر لحملــه بعدمــا يخلعــوا قطعــة معدنيــة مــن بطنــه قــد اتــكأ عليهــا لينهــي حياتــه بهــا، وحالمــاً مــر العســاكر مــن أمــام زنزانتــي، بــدأت بحســاب الثــواني

١٠٠١، ١٠٠٢، ١٠٠٣، ١٠٠٤، ....

وهكذا حتى عادوا فكتبت سريعاً العدد على الحائط

٣٥٤ ثانيــة، أي مــا يقــارب الســت دقائــق، حســناً هــذه معلومــة قــد تفيــدني عندمــا ينتحــر شــخصا آخــر بعــده !!

المعلومــة الأخــرى التــي دائــماً تحــدث بعــد كل حادثــة انتحــار هــي صــوت ســيارة يبتعــد، إذاً هــم يأخــذون الجثــة لمــكان مــا وعــلى هــذا بــدأت بالحســاب مــرة أخــرى

١٠٠١، ١٠٠٢، ١٠٠٣، ١٠٠٤، ....

كان العد طويلاً جداً جداً ولكني لم أمل، قد استغرقوا

١٠٧٨٦ ثانيــة، رقــم مهــول لم أصــدق أننــي اســتطعت عــده أو أننــي اكتســبت قــدرة الصــبر عــلى الاســتمرار في العــد لمــا يقــارب الثــلاث ســاعات والتــي حســبتهم بعمليــة حســابية

بسـيطة، جيـد لم تُنسـينِ هلوسـتي الحسـاب، أيـاً يكـن لـدي معلومتـين الآن، ومـن الممكـن أن أُقـدر كـم تبلـغ المسـافة التـي تقطعهـا السـيارة القديمـة في زمـن قـدره ثـلاث سـاعات ذهـاب وعـودة وهـذا مـع اعتبـار أن هنـاك وقـت لدفـن الجثـة أو تسـليمها لأي مستشـ... مستشـفى، ربـما ولمـا لا قـد تكـون هنـاك مستشـفى عـلى بعـد قريـب مـن السـجن ومـادام هنـاك مبنـي إذن هنـاك طعـام وشراب وسـيارة سـتنقلني إلى العـمار بإرادتهـم أو بغيرهـا، حسـناً كيـف أوظـف هـذه المعلومـات في سـبيل الهـروب، عـلي إيجـاد مفتـاح زنزانتـي أولاً ثـم الخـروج في ذلـك الوقـت الـذي يسـتغرقه العسـاكر الأربعـة ـــ الذيـن وحسـب مـا أذكـر هـم العسـاكر الوحيديـن في طريـق الخـروج مـن هـذا السـجن ـــ في جلـب جثـة أخـرى، غريـب أن ترتبـط حيـاة شـخص بمـوت آخـر، والخطـوة التاليـة هـي أن اسـبقهم للنـزول فاخـذ المفاتيـح المعلقـة عـلى الحائـط والتـي لابـد وأن تكـون مفاتيـح البوابـة الكبـيرة ثـم اذهـب إلى السـيارة وادفـن نفسـي في مـكان منهـا لا يروننـي مـن خلالـه، ثـم عندمـا يصلـوا إلى هـذه المستشـفى سـأنزل أنـا وهـم يعـودوا فارغـين، وأُكمـل أنـا طريقـي بسـيارة إسـعاف لابـد وأن تكـون هنـاك، وحتى وإن لم تكـن هنـاك سـيارة أو مستشـفى، هنـاك وقـت كافي للابتعـاد عنهـم قـدر المسـتطاع وذلـك لأنهـم لـن يكتشـفوا هـروبي إلا عندمـا يعـود هـؤلاء العسـاكر مـن مهمتهـم، أو في وقـت الطعام

أو الماء وذلك يعطيني الوقت لآمن إتباعهم لي، أو الابتعاد عن الطريق الأسفلتي بمسافة تسمح لي بمراقبة اتجاهاته ومن عليه، نعم خطة رائعة لا محالة ولكن قبل أن أُنفذ هذه لابد من وضع الخطة التالية وهي خطة الانتقام، فقد لا أجد الفراغ مرة أخرى لأضع خطة الانتقام، ثم أننا لا نضع خطط انتقام كل يوم، لذا لابد وان نؤهل أنفسنا لما قد يواجهنا والابتعاد عن الارتجال، إن خطة الانتقام غاية في السهولة، لا شيء أسهل من القتل هذه الأيام، ولكن الجديد هي طرق القتل، الشيطانة سأقطعها إلى قطع صغيرة وأُلقي في كل مكان قطعة وسأترك الرأس إلى زوجها الذي لا أعرف من هو، الوزير وابنه سأحرق بيتهم وهم بالداخل، الرجل ذو البدلة السوداء التي لا يغيرها ومعه الضابط وليد سألقي بهم من فوق أعلى عمارات مصر وذلك بالطبع بعد أن أقطع البدلة أمام الرجل، من هناك أيضاً، القاضي نعم، يكفي عليه أن يُكتب خبره بالجرائد أن سيارة مسروقة داست عليه أمام المحكمة فلصقته على الأرض وجعلته كشرائح البطاطس المهشمة

***

(١٨)

عـام، منـذ عـام بـدأت بالتخطيـط لعمليـة الهـروب وعمليـة الانتقـام، أتسـائل دومـاً مـاذا لـو فشـلت خطـة الهـروب، مـاذا لـو أمسـكوا بي بعدمـا خرجـت مـن هـذا القـبر، هـل سـيعاقبونني؟! ولمـاذا يعاقبوننـي ؟! أيُعاقـب المـرء عـلى تنفسـه أو نبـض قلبـه ؟! أيعاقـب المـرء لسـعيه عـلى أبسـط حقوقـه وهـي أن يعيـش حـراً بـلا هـذه الحوائـط الكئيبـة التـي تخنقـه، ولكـن هـل هـم يعترفـون أنهـا حقـوق، وهـل يؤمنـون أصـلاً بكلمـة حقـوق العبيـد ليعطوهـا إياهـم، وبـكل تناقـض وازدواجيـة أرد عـلى نفـسي أن أنـا وغـيري هـم مـن جعلوهـم ملـوكاً، عندمـا بـدأوا بـالأول ولم يلتفـت أحـد، بـدأواا بالثـاني ثـم الثالـث ثـم أنـت ثـم أنـا ثـم كل مجتمعنـا، حلقـة متصلـة مـا إن ندخلهـم فيهـا لا يخرجـوا منهـا أبـداً، مـا لا يمسـنا يمـس غيرنـا ومـا إن يمـس غيرنـا فحتـماً سيمسـنا يومـاً مـا، عـلى كل حـال مـر مـا يزيـد عـن العامـين في هـذه الزنزانـة ولا

زلت حياً أُرزق، صار وجهي كوجه عجوز في الستين من عمره وصار جسدي كجسد طفل بائس خرج من رحم أمه لتوه، ينظر لي العساكر على أنني بطل استطاع العيش في مثل هذه الظروف ما يزيد عن العامين، وقت كبير بالنسبة لشخص يمل من مشاهدة فيلم أو مسلسل مدته لا تزيد عن الساعة، قضى قرابة الأربعون شخصاً نحبهم في هذين العامين، وأنا صامد ليس لقوة في جسدي ولا لإرادة في عقلي، سوى أنني كنت مشغولاً قليلاً، مشغولاً بالقضاء على الجميع وللأبد، يستغربون من هذه الرسومات التي على الحائط لأنهم لا يفهموا أنها هم بعدما أقضي عليهم وأسحقهم جميعاً، وبعد هذا العام من التخطيط اتضحت الرؤيا أمام عيني وكل ما أفكر فيه وأقوله رسمته على حوائط الزنزانة، استمع إلى حركات طابور النمل الخارج من الزنزانة من خلال النافذة التي لا تؤثر على دخوله أو خروجه، أُناديهم بأن الهرب قريب وأنهم بصفتهم جيشي عليهم انتظاري بالخارج ليتمكنوا من محاربة أعدائي إذا ما تمكنوا مني وأن ينادوا أصدقائهم الفراشات والنحل وبقية الحشرات، فصرت اضحك ضحكات هستيرية عالية مخيفة ومرعبة حتى تدمع عيناي ويؤلمني خداي من شدة الضحك، حتى يقاطعني وقوف العساكر أمام الزنزانة يحملون اشياءً لم أتبينها ويقول أحدهم:

- هل جننت أيها المخبول ؟!

فألتفت إليه وقلت وأنا في مكاني:

- نعم جننت، وقريباً جداً سترى ما مدى جنوني

ألتفـت ولم يعلـق عـلى كلامـي، فأغاظنـي ذلـك كثـيراً، فقمـت مسرعـاً ومسـكت القضبـان وقلـت:

- لماذا لا ترد علي يابن الكلب؟

دخلـوا الزنزانـة التـي تقـع أمـام بيتـي (زنزانتـي) حيـث بـدأوا بتنظيفهـا ثـم وضعـوا سـجاداً عـلى الأرضيـة ووضعـوا تلفـازا ملونـاً عـلى حامـل عـلى الحائـط بحيـث أرى الشاشـة كاملـة مـن مـكان وقـوفي الـذي هـو أمـام غرفـة نومـي (سريـر الزنزانـة)، قلـت لهـما متهكـماً:

- هل هذا حجز الوزير؟

لم يعلـق أحدهمـا وأغلقـا البـاب وأنصرفـا وأنـا أقـول في يـأس:

- ردوا يا أولاد الكلاب ...... زنزانة الوزير ؟!

أرفع صوتي عسى أن يسمعانني

- حسـناً اجعلوهـا زنزانتـي أنـا، لماذا لا تـردوا علي يـا ....

وأدخل في نوبة بكاء لا تنقطع إلا بنومي

الآن صار كل ما أفعله هو الانتظار، انتظار هذه الصرخة المكتومة التي يصدرها من قرر الاستسلام ـــ أتعجب كثيراً من شعور « العادي « مع موت نفس ـــ حتى جاءت، مر العسكري وحيداً لهناك ثم عاد في قمة البرود لينادي على رفيقه ليساعده، وكالعادة بعد ما يقرب من خمس دقائق جاءوا، يمسك آخرهم بمفتاح الزنزانة المتجه إليها ويتعلق بحزامة عدد من المفاتيح المنفردة بينهم مفتاح زنزانتي يحمل رقم الزنزانة ٢٧٠، رأيته مُعلقاً على جنب قضبان بأبي من خلال انعكاسه على شاشة التلفاز المظلمة التي جاءت في ميعادها في الزنزانة المقابلة، مددت يدي لآخرها وجذبته إلي أن اصطدم وجهه بالقضبان فتآوه مستنجداً برفيقه الذي سبقه مسافة جيدة، صرخت أنا أيضاً لأُبرر ما أفعل:

– لماذا لا تخرجونني من هنا، يا شياطين يا كلاب يا اولاد الـــ ...

هلع صاحبه يجذبه من يدي ويسبني فأبتعدت حتى لا تصيبني عصا العسكري الباطشة، ابتعدت بعدما نلت ما أحتاجه، مفتاح زنزانتي

بعدما قرروا أن أفضل ما يفعلوه هو أن يمضوا في طريقهم، فلا فائدة من تعذيب المجنون، على حد وصف أحد العساكر البلهاء، ترقبتهم إلى أن غابوا عن نظري الذي يكشف مساحة لا بأس بها من الممر، أمسكت بالمفتاح وأخرجت يدي من القضبان، أحاول إدخال المفتاح في القفل، تهتز يدي، أنسى ما وصلت له من احتسابي لوقت غيابهم الذي أعجز عن اعتباره طويل ام قصير، وفجأة

ــ منصور !!

يتوقف الزمن والعالم من حولي، صوت يناديني، لا ليس تخيلات، الصوت يأتيني من داخل الزنزانة ورائي، ألتفت، يسقط المفتاح من يدي خارج الزنزانة، أرتعش وتهتز عظامي

ــ أبي !!

اقترب منه متناسياً ما علي أن أفعله الآن، تسقط دموعي وتذوب الأرض من تحت قدمي، كل العالم يجذبني لأتوقف، أقف أمامه أمد يدي نحوه أريد لمسه فيتحول إلي ورود تفرقها رياح الصحراء وتخطفها لخارج حبسي من النافذة، تتفرق فلا أرى صورته فيها، أنهار على ركبتي أرضاً أبكي، أبكي غير مبالٍ بالعساكر الذين ألتقطوا المفتاح من على الأرض أمام الزنزانة، أبكي غير مبالٍ بخطة الهروب،

أصرخ بأعلى صوت لي، ليسمع كل من على الأرض أن هناك قلباً يحترق، أن هناك حروب تدمر وتنهش جسدي من الداخل

لماذا ؟!، لماذا قرر أبي أن يأتيني الآن ؟! تركني وحيداً وأنا أتعرض للظلم، وأنا أدخل سجن ليس لي قدر لبنة واحدة منه ذنب، والآن يأتي، لو أطال الجلوس لقال لي لا تهرب إن هذا شر وأنت لا تفعل الشر، ألا يدري أن الحياة لم تعد مثلما يعتقد ؟! إن الناس أشرار، الشر صاحب منازلهم والخير عابر سبيل، إن الناس تكره الخير كرهم الموت، حتى من أظهر الحزن على هذا الشاب الطيب الذي تمت معاقبته ظلماً ليس غريباً أن ينسوا وأن يحيوا حياة هانئة هادئة، لا يبالي أحداً لحزني ولا لحياتي البائسة، ولن يبالوا كذلك لمماتي

مع أول خيط لفجر هذا اليوم، ومع نوم آلاف الناس آمنين في مساكنهم، قرر شخصاً شريد بمعتقل نائي أن يستسلم ويلقي زمام قدره، إن فشلت في الهرب ولم أقدر عليه، فليس صعباً على أحد أن يقطع شرايينه، منذ أربعة أيام لم أبرح مكاني، والآن اتحرك لأقطع هذه الصفيحة الصدئة من ماسورة الصرف الصحي التي توجد في المنطقة المظلمة، وقربتها ليدي وأغمضت عيني أردد:

ـــ سامحني يا الله، لا استطيع العيش، لا استطيع

وبحركة مهتزة ابدأ ... ثم .....

***

الساعة ٣:٠٥ م

– مشكلة من يروي شيء عن قرب موته إنك تعلم أنه سينجو وإلا لما وقف أمامك حتي يرويها لك

– نعم معضلة أدبية عتيدة، ولهذا كانت التفاصيل مهمة، لولاها ما فائدة أن أخبرك بأن هناك شخص دخل السجن ولكنه قاوم ليخرج ويصبح من أنجح الشخصيات، لا تصلح حتى لتكون قصة تؤثر

– بالفعل، كيف كان أباك ؟!، كيف ظهر هكذا ؟!

أعتدل في جلسته وقال:

– كان هو بكامل هيئته، لم يتغير فيه شيء منذ أن تركنا، حتى ملابسه وشعره، لا أدري لماذا جاء في هذه اللحظة بالذات، وأساساً لماذا أتحدث عنه كأنه شخص حقيقي، أنت تفهم ما أتحدث عنه ؟!

- نعـم، صحيـح أنـا مشـغول بهيئتـه وكيـف جـاء حتـى نسـيت أنـه تخيـل مـن صنـع عقلـك

- بالفعـل، قـد وصلـت إلى مرحلـة تخيـل وجـود شـخص يحـاورني

- الأمـر غريـب بالفعـل، دعنـي أطـرح عليـك سـؤالاً آخـر ثـم سـأدعك تكمـل قصتـك، مـا الـذي دفـع بـك لحظتهـا للانتحـار؟

- الضعف !

- بمعنى ؟!

- كنـت ضعيـف لا يقـوى عـلى الحيـاة، أتعلـم عندمـا لا يقـوي المـرء عـلى العمـل، مـاذا يفعـل ؟! يتركـه، عندمـا لا يقـوى المـرء عـلى علاقـة بينـه وبـين آخـر، يتركهـا، وهكـذا كنـت، كانـت الحيـاة بالنسـبة إلى هـي الزنزانـة وحسـب، وقـد مللتهـا حـد الاختنـاق

صمت قليلاً ثم أردف:

- أعلـم إنـه تفكـير شـاذ، بعيـداً عـن الجانـب الدينـي منـه ولكـن فكـرة أن تقـضي نحبـك بإختيـارك هـي فكـرة شـديدة

الغرابـة وشـديدة الشـذوذ الفكـري والتطـرف الإنسـاني، تعتـبر بمثابـة إنتقـام مـن النـاس عـلى نفسـك

- صحيـح، حسـناً دعنـا نكمـل القصـة أو بالأحـرى نكمـل تفاصيـل القصـة التـي تغـير نظرتنـا إلى الـكل

- هكذا صرت تفهمني

***

(١٩)

«أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ (١١٥) فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ (١١٦)»

يرتفـع صـوت الراديـو مـن الطابـق السـفلي لأول مـرة بمحطـة القـرآن الكريـم تبـث قـراءة الشـيخ عبـد الباسـط عبـد الصمـد لآخـر سـورة المؤمنـون، ألقـي بالقطعـة عـن يـدي أو تقـع هـي، أتكـوم عـلى نفـسي أهمـس:

- لم يخلق الله احداً عبثاً، ولم يخلقني أنا ايضاً عبثاً

- لم يهبـك الله حياتـك لتحـرم نفسـك منهـا، ليـس مـن حقـك

ارتعد من هذا الصوت، أرفع وجهي لأجده مرة اخرى

- أبي !!

- رفيقك الذي يؤنس وحدتك

اعتدل في جلستي فيغيب نظري عنه ثانية واحدة فلا أجده ولكن أشعر به معي، في مكاني وقلبي وأنفاسي

مضى يومين جفت فيهما عيني من البكاء، لا تفارقني صورة الفقيدين أبي وأمي، صرت يتيماً يا عالمي، لا أعلم ما الذي جعلني أقول ذلك واذكر نفسي بيتمي، هل لظهور أبي بضع ثوان سبب في ذلك، أم أنني وأخيراً أفقت من غيبوبتي التي أخذني فيها تخطيطي للانتقام طيلة العامين لأدرك ما سقط مني او أغفلته وهو موت أمي ولحاقها بأبي، لا تزال تتردد على مسامعي كلماتها، ولا يزال يردد علي مسامعي نصائحه، عندما أحزن على وداع وفراق أحبائي لا أحزن عليهم بل علي أنا من بعدهم، علي الحب والايمان الذي تركوه غير مكتملاً في قلبي ينتظرهم بجانبه، إن الذين رحلوا رحلوا بأعمدتهم وجدرانهم وأنفاسهم، لا تعلم على ماذا تستند بعدما تركوا الدنيا آخذين منها ما تستندون عليه لتقووا على العيش فقط، والمشكلة إن من رحلوا عني لم يرحلوا بالجدران وحسب بل رحلوا بالبيوت نفسها وتركوني في العراء رغم الجدران السميكة

صباحاً أيقظني، كان هو أبي برداءه الذي عهدته يرتديه:

- بارك الله في البكور، بارك الله في البكور

أقم مستفيقاً ليس كمن استيقظ لتوه، أقول له:

- وما فائدة البكور فيما يحدث لي؟

- ما يحدث لك هو نعمة

استشعر رغبته في أن يطول الحديث بعدما استشعرها مني

- نعمة ؟! كيف لهذه المحنة أن تكون نعمة ؟!

- صدقني سيأتي اليوم الذي ستعلم فيه أن ما يحدث لك هو تهيئة لما ستكون عليه

- ما أريد أن أكون عليه هو أن أكون مجرد شخص مسالم يأتي ويرحل عن العالم دون أن يُذكر بخير أو شر

- إن كان هذا ما تريده، فالله لا يريد لك إلا العزة والأثر الطيب في الأرض

- ثم .. ثم ماذا تقصد بالتهيئة ؟!، هل يجب أن أموت حتى أتهيأ للعيش بصورة جيدة، هل تحرق البذور وتريد غرسها لتخرج لك ثمرة ناضجة أو شجرة عالية ؟! أي منطق هذا ؟

- منطق البذرة التي تحملت الحريق ونجحت في مقاومة تأثيره هي البذرة التي ستُخرج أعلى وأثمر الاشجار، لقد تحملت أقصى شيء وبالتالي ستتحمل ما دونه

- كلامك ليس له معنى

- كلامي فيه كل معنى، ما يحدث لك الآن ما هو إلا رسالة تؤكد وتوضح لك مذاق المرارة والتعب مذاق الذل والضعف والانكسار، تقول لك هذا الجحيم، وتطلب منك أن تفر منه إلى الخلاص والجنة فرارك من الأسد إلى الأمان

- إن الأمر ليس بالسهولة التي تتحدث بها

- بالطبع نعم، ولذلك لا يتعرض كل الناس إلى ما أنت فيه، هناك من هو آمن في بيته لم ولن يواجه المصاعب، سيأتي ويرحل دون أن يكون له ذكر في الأرض، إن كنت تريد ذلك فأنت لست ابني، ولا تستحق أن تحيا على الأرض بعد ذلك

- إن الطريق صعب وطويل

- إن لم تتحمل صعوبته وإن لم تصبر على طوله فلا تستحق متعة الوصول للنجاح .. أتعلم ما مشكلتك ؟!

- أتعلم أنت ما هي مشكلتي، مشكلتي أني أُقاوم، أُقاوم

كل شيء يجذبني للخلف، كان علي أن أنساق مع التيار حتى لا يحدث لي مكروه

- بالطبع لا، بل مشكلتك إنك ضعيف، تخاف القوة، طيلة حياتك تحيا حياة تحسبها حياة كفاح وتعب ورحلة نجاح، وأنت لا تعلم أن ما حدث معك في الماضي هو مجرد مواقف بسيطة ربما يمر الكثير بها، ولكنك لم تعلم إن ما أنت فيه الآن هو الكفاح الحقيقي، لقد كنت موهوم، فحرر نفسك من ذلك الوهم

- ... إن الأمر ليس بيدي، بل بيد من يسجنني

- يا بني لا تعرج !

- أعرج ؟!

- ألا تعلم إن كل إتكاء على غير الله عرج؟

- حسناً، حسناً، سأصدق ما تقوله وسألتزم به وسأصبر على حبسي هذا، ولكن ماذا بعد ؟، لن أخرج من هنا إلا ميت

- إن الذي رفع السموات بغير عمد، وخلق البشر مختلفين، وأطعم الدودة العمياء في قلب صخر في قلب محيط، لن يعجز أن يخرجك من هنا، لن يعجز أن يغير

نواميس العالم من أجل عبداً آمن بقدرة الله على كل شيء، لأنه الحفيظ اللطيف، ألم تفهم معنى البيت القائل :

ألزم يديك بحبل الله معتصماً ... فإنّه الركن إن خانتك أركان

- لم أعد أملك القوة كما كنت سابقاً

- لم يملك أحداً من الفانيين أي قوة يوماً ما، بل مده الله بها

- ظروفي قاسية، أقسى من أي ظرف قد يتعرض له أحد

- ليست أقسى من النبي يونس في ظلمة الحوت، ولا أقسى من النبي إبراهيم في ذبح ابنه، ولا أقسى من النبي زكريا في جوف الشجرة، ولا من يوسف في سجنه، ولا من سيدتنا مريم في عرضها، ولا من نبينا محمد في التعذيب الذي تلقاه من المشركين، ولمَ أضرب لك الأنبياء مثلاً، فذلك لأنهم أقرب البشر إلى خالقهم، فماذا عن البشر الآخرين ..... تذكر معي لطف ربك بك

- لم تمر حياتي إلا بالتعاسة في كل محطة

- تعاسة !!، ألا تتذكر حفظ ربك ولطفه وقوته لك على مدار حياتك تلك، يوم الحادثة حفظك بألا تصاب بطعنة تودي بحياتك، يوم المحاكمة لطف بك بألا يحكم عليك بالاعدام فسجنت ولكنك لازلت حي، يوم قررت الانتحار أمدك بالقوة لتصل لمعنى إنك لم تُخلق عبثاً، إنه معك دوماً

- ليتني قُتلت يومها، ليتني أُعدمت يومها، كان أهون مما أنا فيه

- ستدرك يوماً ما إنك كنت خاطئاً، ستدرك أن ما أنت فيه خير

- نعود إلى نقطة البداية، كيف يكون ما أنا فيه خير

- سأطلعك على سر من أسراري، ستخرج من محبسك هذا، وستنعم بكامل الحرية التي سلبوك إياها يوماً ما، وسيتغير الواقع، وستصبح ذو شأناً عظيماً في الحياة الجديدة، ولن يتكرر هذا الظلم ثانيةً معك أو مع أي شخص آخر، ما أريدك أن تعلمه هو إنك ستحرر عاجلاً أم آجلاً، ما عليك الآن هو أن تستغل ذلك الوقت في التعلم، في التكيف، في التغيير، حتى إذا ما جاء نصر الله تكون مستعداً

في تلـك الثـواني تفكـرت فيـما يقولـه بمنطـق التخيـل لا بمنطـق النقـد والرفـض، فرأيـت أن هـذه النهايـة جيـدة وجميلـة وتناسـب بديتـي وقصتـي، فقلـت في إرتيـاح وقـد بـدا عـلي الرضـا:

- حسناً، أوافقك .... من أين أبدأ ؟!

- من أول خطوة على طريق نفسك، أنر قلبك !!

غلبني النعاس فأغمضت عيني وسمعت همسه يقول:

- نام، غداً ستدر لك هذه الزنزانة أعظم الكنوز

- أخي منصور القدوة الكبير :

« كنـت مخطئـة يـا منصـور في تقديـر أن العـالم بـات فاسـداً لا يصلـح لأمثالنـا، لم أكـن أدرك أننـا لسـنا أقليـة بـل نحـن قـوة هائلـة تحتـاج تغيـير مسـارها مـن الـكلام إلى السـيف، إن مـا ينقـص الحـق هـو سـيف عـلى جانبـه أو أنيـاب فتاكـة يشـهرها أمـام الباطـل ليريـه قوتـه فينتـصر ويسـود، لم أتلـقَ منـك أي رسـالة ولكنـي مـا حييـت لـن أعتقـد ولـن أفكـر ولـن أشـارك أحـداً فكـرة موتـك، يـوم مماتـك هـو ممـاتي أيضـاً ومادمـت أنـا حيـة أُرزق فلازلـت أنـت أيضـاً إلى مـا شـاء الله، ربـما تغـيرت عقليتـي مـع مـرور الوقـت، لم أعـد أعتـبر النـاس أمـوات بـل أراهـم الآن ضحايـا، لهـم ولغيرهـم نصيـب في جعلهـم كذلـك،

صرت أداوي أمـراض أبدانهـم عـلى أمـل أن أعالـج أمـراض نفوسـهم أيضـاً، لربـما أنـت مجهـد مـن وجـودك وحيـداً بدوننـا لهـذا الزمـن، ولكنـي أعزيـك بـأني أتحـدث لـك كل ليلـة أخبرك كيـف كان يومـي، اسـتأذنك قبـل قلبـي، وأطيـع أمرك بعـد الله، أنـت معـي أنـا فـلا تقلـق، وأيضـاً حتـى لا أنسـى لقـد رأيـت أبي في منامـي يخـبرني إنـك تتجـدد ويتغـير جلـدك ويعلمنـي بأنـك تنفـض الغبـار المتراكـم عليـك وتكـسر القيـود، وفي ليلـة أخـرى نادتنـي أمـي تقـول إنـك لسـت وحيـداً في مكانـك بـل معـك آلاف القلـوب المظلومـة تعتمـد عـلى صـبرك الـذي يمدهـم بالحيـاة التـي لم يعيشـوها إلا ناقصـة وتخـبرني بـأن كنـوز حياتـك سـتجدها في هـذه الزنزانـة، وأنـا، أنـا أحلـم بـك كل فـترة ممسـكاً بفـأس تكـسر أصنـام وافـق النـاس عليهـا، أو أراك أحيانـاً تسـقي ورداً في زنزانتـك لتصبـح أفضـل حديقـة رأيتهـا في حيـاتي، أُذكـرك يـا منصـور إن الليـل اذا طـال حتـماً سـيقتله النهـار، وحتـماً سيسـقط الليـل صريعـاً بـين أقدامـه، حتـماً سيسـقط، حتـماً سيسـقط «

عندمـا وقفـت أنظـر إلى قطعـة الجـير الأبيـض التـي أرسـم بهـا، وجدتهـا قـد فنيـت وأسـتحالت إلى رسـومات وخطـط هـروب وخطـط انتقـام وتعذيـب لم تنفعـنِ بـشيء، ألحـظ عـودة بعـض الألـوان لمخيلتـي، وألحـظ وقـوف الحـَمام عـلى الشـباك،

ألحـظ الريـاح الهادئـة التـي اقـترب مـن تسـميتها بالنسـيم، ألحـظ أنني صرت المُـضيء وسـط العتمـة، ألحـظ أننـي مـا بـت أريـد الإنتقـام، أردد وأنـا أُلقـي قطعـة الجـير الصغـيرة بعيـداً في الركـن المظلـم

- يبـدو أن تخطيطـك للانتقـام سـيفعل في حياتـك مـا فعـل في قطعـة الجـير.

تتقافـز في ذهنـي كلمـة « عُـد « ولا أعلـم لمـاذا فأقولهـا مستغرباً مـن لسـاني الـذي ينطـق بـما لم يأمـره مخـي، لا أعلـم في أي فصـل نحـن ولكنـي أعلـم أن السـماء تمطـر ثلجـاً بالخـارج، أقـف أمـام الشـباك فيلفحنـي الـبرد، ابتسـم لنـزول تلـك الندفـات البيضـاء التـي لم تدنـس بعـد ولم يلمسـها أحـد حتـى الآن، لذلـك أبتسـم، أبتسـم لطهـارة شيء جديـد لم يصـل الـشر إليـه بعـد، لبرهـة شـعرت أن هـذه النقـاط البيضـاء تعرفنـي، تتشـكل وتتآخـى فيـما بينهـا لتجـبر خاطـري، أُسـافر عبرهـا فـأرى أمـي وأبي، مـروة وعمـر ود.رشـاد زنازيـن وسـجانين، مطرقـة القـاضي تحكـم، أصـوات غاضبـة تكـسر القضبـان، تتبـدد الغيـوم لتظهـر مـن خلفهـا نجـوم كبـيرة تزيـن الظـلام، حمـام وحريـة، و .... وأنـا، جسـداً مُعلـق في قضبـان الشـباك ينظـر في الأفـق، ينتظـر، يؤمـن، يصـدق

في الصبـاح جـاء الحـارس بالطعـام، أكلـت كمـن لم يـأكل منـذ ولِـد، ثـم جـاء بكـوب المـاء كالعـادة، فأختزنـت منـه قطـرات توضـأت بهـا، أنـا لم أصـلِ منـذ .. منـذ ... توقفـت أحـاول عـصر مخـي عـن آخـر مـرة صليـت، لا أتذكـر ربـما شـهر أو شـهران أو ربـما عـام بـل ثلاثـة أعـوام، فجعـت لهـول الفكـرة، ثلاثـة أعـوام كاملـة لم أسـجد لـربي، صرت أرفـع صـوتي عسـى أن تذكـرني الحوائـط

- ولمـاذا لم تصـلِ هـذه المـدة ؟!، إنتقامـك لم يـسرق عمـرك وحسـب بـل سرق درة أمـك فيـك

أُذكر نفسي بقولها:

- صـلِ، إذا لم تجـد مـكان صـلِ الأرض مسـجداً، إذا لم تجـد مـاء تيمـم وصـلِ، إذا لم تجـد تـراب صـلِ لله يغفـر لـك عـدم مقدرتـك، إذا تقطعـت قطـع اجعـل القطـع تسـجد وتسـبح لله

كنت دائماً اسألها:

- حتى وأنا قطع أُصلي، كيف ؟

ترد بعدما تبعد شر التقطيع عني:

- يـا بنـي مـن صـلَ وهـو قـوي، صلـت لله أعضـاؤه وهـو ضعيـف

أهـز رأسي لهـا، مسـتذكراً صـورة شـيخ مـن شـيوخ حارتنـا، عندمـا مـات قـال النـاس أن روحـه فارقـت جسـده وهـو يتمتم بذكـر الله، قـال النـاس أن يـده اليمنـى لم تسـتجب لطلـب المغسـل لفردهـا عـن حالـة إصبـع السـبابة الموحـدة لله ولا يـده اليـسرى عـن حالـة التسـبيح بعقـل الأصابـع التـي لم تفـارق يـده طيلـة رؤيتـي لـه

***

الساعة ٣:٣٠ م

صمتنـا كـي نـردد آذان العـصر، وبعدمـا انتهينـا قمنـا متجهـين للمسـجد في نهايـة شـارعه، وفي خروجنـا مـن منزلـه، سـألته:

– مـاذا كنـت تقصـد بـأن زنزانتـك تـدر عليـك كنـوزاً لا تقـدر بثمـن ؟!

– ألم تـدرك هـذا، عندمـا قالـت أمـي بـأن هنـاك الكثـير معي في وحـدتي، كانـت عـلى حـق، وعندمـا قـال أبي بأنهـا سـتدر عليـك كنـوزاً يومـاً مـا كان يقصـد ذلـك، كانـت كنـوزي هـي اليقـين، الـذي غُـرس في الزنزانـة مـن الآلاف والملايـين قبـلي، حتـى آتي أنـا وأحصـده

خرجنا للشارع شبه الفارغ فقلت له:

- يقينك بخروجك من السجن ؟!

- يقيني بقوتي التي أمدني الله بها

- هـل كنـت تؤمـن بوجـود هـؤلاء الآلاف والملايـين معـك بالزنزانـة ؟!

- بالطبـع، وذلـك لأننـي شـعرت بأنفاسـهم، وشـعرت بندائهـم لي

خلعنـا نعالنـا، ودخلنـا المسـجد صلينـا ثـم أكمـل حديثـه، وكأن هـذا الرجـل خُلـق ليسرد القصـص، في أي مـكان وأي وقـت، فحمـداً لله أني اخـذت المسـجل مـن حقيبتـي قبـل الظهـر، حقيبتـي العزيـزة لقـد نسـيت أمـرك تمامـاً، بعدمـا ينتهـي لابـد أن اذهـب لشركتـه حتـى أأخذهـا وأعـود

***

(٢٠)

أفيق من نهر الحنين الغالي على صوت يصيح:

ــ منصور .... ما الذي أتى بك إلى هنا ؟!

أرفع وجهي فلا أتبين من يمسك به العساكر ليدخلوه الزنزانة التي أمامي، قد صار بصري ضعيفاً، فأتقدم إلى هناك أراه بوضوح بعدما دخل الزنزانة وأغلق العساكر الباب ورحلوا، الوجه العجوز وجه شخص شعرت بصدقه رغم كل من ظنوا به الظنون، هو وجه مدير الشركة التي كنت أعمل بها، ماذا كان اسمه ؟! فشلت في التذكر، لكنه ذكرني بقوله:

- منصور ؛ أنا عبد الحميد سلطان، مديرك القديم، نسيتني ؟!

تعجبت أنا من معرفته لي بهذا الجسد الواهن والشعر الكثيف فأومأت برأسي قائلاً:

- لا، لم أنساك ولكنني مندهش من وجودك هاهنا

- إنها قصة طويلة سأحكيها لك فيما بعد، المهم هو أنت، ما الذي جاء بك إلى هنا؟

- كل هذا حدث معك ؟!

قالها بعدما قصيت عليه قصتي من يوم مفارقتي له حتى مقابلتي إياه مرة أخرى، أمسك برأسه من شدة هول ما سمع، هول عليه، قصص أطفال علي، كنا نفترش الأرض أقصد كنت أفترش الأرض كانت زنزانته مفروشة بالكليم الثقيل ولكني لم أُمانع جلوسي على الارضية المتحجرة المتجمدة طالما أُمنح فرصة الحديث إلى كائن حي يشبهني فهناك أعوام مرت دونما حديث مع أي إنسان سوى العساكر الذين كان نصف كلامي معهم سب وشتم ولعن

على كل حال بدون أن أُبادله أنا السؤال لأطلب منه قص قصته، بدأ في شرح ما حدث:

- يوم تم تسريحنا من الشركة كنت أعلم أن الأمر مجرد استثمار واستبدال إدارة بإدارة أخرى فقط ولا شيء آخر، ولكن منذ سبعة أشهر كان عرس ابنتي الكبرى، وبعدما

انصرفت من المنزل وجاءوا لينظفوا غرفتها وجدوا أوراق قديمة لي تخص الشركة، عندما تفحصت الأوراق تبينت أن هناك خطأ في حسابات بيع الشركة، لقد علمت أن السعر الذي تم شرائها به هو ٧٥٠ ألف جنيه عندما وقعت على العقد، بصفتي قد كنت مدير عام الشركة وقتها

صمت قليلاً فتحدثت:

- وهل سجنوك لأنك عرفت الرقم الذي تم الشراء به

- بالطبع لا، إنما سُجنت لأنني عرفت الرقم الحقيقي وطالبت بالتحقيق في الأمر، أينعم قد مر عليه كثيراً ولكن لا يهم طالما كانت لدي الأدلة الورقية التي تثبت صحة كلامي

- وما هو الرقم الحقيقي؟

قال بصيغة الفوازير:

- خمن ؟!

- أستاذي، أنا سجين مؤبد فعلاً، ولكن ليس هذا معناه أن أقضي وقتي في تخمين إجابتك، قلها إذاً؟

- حسناً، ٨

ابتعدت عن فكرة أنها ثمانية آلاف ولكني توقعت أن يكون أكثر فسخرت من الرقم وتهكمت عليه:

- ٨٠٠ ألـف، وهـل الـ ٥٠ ألف تفرق معك كثـيراً لهذا الحد؟

رد بجدية:

- ٨ مليون جنيه

بـددت الصدمـة سـخريتي الأولى، الصدمـة ليسـت لعـدم تركيـب الرقـم عـلى الشركـة التـي كنـت فيهـا، الشركـة التـي غالبـاً تتأخـر في تسـديد المرتبـات لموظفيهـا، ولكـن الصدمـة للرقـم نفسـه أنـا لم أعتـد كلمـة مليـون تلحـق برقـم إلا مـع أرقـام السـكان، أمـا الأمـوال فـلا، صرفـت صدمتـي فقلـت:

- وكيف جئت إلى هنا؟

- عندمـا توجهـت للنائـب العـام بـالأوراق التـي أسـتطعت تجميعهـا مـن أشـخاص متفرقـون بالإضافـة إلى الأوراق التـي كانـت بحـوزتي، تـم رفـع قضيـة كبـيرة وبـدأت الصحافـة بالدخـول في تفاصيلهـا، وربـما تـم فتـح ملفـات شركات أخـرى غـير شركتنـا تـم خصخصتهـا وبسـعر لا يتعـدى عُـشر قيمتهـا، وفي يـوم جـاءني شـخص لم أعـرف مـن هـو حتـى الآن عـرض عـلي الكثـير مـن المـال ولكني رفضـت، وسـارت القضيـة ولكن تبعتهـا قضيـة أخـرى قضيـة مخـدرات تـم إيجادهـا في منـزلي، كانـت في حقيبـة ابنتـي لـذا كانت هـي المتهمـة، وحتـى أخرجها مما هـي فيـه فرطـت في نسـخة مـن الأوراق لـدي خادعـاً إياهم

إنها كل ما معي، ولما خرجت وتبين أنني لازلت أملك نسخاً كثيرة تم القبض علي بتهمة التحريض على الإضراب العام والإضرار بمصالح الدولة، كانت النتيجة أن يحكموا علي بالمؤبد، يومها قال لي ذلك الرجل أنهم سيكملوا ما بدأوه علي ،على ابنتي وزوجتي ما لم أُسلم لهم كل النسخ التي لدي عن هذه القضية دون مراوغة، قلت له يومها أنني سأعطيه كل ما عندي مقابل شرط اشترطه عليه

أومأت برأسي قائلاً بلهجة تهكمية:

- أن تحافظ على بناتي وزوجتي ولا تمسهم، صحيح ؟!

أعاد بصره علي بعد أن كان مُحلقاً في سماء الزنزانة

- بالطبع لا، كان شرطي هو هذا

وأشار بيده إلى التلفاز في زنزانته

- كان شرطك هذا التلفاز ؟!

- وفرش الأرض أيضاً

- أنت غريب بالفعل كما كان يصفك الموظفون

- أنا أعلم أنهم لن يمسوا أهلي خاصة وأنهم ليسوا رجالاً سيطالبون بحقوق أبيهم فور إختفاءه، لذا دعني أقضِ بقية أيام حياتي في عيشة هنية قليلاً

أدار رأسه يسندها على الحائط خلفه، كان يريد أن ينام ولكني لم أعطيه الفرصة

- عم عبد الحميد، استيقظ، هل ستنام وتتركني، أريد أن اتحدث معك قليلاً

- أنا مرهق من الرحلة إلى هنا، أريد أن أرتاح بعض الوقت، ولكن على كل حال هات ما عندك، ماذا تريد أن تقول ؟!

- أريد أن أسألك عن الخارج، أسدي إلي خدمة وصف لي الحياة والجو بالخارج

- الجو، صار الشتاء أبرد وصار الصيف أحر

- لا .. لا، أقصد أن تصف لي الشمس، الهواء، الناس، الألوان، هل تغيرت تلك الأمور منذ أن كنت بالخارج؟

- أتشتاق للخروج ؟!

- ربما

- حالما تتأكد من شوقك للخارج، سأحدثك عنه

وأغمض عينيه ولحظات وسمعت صوت شخير يخترق أذناي، حسناً هذا ما كان ينقصني، ولكن على الأقل صوت إنسان غير الأصوات داخلي

اليـوم الأول في الشـهر الثـاني مـن العـام ٢٠٠٩، هكـذا كان تاريـخ اليـوم التـي أرسـلت مـروة خطابهـا الـذي لا أذكـر رقمه بـين الخطابـات الـواردة منهـا دون رد، لم يكـن هـذا الخطـاب مُغلفـاً في مظـروف ولكنـه كان ورقـة فكـرت في أنهـا كانـت مُلصقـة عـلى شيء آخـر، تخبرنـا نـشرات الأحـوال الجويـة ان تاريـخ هـذا الخطـاب مـضى عليـه مـا يزيـد عـن الشـهران، الأغبيـاء بالأسـفل لا يدركـوا أهميـة حـرارة المراسـلات، يناديني العجـوز أن أقـرأ الرسـالة بصـوت عـالٍ حتـى يسـمع، فأذجـره أن قريبـاً سـيأتيه رسـالة مـن أهلـه هـو ايضـاً ولـن أطلـب منـه أن يُسـمعني إياهـا، يصمـت، فأرفـع رأسي لـه، يبـكِ، اقـترب أكثـر مـن القضبـان فأسـمعه يقـول:

- قريباً هذا لن يأتِ، لقد نسوا العجوز يا منصور

أُطمأنه بقولي له مُناكفاً:

- أنا لم أنساك يا عجوز

يبتسـم ابتسـامة بسـيطة، تذكـرني بحـوار دار بينـي وبـين أختـي مـروة منـذ أعـوام طـوال، عندمـا سـألتها عـما تعلمتـه في يومهـا فتحدثـت عـن التصدعـات الهائلـة التـي تحـدث في جوف أرضنـا، ولا نشـعر إلا باهتـزازات خفيفـة عـلى السـطح، هكـذا شـعرت معـه، إن المـرء لتحـدث في جوفـه أعتـى التصدعـات،

ولكـن لا يظهـر منهـا عـلى وجهـه إلا ابتسـامة تكلـف أو مجـرد شرود ذهـن

أبـدأ بقـراءة الورقـة بصـوت عـالي فيتهلـل وجهـه أكثـر، هـذا الشـعور الطبيعـي عندمـا تقـرأ أو تسـمع صـوت شـخص غـير صـدى صوتـك الخارجـي وأثـير صوتـك الداخـلي

« أخي منصور القدوة الكبير، أزف إليك أخباراً سعيدة

حصلـت عـلى خمسـة كتـب مـن مكتبـة د.رشـاد خاصـة بالكهربـاء، ولا تسـألني كيـف حصلـت عليهـا، أنـا لا أعلـم إن كانـت الكتـب سـتصلك أم انني ألقيـت بهـا بيـدي إلى التهلكة، ولكنـي أدعـو الله أن تصـل لـك لتدرسـها بـكل مـا فيهـا، أرسـلت لـك مصحفـاً وكتابـين خاصـين بالفيزيـاء الشمسـية وكتابـاً خاصـاً بصفـات التيـار الكهـربي، وكتابـان خاصـان بتوليـده، وكتـاب أخـير يحبـس الأنفـاس مـن فـرط الغمـوض والرعـب والإثـارة، ليصلـك سـتة كتـب ومصحـف لا أقـل مـن ذلـك، أدعـو الله أن نجتمـع قريبـاً، أختـك المخلصة مـروة «

نظـر لي الرجـل في سـعادة شـديدة، كأن الرسـالة قـد جـاءت إليـه هـو، تبـين نظراتـه حالـة حسـد أو غبطـة عـلى مراسـلاتي تلـك، فهـو لم يتسـلم رسـالة منـذ أن جـاء إلى هنـا، أواسـيه بقـراءة الرسـالة معـه وتواسـيني مـروة بهـذه الرسـالة، واقـع

ساخر، كانت الرسالة قصيرة ولكن محتواها كبير للغاية، محتوى سوف يُريحني من متاعب كثيرة، ظللت أنادي على العساكر حتى أتى واحداً منهم يسب ويشتم:

- ماذا تريد يا مجنون ؟

- أين الكتب التي جاءت مع الرسالة يا ابن ..... ؟

- سوف نأتيك بها قريباً بعدما يراها المأمور ؟!

- شهران !! ولم يرهم هذا الوغد بعد، أخبره بأنه لن يفهم حرفاً منهم فليأتِ بهم إذاً حتى لا يحترق من المعلومات بهم

- وهل لازالت لك رغبة في مطالعة الكتب وأنت في السجن ؟

رد عبد الحميد عليه:

- وما دخلك أنت ؟

انصرف العسكري بعدما تلفت لكلانا وقال:

- مجانين !

***

(٢١)

جـاءت الكتـب بعـد يومـين بقيـت فيهـا اسـتمع مـع صديقـي إلى التلفـاز، اسـتعجب أن لا أحـد يتحـدث معـه عـا يسـمعه، فأحيانـاً يسـتمع إلى الأفـلام وأحيانـاً إلى المسلسـلات وأحيانـاً أخـرى إلى البرامـج الحواريـة السياسـية التـي لا تتحدث غالبـاً في السياسـة، يرفـع « الايريـال « عـلى شـباك الزنزانـة، لا يتحـدث معـه أي شـخص عـن الكهربـاء التـي يسـتعملها أو عـن الصـوت الـذي غالبـاً يرفعـه لدرجـة كبـيرة وقـت الليـل أمـا ليتمتـع هـو أو ليضايـق العسـاكر التـي تنـام ليـلاً كـما لـو كانـت في بيوتهـا، عـلى كل حـال عندمـا جـاء عبـد الحميـد عـاد عقـلي مـرة أخـرى إلي، يحدثنـي عـن كيـف يـؤدي الصمـت والعزلـة والفـراغ المطلـق إلى الجنـون، هـو لا يعلـم شيء لأنـه لم يجلـس وحـده ولا ثانيـة فمنـذ جـاء لم يفرقنـا سـوى النـوم، فحتـى الصـلاة كنـا نصليهـا جماعـة رغـم بعدنـا عـن بعـض،

أكـون أنـا الإمـام، ليـس لـشيء سـوى أن زنزانتـي تسـبق زنزانتـه في القبلـة حسـبما اسـتدللنا بـشروق الشـمس، ولكـن وكـما يقولـون دوام الحـال مـن المحـال ومنـذ جـاءت الكتـب لم أعـد أواظـب عـلى جلسـتي مـع الشـيخ، إذ صرت أقـضي اليـوم منـذ بدايتـه إلى نهايتـه أقـرأ وألخـص مـا أقـرأه، اذهـب إلى الزاويـة وأردد مـا حفظتـه مـن الكتـب، وسريعـاً وجدتنـي لم أنتـهِ مـن قـراءة كتـاب عمـلاق فقـط بـل حفظـت كل مـا فيـه، مضـت الأيـام عـلى هـذا الحـال لا يجمعنـي بالعجـوز إلا تلفـازه عندمـا يسـتمع إلى الأخبـار والصـلاة في وقتهـا، فمنـذ التلفـاز صرت أعلـم الوقـت والتاريـخ، وقـراءة أجـزاء مـن أعـداد السلسـلة العبقريـة « مـا وراء الطبيعـة »، أرى في عينيـه روح الطفـل عندمـا اقرأهـا عليـه، إن أختـي العبقريـة جلبـت عـدداً كبـيراً مـن نسـخها وجعلتهـا مجلـد يشـبه المجلـدات الأخـرى، واكتفـت بقـول أن هنـاك كتابـاً يحبـس الأنفـاس مـن فـرط الغمـوض والرعـب والإثـارة، هـي تعلـم أنني لطالمـا أغرمـت بهـا وببطلهـا العجـوز الـذي يشـبه عجوزنـا أمامـي، الغريـب أننـي لم اسـأل نفسـي السـؤال الطبيعـي الـذي لابـد ويخطـر عـلى بـالي وقتهـا

– لمـاذا أفـرح بهـذه الكتـب، وسـأبقى لأبـد الأبديـن في هـذا السـجن ولـن أطبـق شـيئاً ممـا سـأتعلمه ؟!

لعــل شــعور الأمــل الــذي أصــاب قلبــي مؤخــراً، لازال هنــاك منــه أجــزاء لم تخــرج

ينادينــي حتــى أرى مــا يحــدث عــلى التلفــاز، أجلــس بجــوار القضبــان أُشــاهد في صمــت

قطــاران صــارا قطــاراً واحــداً في منطقــة العيــاط، ثلاثــين قتيــلاً وســتين مصابــاً والكثــير مــن الــدم والبــكاء، كنــا في اكتوبر ٢٠٠٩ وكان الحــدث الأبــرز عــلى الســاحة هــو هــذه الحادثــة، ربــما كانــت الحســنة الوحيــدة التــي أحدثهــا هــذا التلفــاز في حيــاتي هــي إدراك مــا يحــدث بالخــارج فســيل مــن الأحــداث ربــما لم أعلمهــا إذا لم أســمع عنهــا مــن خــلال التلفــاز، الصهاينــة في هجــوم بــري عــلى غــزة أرض العــزة، وصــول إنســان مــن أصــول إفريقيــة للحكــم الأمريكــي لأول مــرة، وفــاة الباحــث العظيــم مصطفــي محمــود، وأحــداث كثــيرة مضــت بالعــام الرابــع أو ربــما الخامــس ـــ لا أذكــر ـــ لحبســي عــام ٢٠٠٩، ليدخــل عــام ٢٠١٠ الــذي بــدأت أحداثــه تفتــك بعقــلي وتعيــد فتــح أبــواب الجنــون في عقــلي، أحيانــاً أُردد:

– كيف يعيش هؤلاء « الأحرار « بالخارج ؟!

ومــع مــرارة التصــور صارحــت عبــد الحميــد بأننــي مــا بــتُ أريــد متابعــة التلفــاز مــرة أخــرى ودفعــت لــه بمجلــد سلســلة

ما وراء الطبيعة لكي يقرأها هو للمرة الثالثة تقريباً بعدما كررناها أكثر من مرة معاً، لم أصير وحيداً بسبب رفقتي للكتب ولم يصير هو وحيداً بسبب رفقته للتلفاز، ومضينا

صار شعري كثيفاً جداً بعدما اعتزل العساكر عن حلاقة شعر النزلاء منذ ما يقرب من عامين لأسباب لا أعرفها ولكني كنت استعمل مقصاً صدأ كان يستخدمه أحد العساكر، مسحت الرسومات من على جدران منزلي وسرعان ما أستحالت إلى رسم خلايا شمسية ومعادلات ورسومات هندسية، صرت أتمرن برياضة يومية وبدأ جسدي في العودة إلى نصف ما كان عليه

في منتصف العام الجديد، الذي لم يبقَ جديد، أخرجني عبد الحميد من إنشغالي برسم صورة لجزء من أجزاء الخلية، رفضت ولكنه أصر

- هناك كارثة على التلفاز !

وقفت أمامه لأشاهد صورة شاب أبيض وسيم مثل الورد، وتحته كلام لم أُبصره - اللعنة، ضعف بصري أكثر -

- ما الذي حدث، لا أرى

- تم قتل هذا الشاب علي يد مخبرين شرطة في الأسكندرية، ضربوه حتى الموت ولاد الكلب

- وماذا فعل حتى يحدث ذلك ؟!

- لا شيء، اشتبهوا فيه وحسب

صمت للحظات وقلت بصوت لا يسمعه:

- وما الفارق بين ما حدث له وما يحدث لي الآن وما يحدث في طابور العيش وما يحدث على أعتاب المستشفيات

رفعت صوتي وأنا أُدير له ظهري:

- لا فرق، لا فرق

لم أهتم لسؤاله مستفسراً عن كلمتي الأخيرة، وأكملت رسمي بعدما كتبت على الحائط:

«ربيع بلادي قادم»

بدأت في تمرين الضغط ووجهي ناحية النافذة أرى الليل السجين بقضبان زنزانتي، كنا في نهاية العام وكان عبد الحميد يشاهد التلفاز كالعادة، الأخبار هذه المرة، انتفض فجأة ينادي:

- منصور، انظر ما يحدث

ألتفت إليه برأسي مع إكمال تمريني، أشاهد شخصاً يضرم النيران في نفسه، قمت واتجهت إلى القضبان سألته:

- من هذا ؟!

- شـاب تونـسي اسـمه بوعزيـزي يحـرق نفسـه لأن عربـة خضـاره وفواكهـه أخذتها الشرطـة

- وهل هذا يستدعي لحرق نفسه؟

- عندمـا ذهـب ليشـتكي صفعتـه الشرطيـة عـلى وجهـه وقالـت لـه ارحـل

استكمل كلامـه ولكنـي كنت أغـرق في بحـر مـن الصمت، ورغـم كلام عبـد الحميـد ورغـم أسـئلته عـن صمتـي، لم أجـد صوتـاً ــ حتـى لنفسي ــ إلا للجملـة التـي لم يمسـحها الزمـن ولـن يقـدر

«ربيع بلادي قادم«

يخـرج منهـا أصـوات عديـدة تنـادي وتـصرخ طلبـاً لحريـة فقـدت مـن سـنين طلبـاً لحـق الشـمس والهـواء، أصـوات عانت مـن قهـر وظلـم وسـلب القـوت، تعجـز لمسـاتي عـن إخراجهـا مـن عـلى حائطهـا، ولكـن قوتهـا تأبـى إلا أن يسـقط مـا يقـف في طريقهـا، تريـد تدمـير كل مـن ينـادي بإخمادهـا، تريـد إسـقاط النظـام، لأول مـرة أحـس بهـم، نعـم كانـوا كثيريـن للغايـة، كانـوا يعيشـون عـلى صبري أنـا، لأول مـرة أدرك أنهـم يسـكنون زنزانتـي منـذ دخلتهـا ومـن قبـل، أبي وأمـي ود.رشـاد

وعمـر والفقـراء والأبريـاء والمظلومـين والمهمشـين والمـرضى والأرامـل، كانـوا بجـواري ولكنـي لم ألحـظ ذلـك، لم ألحـظ أن زنزانتـي تـدر عـلي يوميـاً كنـوزاً لا تُقـدر بثمـن

يخرجني عبد الحميد من سكوني الذي اعتدته صائحاً:

- منصـور، التليفزيـون المـصري يقـول أن هنـاك بلطجيـة يدمـرون منطقـة ميـدان التحريـر

تركـت الكتـاب بعـد أن وضعـت القلـم بداخلـه، واتجهـت نحـوه

- هــذا وقــد أصــدرت وزارة الداخليــة أوامــر بفــض الاعتصامــات والتظاهــرات التــي تهــدف لتخريــب البــلاد ونــشر الفــوضى

كــذب ولــو كذبتنــي عينــاي، هــم يريــدون أن يصمــت الجميـع لتعلـوا أصواتهـم النشـاز وتبقـي سـائدة، ولكنهـم لا يعلمـون أن البراكـين لا تسـتأذن أحـداً لتنفجـر، الأسـد لا يهـدد الغزالـة باصطيادهـا غـداً

غـير المحطـة إلى محطـة إخباريـة أخـرى، كانـت تنقـل بثـاً مبـاشراً ليليـاً لشـباب مـن القاهـرة والأسـكندرية والسـويس، أماكـن كثـيرة وهتافـات قليلـة

جلست أراقب بشعور مختلف بأن ما يجرى هذا مختلف، وبعد قليل ملئ الضوء الأحمر الشاشة ليعلن عن خبر عاجل هو سقوط أول قتيل في السويس في هذه الاعتصامات التي أجتاحت محافظات عدة لتزيد عدد تقسيمات الشاشة، وتغيرت اللهجات وتوحدت الهتافات

«الشعب يريد إسقاط النظام»

انقطع التيار الكهربي أو قطعوه هم، تحدثت مع عبدالحميد عن شعوري تجاه ما يحدث

- أشعر أن ما يحدث في مصر هذه الأيام لن يمر مرور الكرام

- ما أقصي ما قد يحصل، لن يسقط نظام استمر أكثر من خمسة عقود بسبب هتافات شباب لم يرَ الحياة بعد

اتجهت نحو الفراش على الأرض وقلت:

- سيسقط، حتماً سيسقط

***

(٢٢)

أعـادوا الكهربـاء ليـل يـوم الأربعـاء بعدمـا فاتتنـا أحـداث كثـيرة غـيرت مسـار الأحـداث، قـوات الأمـن المركـزي تـضرب المتظاهريـن وتعتقلهـم، الحكومـة تغلـق المواقـع الإلكترونيـة التـي تجمـع الشـباب عليهـا قبـل أن يتجمعـوا في الميـدان، زيـادة عـدد القتـلى والمصابـين في الصدامـات الحادثـة في الأسـكندرية والسـويس والقاهـرة، كل هـذا وصـل إلينـا مـن إحـدى القنـوات الاخباريـة، كلهـا قنـوات ليسـت مصريـة لأن التلفيزيـون المـصري مـع دم الشـباب الـذي يسـيل كان يعـرض مشـاهد للنيـل، « كدأبـه إعلامنـا لا يشـبهنا، كأنـه في دولـة أخـرى » (*)

ومـع صبـاح الخميـس تجـددت الأحـداث وازدادت الأعـداد التـي تقـف في ميـدان التحريـر التـي تفـرض نفسـها عـلى مـن

*- التعبير مقتبس من رواية فئران امي حصة للكاتب سعود السنعوسي

ينكرهـا، أشرت لعبـد الحميـد الـذي لم ينطـق طيلـة اليـوم وقلـت لـه:

- هـؤلاء الشـباب، هـؤلاء الشـباب هـم أنـا، أنـا منهـم، يشـبهونني، يعرفوننـي، يدركـون قوتهـم التـي أمدهـم الله بهـا

قطعـوا التيـار مـرة أخـرى ولم يعـد حتـى صبـاح الجمعـة، جمعـة الغضـب، بعدمـا صلينـا الجمعـة فتـح عبـد الحميـد التلفـاز عـلى صـور حيـة مـن شـوارع وميادين مـصر البهيـة، شـباب مئـات وألـوف وملايـين ينـادون باسـقاط الفسـاد إسـقاط الظلـم والاسـتعباد ينـادون بحيـاة كريمـة وإنسـانية، انتـشرت قـوات الجيـش في الشـوارع، انسـحبت قـوات الشرطـة بشـكل غريـب ومفاجـئ، وعـلى مـدار أيـام عديـدة يتـوالى هطـول الأخبـار السريعـة عـلى رؤسـنا، الجيـش يحبـط عمليـة إقتحـام بلطجيـة عـلى مطبعـة البنـك المركـزي، تفجـير مقـر أمـن الدولـة في سـيناء، إقتحـام سـجن وادي النطـرون وهـروب بلطجيـة كُثـر منـه، ومـاذا عـن المعتقـل الـذي نحـن فيـه ؟! لا أخبـار عـن وجـوده حتـى، بلطجيـة يقتحمـون التحريـر بالخيـول والجـمال، يسـقطهم الثـوار، ثـم جـاءت جمعـة الرحيـل يصـلي المسـلمون الجمعـة تحـت حمايـة ربهـم ووقـوف المسـيحيون بينهـم يصـدون عنهـم رشاشـات ميـاه قـوات فـض الشـغب، أي قضيـة يدافـع عنهـا هـؤلاء الشـباب ! تدفعهـم

ليلاقـوا هـذا العـذاب، إن الحريـة غاليـة، ولا يدفـع ثمنهـا مـال بـل يدفـع دم وعـرق وصـبر

أيـــام وراء أيـــام إلى أن جـــاء اليـــوم الســـابع عـــشر لربيـــع بـــلادي ١٠ فبرايـــر، ســـندت ظهـــري عـــلى قضبـــان زنزانتـــي أستمع للأخبـار في صمـت يشـابه صمـت عبـد الحميـد، حتـى أذاعـــت إحـــدى المحطـــات أغنيـــة تســـمي صـــوت الحريـــة، كانـت كلماتهـا جيـدة أثـارت تسـاؤلي عـن تحـرر القبضـة بعـض الـشيء، ألتفـت أشـاهد الصـور المصاحبـة لهـا فوجـدت الميـدان والشـباب طائـرات وهتافـات و .. وعـين عبـد الحميـد التـي لا يغمضهـا أبـداً

«في كل شارع في بلادي «

– عبد الحميد .. عبد الحميد

« صوت الحرية بينادي «

– لماذا لا ترد علي، هل نمت؟

« الشباب البديع قلبوا خريفها ربيع «

– اسـتيقظ يـا عبـد الحميـد لا وقـت للنـوم الآن، ثـم كيـف تنـام مفتـوح العينـين، رد عـلي، رد عـلي

« اقتلنـي قتـلي ماهيعيـد دولتـك تـاني، بكتـب بدمـي حيـاة تانيـة لأوطـاني «

رحلـت عنـي يـا عبـد الحميـد، تركـت لي وحـدتي وشـك يطـاردني عــن عجـز ألــوان الربيــع عــن تبـدد بقايـا خريـف الفسـاد ،لم تكـن تصـدق أن الربيـع يفتـك بالخريـف، رحلـت ولم تعـرف مثـلي كيـف كانـت نهايـة العـصر القديـم، الآن فقـط قـد تأكـدت مـن شـوقي للخـارج، فأيـن أنـت يـا عبـد الحميـد لتحدثنـي عنـه !!

للمرة الثانية أرى المأمور يصعد يسب ويلعن الجميع

- أخيراً سوف نرتاح من تلفاز العجوز

أشار بيده للعساكر من خلفه

- انقلوه إلى الأسفل واغلقوا هذا التلفاز اللعين

خرج من زنزانة عبد الحميد ووجه نحوي يردد:

- لن يسقط النظام بسبب مجموعة شباب صغير

مسـحت دموعـي وألتقـط كـوب المـاء مـن عـلى الأرض وضربـت القضبـان بـه وبأعـلى صـوت رددت:

- يسقط يسقط النظام، يسقط يسقط النظام

كنتُ أوجه نظري إليه ولكني ألاحظ رجفة وخوف من حوله، تقدم نحوي إلا أنه توقف بعدما سمع نداءات معتقلين آخرين داخل الزنازين يحدثون جلبة لا تنقطع وينادوا:

- يسقط يسقط النظام، يسقط يسقط النظام

ورغم العتمة رأيته في عينيه، كان ظاهراً لكل من ينظر في عينيه مباشرةً، كان الخوف، الخوف فقط، أشعر برعشته الداخلية، أشعر بجبنه وضياعه رغم أتباعه الذين يحاوطونه، حدقت طويلاً في عينيه فأبعدها، لقد كُسر الحاجز، لم نعد نخاف، نحن الشعب نحن الأرض والوطن وهم الأغراب، بلدنا نحن وكنتم تحكموها ولم تكن بلدكم ونسكن نحن فيها، من اليوم ما عاد هناك سجان وسجين أنا اليوم حر ولو قيدوني أنا اليوم طائر ولو حبسوني، أنا اليوم ... حرية

في اليوم التالي وقفت في زنزانتي أصلي على صديقي العجوز صلاة الغائب، بعدما أخذوا جثته إلى مكان لا يعلمه إلا الله

- الله اكبر

«قريباً هذا لن يأتِ، لقد نسوا العجوز يا منصور«

- الله اكبر

« منـذ جـاء لم يفرقنـا سـوى النـوم، فحتـى الصـلاة كنـا نصليهـا جماعـة رغـم بعدنـا عـن بعـض »

- الله اكبر

« لذا دعني أقضِ بقية أيام حياتي في عيشة هنية قليلاً »

- الله اكبر

« تركتنـي وحيـداً كـما كنـت، هـل كنـت حقيقيـاً أم كنـت مجـرد تهيـؤات يصنعهـا عقـلي المريـض »

مـضى أسـبوعان عـلى رحيـل عبـد الحميـد، لم أسـمع خـبراً واحـداً عـما حـدث لربيعنـا الوليـد، لا رسـائل تصلنـي منـذ بدايـة الأحـداث، ولم أعـد أعـرف الأيـام والتواريخ كـما أعتدت عندمـا كان هنـاك تلفـاز أو عندمـا كان هنـاك عبدالحميـد

افتقـادي لعبـد الحميـد فتـح أبـواب الجنـون لعقـلي مـرة اخـرى، سـوف أبقـى في هـذا السـجن طيلـة الدهـر ولـن يبـالِ أحـد بذلـك، مـات عبـد الحميـد ولم يبـق معـي أحـد

- كيف لم يبق معك أحد، والله معك أينما ووقتما كنت

يتحدث أبي من زنزانة عبد الحميد المقابلة لي

– أهلاً بالعجوز الذي لا يمل

– وكيف أمل من أمر الله الذي إذا جاء شرح صدرك ونقى ذهنك وجعلك تقسم إنك ما ذقت نعيم قط مثل ما ستذوقه في تلك الساعة

– قلت لك يا أبي أن الأمر ليس بيدي أنا بل بيدهم هم، هم من يستطيعون إخراجي من هنا لأؤمن بما تقوله

– هل تعلم لماذا يضع متسابقي الخيل غمامة على جانبي عين الخيل، هيا رد علي؟

– لماذا ؟!

يدخل زنزانتي بلا طريقة ممكنة

– حتى تبعد نظرة عمن يسابقونه وعن الناس وعن الأرض وعن حتى المتسابق الذي يمتطيه، وتبقى عينيه على نهاية سباقه، نجاحه

– وماذا تريدني أن أفعل إذاً؟

– تبعد تفكيرك عن الناس وعن السجانين وعن زنزانتك وتفكر فيما ستفعل بعدما تخرج

– هل لازلت تصدق بأنني سأخرج من هنا، لقد أجهضوا الربيع وانتهي الأمر وسنحيا على أرض بثلاثة

فصول فقط، استيقظ من هذا الوهم، لن أخرج من هنا، ولن يفعل أحد من هؤلاء البائسين في بقية الزنازين

- لن أرد عليك أنا ولكنهم سيردوا هم عليك

أشار بيده ناحية القضبان فرأيت عساكر ولكنهم ليسوا العساكر، كانوا يفتحون الأبواب يخرجون من فيها بعدما يقيدوا يديه ويأخذوه خارجاً، فتح أحدهم زنزانتي وقدم أمامي القيود، رفعت يده وقلت:

- لا، لن أرتديها إلا على جثتي، وأياً كانت سلطتك، أياً كانت لن تجبرني على إرتدائها

تقدم من وراءه رجل أبيض الشعر والوجه وقال:

- لا تخف سوف ننقلكم للعاصمة وسوف تعاد محاكماتكم مرة أخرى، لا تقلق انتهى هذا العصر

- ماذا حدث في بلادي ؟!

- ستعرف بنفسك كل شيء، هيا دعونا نتحرك

- وكتبي هذه

- سيتم ترحيلها معك، لن يبقَ شيء في هذا المكان حتى جدرانه

خرجت دون أن أرتدي الأصفاد، نزلنا السلالم نظرت لمأمور السجن مقيد اليدين وعلى عينيه ومن معه أعتى علامات الخوف والضعف، لابد أن نظرته المنكسرة لم ترنِ بينما يدفعه أحدهم دفعاً إلى الخارج، لابد أن يديه المكبلتين أنسته كبريائه، لابد أنه لم يدرك بعد أن امبراطورية فساد ضخمة قد سقطت للتو، وصلت إلى البوابة حافي القدمين استشعر أرضاً غير أرض زنزانة لم أفترق عنها منذ زمن طويل، تلامس الشمس جسدي كله لأول مرة، لأول مرة اتنفس، لأول مرة أحيا، مذاق الحرية شديد الحلاوة، يستحق العناء .



الجزء الثالث

انفراجة

ولكن عندما يجبر الله خاطرك ستدرك كم كانت هذه المصائب هينة

الساعة ٤:١٠ م

ركبت بجواره السيارة، متجهين إلى الشركة حتى آخذ حقيبتي وأرحل من هناك لأنني حتماً سأضل طريقي إذا رحلت من منزله، كنت أشعر بأن نهاية القصة تظهر في الأفق، نهاية سعيدة ربما

- قاربت القصة على الانتهاء، صحيح ؟!

ابتسم وترك مقود السيارة يملس بيده على شعره ثم قال:

- هل مللت منها لهذا الحد ؟!

- بالطبع لا، ولكن أنت تعلم أنا أنظر كل قصة على أنني أعرفها، أعرف أن البطل سينجو لأنه نجا وحدث الناس عن قصة نجاته، أعرف أن نهاية القصة تقترب عندما نعلم جميعاً نهاية ذروتها

- مشكلتك الحقيقة هي أنك تتحدث وكأنها قصة قام بتأليفها كاتب أو مؤلف، ولا ترى أنها حدثت معي، عندما أحكي لك ذلك احكيه على علم بالخطوة القادمة، علي علم بالجملة التالية والموقف الآتي، ولكن وقتها كان المستقبل مجهول، لا تعلم الموضع الصحيح لقدماك في حقل ألغام إلا عندما تضعها ولا تموت

أقنعني قليلاً ثم أقنعني تماماً عندما أردف:

- في حلقة رعب من حلقات دكتور رفعت إسماعيل قال شيئاً يمكن أن نطبقه على موقفنا هذا، هل تذكر ماذا قال؟

- لقد جلبت معي مُسجلاً لأنني أثق أن ذاكرتي ربما تمحو نصف قصتك وتبقى على العناوين الرئيسية وحسب، ثم تسألني عن شيء ربما قرأته منذ أعوام، ذكرني قليلاً أي حلقة رعب ؟!، هم كُثر

- حلقة الرعب الأولى، العدد العاشر من السلسلة، عندما أجتمع الجميع في بيت دكتور سامي يحكون قصص خوفهم المختلفة

- كيف تتذكر هذا كله، حتى اسم الشخصية التي كانت في القصة

- ألا تذكر أنني قرأتها قرابة الثلاث مرات في الزنزانة، لقد حفظتها

- انظر !!، لقد نسيت أنك أخبرتني بذلك أساساً، ذاكرة سمك أقول لك، المهم، ماذا قيل في هذه القصة ونستطيع تطبيقه هنا؟

– قيل ؟! ... نعم نعم، لقد نسيت لماذا ذكرت دكتور رفعت إسماعيل أصلاً، ليست ذاكرتك وحسب هي ما تعاني من المشاكل، على كل حال، قال أنه ليس مسئولاً عن « الإحكام الأدبي » للأحداث، فلا يمكن لأحد أن يقول أن الثورة الفرنسية ركيكة أو مفتعلة مثلاً، لأنها حدثت بالفعل ولم يؤلفها أحد

– عندك حق

صمت برهة ثم سألته:

– ماذا حدث أثناء عودتك من المعتقل ؟

– أتعلم، وقتها لم أفكر في الطريق، ولا أي شيء سوى قصة النسر الذي قصها علينا الأستاذ عادل قديماً، كنت في الثانوية وكان يحكيها لنا ليُرينا أن التعب اختيار يختاره المرء بإرادته حتى ينعم بحياة جيدة

– وما هي هذه القصة ؟!

– عندما يصل النسر إلى عمر الشيخوخة، يصيبه وجوارحه الوهن، منقاره يلين وحوافره تتلف وريشه يثقله، فلا يستطيع الصيد وبالتالي لا يستطيع أن يأكل ومن ثم يموت، ولكن ما يفعله النسر وقتها، هو اختيار التعب، فيذهب إلى الجبال يظل بها مدة تزيد عن الشهر

لا يفعــل شــيئاً ســوى ضرب منقــاره بالصخــور حتــى يكــسر، وينتــف كامــل ريشــه فــلا يســتطيع أن يطــير ثانيــة، ثــم يخمــش بحوافــره الجبــل فيخلعهــم منــه، لا يــأكل فيقــل وزنــه، تعــب، وبيــده هــو اختــاره، عــذاب وبيــده قــرر أن يبقــى فيــه لمــدة، والآن مــاذا، هــل تتوقــع في هــذه القصــة نهايتهــا بعــد أكثــر مــن شــهر يتعــب ويتعــذب فيــه، كلا فبعــد هــذه المــدة ينبــت ريشــه، ريــش خفيــف جديــد، وتنمــو حوافــره ويقــوى منقــاره، ويصلــح وزنــه للطــيران والصيــد معــه، وهكــذا ينعــم بحيــاة جديــدة مريحــة، لم يكــن ســيحياها لــولا أن اختــار التعــب هــذه المــدة

هززت رأسي أن موافقاً على كل ما تقوله، قال:

– المهم، دعنا نكمل قصتنا نحن

***

(٢٣)

وفي وسط كل ضوضاء القاعة ظهرت هي فأحالتها صمتاً مريحاً للأعصاب، كانت أجمل أنثى بدون أن تبذل أي مجهود، كانت لامعة، وجهها منير وبارز من حجابها الأسود وزي المحاماة الأسود فكانت كالبدر في صفحة الفضاء المُظلم

اقتربت من القفص الذي أنا فيه وقالت:

- ستخرج بإذن الله

نظرت لها وفي الحقيقة أنا لم أشعر أو أسمع أي شيء حتى كلامها لم أركز في أي شيء سوى هي، قد كبرت ولم أشعر بذلك، الوجه الخجول المحمر قديماً صار وجهاً لمن تمسك قضية براءتي، مستحيل أن تكون جارتنا كل هذا الوقت وأنا لم ألحظ كل ذلك الجمال، هي قطعة منه .... لا بل هي الجمال كله .. هي ..

يقطع حبل تفكيري ذلك الصوت المرعب الذي يدوي في كل أرجاء القاعة:

- محكمة ...

تذهب سارة - الدفاع في قضيتي - لمكانها ويجلس الجميع في هدوء .. ابحث في الجالسين فلا أجد لا مروة ولا محمد ثم يدخل ثلاثة قضاة فيجلسوا، يقول أوسطهم:

- بسم الله نفتتح الجلسة .. التاسع والعشرون من شهر جماد الأول عام ١٤٣٢ هجرياً، ٣ / ٥ / ٢٠١١ م، نادى على القضية ...

نفس الحنجرة تخرج ما حشر فيها من كلام

- القضية رقم ٢٥ المتهم فيها منصور السيد الشرقاوي

أود أن أقوم فأبرح الرجل لكماً وأقول له:

- أنا .. لست .. متهماً .. أيها الوغد

ولكن يعاود صوت القاضي الوقور قائلاً:

- قد تم فتح هذه القضية من جديد للمراجعة والاطلاع من جديد، القضية كانت بتاريخ ٢٧ / ١١ / ٢٠٠٣ م أي منذ أكثر من سبع سنوات ومتهم فيها منصور الشرقاوي بالقتل العمد والخطف، وذلك بعدما تم اطلاعنا على

التطـورات التـي تفيـد بـأن القـاضي الـذي حكـم في القضيـة مسـجون الآن عـلى خلفيـة قضايـا فسـاد وهـذا يشـوب حكمـه في هـذه القضيـة وقـد أُعيـد فتحهـا مـرة أخـرى بقـاض آخـر ... بسـم الله ... فلتتحـدث النيابـة:

- سـيدي الرئيـس نحـن أمـام قضيـة محسـوم أمرهـا مـن وقتهـا، الشـهود كلهـم ضـده، حتـى حجـة دفاعـه وقتهـا ضعيفـة جـداً لا يصدقهـا الأطفـال .. وأنـا لـن أضيـف كثـيراً عـما قيـل في القضيـة مـن قبـل، شـكراً سـيدي الرئيـس

إذاً وكلاء النيابـة كـما عهدناهـم في الأفـلام والمسلسـلات لا يقفـوا في صـف مـن القفـص أبـداً

- تـم إعـادة فتـح هـذه القضيـة وأمثالهـا حتـى نـرى الجديـد فيهـا، ولا نعتمـد عـلى الأدلـة والشـهود في القضيـة الأولى، لعلهـا مـزورة

هكـذا قـال القـاضي ناظـراً لوكيـل النيابـة نظـرة جانبيـة ثـم قـال:

- فليتفضل الدفاع

قامـت سـارة عـلى الفـور وبيدهـا بعـض الأوراق التـي منهـا مظـروف بـه رسـالة مـن سـاكن العقـار - العجـوز صاحـب المنامـة يـوم الحادثـة - وبعـض الأوراق الأخـرى، كانـت مرتبكة

وكانـت أكثـر مـا تفعـل هـي أن تنظـر إلى سـاعتها ثـم تقدمـت

– سـيدي الرئيـس .. حـضراتي السـادة المستشـارين بدايـة أود التذكـير أنـه ربـما مـر أعـوام عـلى هـذه القضيـة ولكـن هـذا لا يعنـي أن ننسـى مـن ضـاع ظلـماً فيهـا ...

منصـور السـيد الشرقـاوي مجـرد شـاب لـه طمـوح قـوي لم يزحزحـه عنـه وفـاة أبـوه وإعالتـه لعائلتـه ولا فقرهـم الـذي كان في بعـض الأحيـان يجعـل بيتهـم خاليًـا مـن الطعـام ولكـن الآن وبعـد سـتة أعـوام سـجن فيهـا هـذا الشـاب أدركـت أن حتـى السـجن لم يزحزحـه عـن طموحـه وأحلامـه س...

– أعتـذر عـلى المقاطعـة سـيدي الرئيـس ولكـن كلام الدفـاع عاطفــي جــدًا ولا مجــال هنــا للعواطــف، فأتمنــى أن يدخــل الدفـاع في الموضـوع سريعًـا دون مقدمـات

– لـو كان عنـدك موعـد مهـم أكثـر مـن حيـاة هـذا الرجـل فلتتفضـل، أكمـلي

قالها القاضي لوكيل النيابة بنظرة تكاد تثقبه

– كـما قلـت سـيدي وربـما وددت البـدء بهـذه المقدمـة حتـى أُعلـم الجميـع أن منصـور كان مجـرد إنسـانٍ لم يُبـد رأيـا سياسـيًا فيعتقـل – وإن كان ذلـك في عصرنـا الجديـد مُحرّمـاً – ولم يذنـب فيسـجن

- لا بـل أذنـب سـيدي حـين قتـل هـذا الشـاب وخطـف خطيبتـه

ربـما رفـع رجـل النيابـة صوتـه بهـذه الجملـة حتـى يغطـي عـلى الجملـة التـي قالهـا القـاضي لتحـرق وجهـه حرجًـا، فردت سـارة:

- أولاً هـو لم يقتـل الشـاب، ثانيًـا هـو لم يخطـف الفتـاة ببسـاطة، هـي خطيبتـه ثالثًـا وكـما قـال سـيادة القـاضي لا ينبغـي أن نعتمـد عـلى أدلـة وتحقيقـات القضيـة الأولى لأنهـا ربـما تكـون خاطئـة، ولهـذا أُعيـد فتـح القضيـة بقـاضٍ جديـد ونيابـة غـير النيابـة، رابعًـا هـذه الورقـة

أخرجت الرسالة من مظروفها وأردفت:

هـذه الورقـة هـي رسـالة أقـرب إلى وصيـة لصاحـب العقـار الـذي شـهد عـلى الحادثـة وشـهد زورًا حسـب مـا جـاء في رسـالته التـي تركهـا لمـروة أخـت منصـور التـي لازالـت تزوره وتُذكـره بأنـه يومًـا مـا سـيلقى الله وسـيلقاه شـاهد زور ؛ إلى أن كتـب هـذه الوصيـة التـي حصلـت عليهـا قبـل سـاعتين فلـم أسـتطع أن أُدرجهـا تحـت مـا يقـدم مـن أدلـة

- وكيف نتأكد من أنها وصية هذا الرجل؟

- لأنها مكتوبة بخط يده

فقال القاضي عابثًا بيده في بعض الأوراق أمامه:

- هلا تقرأين هذه الرسالة ؟!

- حسنًا سيدي

فوضعت سارة العوينات على وجهها فازدادت جمالًا فوق جمالها

- أرجو من السيد ألا يقاطعني لأن ما سأقوله ليس مني في شيء بل أنا فقط أقرأ ما كتبه لنا :

- اليوم هو ١٤ / ١٠ / ٢٠٠٨ م ربما يكون آخر يوم في حياتي التي دامت سبعون عاماً حتى الآن، سبعون عاماً أعمل أستاذاً ثم أستاذاً أول ثم مدير المدرسة، ضاعت تلك الأعوام من عمري هباءً، كل ما كنت أُفكر فيه هو أنا وأسرتي وحياتي لم أُفكر قط في شاب سيُقضى على شبابه بمجرد أن أوافق على عرض خاص، عرض حمل لي ربحاً كبيراً تحول بعد عام واحد إلى خسارة كبيرة جداً

في الحقيقة أنا لم أندم على شيء قط، فطالما عشت ولم أتسول فلماذا أندم إذاً ولكن نادم على هذا اليوم المشئوم .. كنت واقفًا في الشرفة كعادتي كل يوم، وفي وقت متأخر رأيت شابين في سيارة مكشوفة يتحرشان بفتاة تمشي مع

خطيبها كان المنظر غريبًا علي فأنا الذي لم أعتد مثل هذه الأمور الفاسدة، بدأ النزال .

الفتى برع في تفادي ضرباتهما وتسديد لكمات لكل منهما في وجهه تجعلهما في حاجة إلى أخذ راحة حتى أتى الثالث وكان ممسكاً بمطواة فصار يلوحها في وجه الفتى الذي تفاداه، عندما رأيت أن ما يحدث ازداد عن حده، هرعت لأسفل غير مبال بصياح زوجتي ولا بناتي ولما نزلت، تحرك اثنان تجاهه في نفس التوقيت الحامل للمطواة وآخر، مسك الفتى الشخص الثاني وجاء الأول طاعنًا بمطواه ولكن طعن صديقه في ظهره وبدأ الدم يسيل وأنا واقف مذهول من ذلك كيف حدث هذا لقد ذهبت نفسًا للقاء ربها في أقل من ثانية على سبب تافه، فروا تاركين صديقهم المقتول ووجدت الفتاة تسحب يد الفتى في شدة ثم جرياً، حسبت الأمر انتهى إلى هاهنا ولكن لا، جاء في ظهر اليوم الثاني ثلاث رجال ببذات سوداء وتبدو الرسمية عليهم، سألوني عن الحادثة فأجبتهم ناصًرا الفتي على الشبان لأن هذه الحقيقة ولأنني حسبتهم من الشرطة جاءوا ليحققوا في الحادثة ولكنني تفاجأت لما وجدت أوسطهم يقدم لي حقيبة ويفتحها لأجد بها مبلغاً كبيراً من المال وقال أهذا يكفيك قلت له لماذا قال لتسكت وبصراحة لمعت الأوراق

في عيني فقبلت ولم أسأل من القاتل ومن المقتول فاعطوني ورقة كان بها ما قلته في شهادتي الزور وبعدها انتهت صلتي تماماً بهذه الحادثة سوى فتاة كنت أجدها تقف أمام باب العمارة كل فترة صباحًا، تقول لي نفس العبارة ثم تذهب كانت دائماً تقول « كيف ستقابله وأنت ظالم « وكنت أبلع كلامها في ضيق كبير ولكني أعتدت ذلك، حتى يوم ١٨ / ١١ / ٢٠٠٥ م أي بعد مرور ما يقرب من العامين، كنت قد اشتريت محل أقضي فيه وقت فراغي فعدت إلى المنزل في الساعة العاشرة لأجد باب الشقة مفتوحاً وزوجتي وبناتي الاثنتان غارقات في دمائهن، تلفظ زوجتي أنفاسها الأخيرة وهي تقول لقد سرق كل شيء كل شيء وأشارت للدولاب الذي يظهر من غرفة النوم والذي كان يحوي كل الأموال التي حصلت عليها في حياتي كلها والذي أيضاً كان مكسوراً وبالطبع مسلوب ما بداخله، كيف حدث هذا ؟!، ذهبت عائلتي للقاء ربها في أقل من ثانية كل شيء انتهى عائلتي وثروتي في نفس الوقت، بعد عام تقريباً من حادثة الشاب، عائلتي وثروتي، حتى أن المحضر قُيد ضد مجهول فلم أعرف من فعل ذلك، عدالة الله التي لن يفر منها ظالم ولن تُحجب عن مظلوم، ولأن العمر بات نهايته على مرمى البصر فأردت أن أُكّفر عن بعض ذنوبي لأقابل ربي خالياً منها وعندما أموت فوصيتي هي ذلك أرسلوها

للفتـاة أختـه فلعلهـا تفيـده في قضيته إذا مـا تم فتحها مـن جديد، أو إذا كان هـذا الفتـي حـي بالأسـاس، في الختـام أود أن أقـول للشـاب لـو قـرأ هـذا الـكلام أنـا آسـف لقـد اضطـررت ...

« اضطر لذلك « يختلف معناها عند الناس

كانـت هـذه الرسـالة هـي تصـور الرجـل الخـاص عـن الكفـارة، لم يسـتطع أن يذهـب بنفسـه إلى قسـم الشرطـة ليجـدد أقوالـه في قضيتـي، ولكنـه انتظـر بضـع سـنوات ليكتبهـا، وبضع سـنوات أخـرى ليرسـلها أو أنـه عندمـا مـات أُرسـلت كتنفيـذ لوصيتـه لا أكثـر، لـكل منـا تصـور خـاص عـن الإعتـذار أو التعبـير عـن النـدم، نخرجهـا بالصـورة التـي تناسـبنا أكثـر ممـا تناسـب مـن نعتـذر لـه



(٢٤)

وفور انتهاء سارة من القراءة قال وكيل النيابة:

- من الممكن ألا يكون خطه

فطوت الورقة وتقدمت بها نحو القاضي وقالت وهي عائدة:

- لكم أن تعرضوا هذا الخطاب على خبراء الخطوط لتتأكدوا أنه خطه

فتحدث وكيل النيابة ليقول:

- لا يمكننا أن نذعن أن هذا دليل يمنح الرجل براءته

تلاشت نظرة سارة الهادئة لما بدا على القاضي تصديقه وأنا بدوري بدأ القلق يتسرب لقلبي، وبعد دقائق من حديث لا أذكره قال:

- النطق بعد جلسة الاستراحة

قــال ذلــك القــاضي كأن الحكــم محســوم، نحــن في الجلســة الأولى وربــما ســتكون الأخــيرة

وقفت سارة بجوار القفص تقول كعادتها:

- ستخرج بإذن الله

وبينما ستكمل حديثها جاء عسكري ليقول لها:

- المحامية سارة فاضل القاضي يريدك في مكتبه حالاً

فهــزت رأســها أن نعــم ونظــرت لي نظــرة مطمئنــة ورحلــت وراءه ...

عــادت ســارة سريعــاً عــلى وجههــا الاحبــاط، ولكــن حديثهــا ينفــي ذلــك، لا يحتــاج الأمــر إلى أي عبقريــة لاســتنتاج أننــي لــن أخــرج

- ستخرج بإذن الله

كانت أمامي، تنظر في عيني مباشرة

- محكمة

يجلـس الجميـع في مكانـه، تأكـدت أن هـذه المحاكمة سـتنتهي برفـض الطلـب وأعـود إلى الزنزانـة مـرة أخـرى، وربـما أفضـل

ما سيحدث هو أنني سوف انتقل إلى سجن عادي، وربما هذا بالنسبة لي أسوأ ما سيحدث، فذلك سيفقدني عزلتي التي نعمت بها لعدة سنوات

- بعد الاطلاع على الأدلة .... حكمت المحكمة حضورياً .....

صوت يأتي من الخلف يُسكت الأصوات جميعاً

- لحظة ... لحظة سيادة القاضي لدي أقوال ستغير مسار المحاكمة

دخل رجل يغطي رأسه يعرج ولكنه يسرع في السير ولما وقف أمام القاضي ورفع رأسه تذكرته .. نعم إنه هو ولكن مع القليل من الشعر الأشيب والارهاق والهموم .. وليد

قال القاضي:

- ومن أنت ؟

- أنا وليد .. وليد الشامي ضابط شرطة سابق

- أنت الذي وكلت بالقبض والتحقيق مع منصور، صحيح ؟

- نعم أنا، ولدي أقوال يجب أن أعترف بها

- حسناً، قل والله العظيم أقول الحق

- والله العظيم أقول الحق

- ما هي الأقوال التي عندك؟

- جاءني مساعد وزير الداخلية فؤاد الرشيدي ليلة ٢١ / ١١ / ٢٠٠٣ م وأعطاني محفظة بها بطاقة لمنصور وقال لي أن أقيد هذا : الفتى هو الجاني في قضية مقتل ابن نائب مجلس الشعب طلبت منه تفسيراً للأمر لأنه كان غريباً أن يأتي مساعد وزير الداخلية بنفسه ليفعل ذلك فقال لى أنت من رجالنا ويجب أأن تعلم أنك لو لم تنفذ ما نأمرك به فلن يكفينا طردك بل ستدفن حياً ولكن هذا لا يرضيني على كل حال كل ما يجب عليك معرفته هو أن ابن وزير الداخلية هو من قتل هذا الشاب ... بالخطأ، أو بسبب هذا الفتى، وعليك أن تجلبه إلى هنا وتجعله يعترف بأنه هو القاتل قلت له وإن رفض فقال لا أريد أن اسمع كلمة رفض هنا، افعل فقط ما نراه نحن، وفعلت ذلك، جلبنا منصور ورحنا لثلاث أيام نبرحه ضرباً ولكنه لا يريد الاعتراف حتى قال لي مساعد الوزير أن نجلب أخته لنهدده بها وفعلنا ذلك ووافق وتمت المحاكمة بعد بضعة أيام التي حكموا فيها بالسجن المؤبد على منصور

- ولماذا تغير أقوالك الآن ؟!

- منذ عامين مضيا ماتت ابنتي في حادثة سيارة ولكامل سخرية القدر كان القاتل ابن الوزير الأصغر أخو القاتل في قضية منصور، كان نسلاً فاسداً من أوله لآخره، هرب من البلاد ثم قدمت استقالتي لكوني لن آأخذ حقي، أنا أعلم أن هذا الكلام قد يودعني السجن وأنا لا أبالي فلم يعد لي في الحياة هدف ولو كان هناك شيء آخر لأقوم به هو تصحيح خطئي عسى الله يغفر لي ذلك، أنا أعترف أنني ظلمت أناس كثيرة

أخرج من عباءته ملفاً وتقدم ناحية القاضي وأردف:

- هذه ملفات كل من ظلمتهم لا أعلم لماذا كنت أحتفظ بهم ولكنهم الآن تحت أيديكم، هناك من مات منهم وهناك من سجن وهناك مجهول النهاية، كل الرشاوي التي تلقيتها في حياتي، وأنا .. أتحمل كل المسئولية عنهم وأعترف أن الله انتقم مني في ابنتي ولا أريد أكثر من الاعتراف بالأسف وأنا مستعد لأي حكم ستحكمونه علي ..

تعالت صيحات الناس وتساقطت دموع وليد وازدادت بسمة سارة اتساعًا ودنت من القفص وهمست:

- كل شيء سيسير كما نشاء وستخرج بإذن الله

ابتسمت لها وبدأ القاضي في ضرب المنضدة حتى يهدأ الجالسون، ولكنهم لم يهدأوا، لم يهدأوا إلا عندما فُتح الباب ودخلت مروة ممسكة بيدها سيدة تبينت من هي ... هي نعم ،إنها أكثر شخص كرهته في حياتي حتى أكثر ممن سجنوني، أدركت لماذا تأخرت مروة الآن، فلقد جاءت بأبغض وجه لنفسي رغم حسنه ... رانيا، ذهبت لها سارة وقالت لها شيئاً ما تبينت من حركاتها أنها تشكرها، يالها من طيبة تشكر الشيطان على إصلاحه لما أفسده بيده وفي كامل وعيه

- لم آتي إلى هنا كي لا أخذلك بل كي لا أخذل منصور

هكذا ظننتها قالت عندما حركت شفتاها الجافتين وأومأت برأسها تجاهي، لقد تغيرت ولكن الآن تغيرت بحق صارت شاحبة وهزيلة والحجاب ملتصق بشدة برأسها

- هدوء أيها السادة، عرفينا بنفسك يا أستاذة

ساد الهدوء القاعة وصمت كل من فيها فقالت:

- أنا رانيا رشاد زيادة خطيبة منصور أو كنت خطيبته وقت الحادثة

– عـلى حسـب الأوراق التـي أمامـي أنـتِ اعترفـت أنـك خطيبـة شريـف عبـد الكريـم عـز العـرب وليـس خطيبـة منصـور بـل اعترفتـي أن منصـور قـام بخطفـك

– لم أعترف بل أُجبرت على الاعتراف

– من أجبرك؟

– جـاء منزلنـا صبـاح اليـوم الـذي تـلى الحادثـة شـخص مـن وزارة الداخليـة وأعطـى ورقـة لنـا فيهـا مـا جـاء في الاعـتراف، أنكرنـا جميعـاً ذلـك ولكـن هددنـا إن لم نفعـل ذلـك فسيسـجننا، لم يوافـق أبي ولكنـي اضطـررت لفعـل ذلـك عندمـا شـعرت بالخطـر

« اضطرت لذلك « يختلف معناها عند الناس

قال القاضي:

– وكانـت شـهادتك في القضيـة أنـك كنـت خطيبـة المجنـي عليـه صحيـح ؟

– نعم

– وأين أباك د.رشاد ؟!، كانت كتبه في زنزانة منصور

– والـدي تـم قتلـه عـلى خلفيـة القضيـة، لقـد كان هـو الوحيـد الـذي لم يـرد شـهادة الـزور، أخـبروني أنهـم لـن يـؤذوه

ولكنهـم سـيمنعوه مـن الذهـاب إلى المحاكمـة فقـط، ولكننـا وجدنـاه قتيـلاً معـذب بعدهـا بيـوم أو يومـين، أمـا بالنسـبة للكتـب فهـذا صحيـح كنـت أنـا مـن أرسـلت لأختـه الكتـب بعدمـا عـدت منـزل أبي ووجدتهـا هنـاك، قلـت أنهـا باتـت تخـص منصـور

قالـت ذلـك ونظـرت لي وتسـاقطت الدمـوع مـن عينيهـا أمـا أنـا فنظـرت إلى سـارة التـي تجـز عـلى أسـنانها غيظـاً مـن كلام رانيـا ولكنهـا تصـبر لأن رانيـا سـتكون مـن أسـباب خروجـي - بعـد الله - مـن هـذه القضيـة وعليهـا أن تتحمـل ذلـك الـكلام .. وبينـما رانيـا تتحـدث وبعدمـا أطمأنـت أنهـا سـتحكي مـا حـدث بالفعـل، لا مـا « اضطـرت لقولـه « شردت أنـا أفكـر في السـؤال القائـل : هـل سـارة تحبنـي ؟ نعـم تحبنـي وأعلـم ذلـك مـن أول معرفتـي بهـا ولكـن ليـس هـذا السـؤال، مـا يجـب أن يكـون السـؤال عليـه هـو هـل أحبهـا أنـا أم لا ؟ وهـل الظـروف الآن تسـمـ .....

توقفت عن التفكير عندما انتبهت لجملة ألقتها رانيا

- طلقني عندما علم بمرضي، سرطان في الدم

لا ليـس الحـزن في نفـسي هـذه اللحظـة حـزن شـفقة، أنـا لا أريـد أن أمنحهـا ذرة شـفقة، ولكنـي حزنـت، حقـاً حتـى

الطغـاة في الأرض يسـتحقوا بعـض الشـفقة، بعـض الحـزن عـلى كونهـم وحيديـن، لـو كانـت أصيبـت بهـذا المـرض وأنـا زوجها هـل كنـت طلقتهـا، مسـتحيل !، لأن معـدن الإنسـان لا يتغـير في كل المواقـف، أنـا الآن أحـزن عـلى الحالـة التـي وصلـت لهـا، ليتـك لم تختـارِ الاضطـرار، ليتـك

- أنـتِ تعلمـي أن هـذا الاعـتراف يـبرأ منصـور ويدخلـك السـجن ! هـل لديـك مـا تضيفينـه ؟!

سكتت برهة تسيل فيها دموعها ثم قالت:

- لا، لا أعلـم .. لا أعلـم، أنـا أحـب منصـور جـداً، أنـا فقط كنـت أحبـه، كنـت عـلى اسـتعداد أن أُضحـي بحيـاتي كلهـا مـن أجلـه كنـت أسـتطيع أن أوافـق عـلى عرضهـم وعندمـا أكـون أمـام القـاضي أقـول الحقيقـة ولكنـي علمـت أن هـذا لـن يُجدي نفعـاً علمـت أن القـاضي والنيابـة والشـهود حتـى الدفـاع الذي وكلتـه المحكمـة كانـوا جميعـاً معـاً ضـد منصـور كان الـكل ضـده، فحتـى لـو نطقـت أنـا فأنـا شـاهد واحـد مـن ضمـن شـهود كلهـم شـهدوا ضـد منصـور حتـى أنـا .. أنـا الـذي فقـدت عقـلي وقلبـي بعـد شـهادتي يومهـا أنـا ..... أنـا المذنبـة أنـا سـبب مـا حـدث لمنصـور .... كان يدافـع عنـي أنـا، كان يضربهـم مـن أجـلي أنـا، حتـى قبـل ذلـك كان يجعـل كل يومـه مـن أجـل العمـل لكـي يرضينـي أنـا، أنـا التـى طلبـت منـه أن

يـترك الوقـت الـذي يعطيـه لأبحاثـه، أنـا التـي طلبـت منـه أن يشـتري لي شـقة في مـصر لأننـي لـن أذهـب لأعيـش في بلـده، أنـا اليـوم اطلـب منـه أن يسـامحني ويشـتري لي قلبـاً جديـداً فـإن قلبـي فسـد .. فسـد يـوم أن تخليـت عـن حـب حيـاتي كلهـا، يـوم طعنـت قلبـه مـات قلبـي أنـا ...

مســحت عينهــا بيدهــا وغــيرت نــبرة كلامهــا المنكــسرة وصــارت أكثــر جديــة وقالــت:

- سيدي القاضي أنا أطالب بمحاكمة الأسماء التالية:

وفتحت ورقة ثم بدأت تقرأها:

- عــلى القــاضي الــذي حكــم في القضيــة وعــلى وكيــل النيابـة وعـلى الشـهود والدفـاع والضابـط وابـن وزيـر الداخليـة السـابق وأمـه وأبيـه وابـن نائـب مجلـس الشـعب وأمـه وأبيـه وعـلى الدكتـور رشـاد زيـادة وعـلى ابنتـه رانيـا رشـاد زيـادة أنـا بتهمـة المشـاركة في قتـل منصـور السـيد الشرقـاوي وأضيـف إلى المتهمـين منصـور نفسـه لأنـه أعتقـد أن النـاس كلهـم خـير وأن الحيـاة ستسـير دون أي مقاومـة .... سـيدي الرئيـس أنـا أطلـب محاكمـة هـؤلاء جميعـاً مقابـل حريـة منصـور لأنـه أقلنـا ذنبـاً أنـا جاهـزة للسـجن ...

ساد الصمت لفترة لا يعكره سوى بكاء رانيا الشديد وتكرارها «أنا المذنبة ... أنا المذنبة ....«

بعد دقائق من الانتظار والاستغراب، فتح الباب ودلف محمد – تغير شكله كثيراً – ممسكاً بيده جهاز حاسوب محمول وتقدم وقال:

– سيدي الرئيس لدي دليل قاطع وأكيد على براءة منصور

– من أنت ؟!

– أنا محمد فاضل صديق منصور وجاره

– وما هو الدليل على براءته ؟!

– مقطع الفيديو الذي نُشر على الإنترنت منذ ساعتين فقط وهو تصوير من كاميرا البنك والذي تم إخفاؤه وقت القضية الأولى، يظهر ما حدث أمام البنك يومها ويوضح أن منصور لم يقتل

وضعه أمام القاضي ثم فتح المقطع فسكت الجميع وبدأ المشاهدة في صمت واهتمام .. كان هذا المقطع يصور الحادثة كما حدثت تماماً وبالطبع أخفوه مثلما أخفوا كل الأدلة التي تبرءني

وبعدما استمع القاضي للمقطع أخذ يتحدث لمن بجواره، فأدار محمد الشاشة ناحية الجالسين وأعاد تشغيله، وبعدما انتهى علت الأصوات، أصوات متداخلة لا تعرف تمييزها أصوات غاضبة متحمسة متمردة تشبه ما تشبه الأصوات التي سمعتها من التلفاز في السجن والتي كان أصحابها في ميادين مصر يزلزلوها يعلنوا أن الوقت قد آن لنكسر القيود ونستعيد حريتنا من جديد .

هدأ القاضي الجالسون بضرب المطرقة وبعد حين هدأوا فضغط زاويتي عينيه الداخليتين بإبهامه وسبابته علامة الارهاق وقال:

- لا أعلم ماذا اقول، هذه المحاكمة أغرب محاكمة مرت علي في تاريخ عملي قاضيًا، هل تريد النيابة إضافة أي شيء ؟!

- لا، شكرًا سيادة القاضي

قالها وكيل النيابة عندما جف منبع حديثه فأتبعه صوت القاضي:

- هل لدى الدفاع أي إضافة ؟!

وقفت مروة تتحدث:

- يتضح أمام الجميع الآن براءة منصور مثل وضوح الشمس، ما أريد أن أضيفه ليس شماتة ولا تكبراً بل هو إظهار ما قد يغفل عنه البعض كل من شارك في دفن منصور أصيب وهذه أدلة أخرى، حضرة القاضي القبضة قد كسرت وقد أتى الفجر

- محكمة

قام القاضي وخلفه المستشارين فدنت سارة مني وقالت:

- هذا آخر فصل في القصة يا منصور أنا متأكدة بإذن الله أن القاضي سيحكم ببراءتك

***

(٢٥)

كنــت أنظــر لهــا فقــط، لم أفعــل شيء ســوى أني حمــدت الله وعندمــا أردت أن أتحــدث، أو أُطيــل الحديــث ـــ حديــث العيــون، أدخــل العســاكر رانيــا ووليــد قفــص الاتهــام فقلــت لســارة:

- اتركيني بعض الوقت من فضلك

فرحلت وجلست أنا ثم جلست رانيا بجواري وقالت:

- كيف حالك يا منصور .. أفتقدك كثيراً

- كثــيراً لدرجــة إنــك أودعتينــي الســجن أكثــر مــن ســبع ســنوات ولكــن هنــاك ميــزة لذلــك هــي أننــي لم أرَ وجهــك كل هــذه المــدة

- لا ألومــك عــلى كــم البغــض الــذي ملــئ بــه قلبــك ولكــن يــا منصــور أنــا أحبــك، ولــن أســتطع العيــش بدونــك شــئت أم

أبيت أنت كنت حياتي ولازلت كذلك أقسم لك، يمكننا أن نعود مرة أخرى، أليس كذلك ؟

رفعت رأسي لأعلى وقلت مع ابتسامة:

- ... نعم

سكتت لبرهة وعدلت جلستها ثم ابتسمت قائلة:

- حقاً ؟!

- ولكنها ليست إجابة على سؤالك أنتِ بل هي على سؤالي أنا، السؤال كان هل أحبها ام لا ؟ والإجابة كانت نعم بل اكتشفت أنني لم أحب غيرها حتى أنتِ

- من هي ؟

- أترين هذه الفتاة هناك ؟

وأشرت بيدي على من ارتدت بالطو المحاماة .... سارة

- هي من أحببت لا لجمالها بل لقلبها لا لعلمها بل لأخلاقها وليس لأنها أنقذتني مما كنت فيه لا ... ليس ذلك، بل لأنها هي من صدقتني وأقتنعت ببراءتي وقت آمن الناس وحتى أنا أنني مجرم قاتل وسارق وسفاح وإرهابي مطلوب دولياً، كانت صامتة لم تصارحني بحبها مثلما فعلت ولازلت تفعلين، ولكنها وقت الحاجة ظهرت

دون أن تستأذن، كانت تشاهد من بعيد، تنتظر وحسب أن يقع أحدهم في مأزق لتنجده دون أن تعلمه أنها تحبه، أتدرين يا رانيا أنا الآن وفي هذه اللحظة بالذات، لا أندم على اي شيء فعلته في حياتي ولكني كنت سأندم لو أن يوم الحادثة لم يأتِ ولم يحدث كل هذا، كنت سأندم لأن عدم مجيئه كان سيجعلني أتزوجك أنتِ، وأتركها هي، عندما أخرج من هنا، سوف أدعوكِ علي حفل زفافي بسارة، إذا كنتِ حرة وقتها

وفي نفس وقت هذا الكلام كانت تبكي وأنا .. أنا لا أبالي على الإطلاق بل وأتعمد فعل ذلك، لم أكن أنا من يتحدث، شعرت أنه شخص آخر يعذبها، أو ربما تحدثت الذكريات التي ربطتنا ببعض على مدار الأعوام القليلة التي قضيناها معًا، لأول مرة أفهم كيف للظروف أن تغير اخلاق أو مبادئ أو أفكار شخص ما، لأول مرة أدرك معنى الاضطرار الذي يغير الفرد تماماً، يجعله يتخذ قرارات عشوائية ربما لا تمت للعقل بصلة، أعذريني يا رانيا، لم أدعو الله ليتم عليك شفاكِ، لم أواسيك في فقد أبيك، لم أتفهم ندمك على ما فعلتيه، ولكني أشعر بذلك، لازلت أسامح ولكني لا أريد أن اظهر ذلك، ... توقفت عن البكاء للحظات وصمتت لمدة وعندما أرادت التحدث

قاطعها الصوت الذي يعلن دخول القضاة ويعلن أيضاً حريتي المسلوبة منذ زمن:

- بعد الاطلاع على الأدلة وشهادة الشهود الحقيقية قررنا نحن الآتي :

الحكم غيابياً على أكمل سمير كمال حبيب بالاعدام شنقًا في قضية قتل شريف عبد الكريم عز العرب

الحكم غيابياً على وزير الداخلية السابق سمير كمال حبيب ومساعده فؤاد هاشم الرشيدي بالسجن عشرة أعوام بتهمة استغلال النفوذ

التحقيق مع القاضي خالد السلطان والدفاع الذي وكله

الحكم حضورياً علي وليد حسين الشامي بالسجن لمدة خمسة أعوام

الحكم حضورياً على رانيا رشاد زيادة بالسجن لمدة ثلاث أعوام مع إيقاف التنفيذ

وضع كل من يماني جمال حماد و محسن صالح عاشور على قائمة ترقب الوصول

الحكم حضورياً على منصور السيد الشرقاوي بالبراءة وإلزام الجناة بتعويضه عن فتره سجنه بالطريقة المناسبة

صـاح الجميـع بفرحـة عامـرة، عينـا سـارة ومـروة بجوارهـا تبرقـان مـن دمـوع حبسـت لفـترة طويلـة، هـدأ القـاضي الجمـع و قال:

- وختامًـا .. ختامًـا، ختامًـا يـا سـادة، نـود فقـط أن نقـول ما حـدث اليـوم هـو مـا أراده الله أن يحـدث وأعلـم أن مـا حـدث كان تجربـة قاسـية في حيـاة منصـور ولكنـي متأكـد أن مـا حـدث جعلـه أقـوى أمـام مـا واجهـه مـن الصعـاب قبـل سـجنه وفي نظـري هـذه القضيـة هـي التـي تسـتحق لقـب قضيـة القـرن .. والسـلام عليكـم ورحمـة الله تعـالى وبركاتـه ...

وهكـذا انتهـى سـجني الـذي دام سـبعة أعـوام و خمـس شـهور و اثنـي عـشر يومـاً وليـس ذلـك فقـط بـل تـم إضافـة هـذه القضيـة عـلى كل القضايـا المتهـم فيهـا هـؤلاء المسـئولين مـن فسـاد واسـتغلال نفـوذ وقتـل متظاهريـن ويمكـن أن أقـول أن الثـورة فتحـت القديـم والجديـد عـلي هـؤلاء ولمـا سـقطوا كثـرت السـكاكين عـلى رقابهـم فذاقـوا مـن نفـس كأس الـذل الـذي أذاقـوه لضحاياهـم

خرجنـا مـن القفـص متجهـين خارجـاً، تسـير مـروة بجانبـي وسـارة بجوارهـا عـن يمينـي ويمسـك بيـدي عسـكري بعدمـا رفضـت أن أرتـدي الأصفـاد مجـددًا، أسرعـت مـروة الخطـى

للأمـام قليـلاً ربـما لتعطـي الفرصـة لسـارة أن تسـير بجـواري وخـيراً فعلـت، عندمـا أقتربـت سـارة منـي همسـت:

- سارة، تتزوجيني

نظـرت نظـرة غريبـة لا يفسرهـا أحـد، نظـرة تقـف بالتـمام عنـد الحـد بـين الخجـل والاسـتغراب، ولكـن إحمـرار وجههـا غلـب جانـب الاسـتغراب ليسـود الحيـاء الموقـف، فتحـت فمهـا لتتحـدث:

- وهل هذا الوقت منا.....

توقفـت بعدمـا صرخ أحـداً مـن الخلـف باسـمي وبصـدى يـتردد عاليًـا:

- منصور !!

ألتفـت وبجانبـي سـارة إلى مـن ينـادي، كانـت رانيـا، وقـد أحتـاج الموقـف لثانيـة واحـدة، ثانيـة واحـدة فقـط لإدراك إنهـا جذبـت مسـدس العسـكري المرافـق لهـا ودفعتـه بعيـداً وهـي الآن توجـه فوهتـه نحـوي وهـي تـردد:

- سامحني يا منصور، سامحني

قالتهـا بعيـون دامعـة، قبـل أن تلـوي ذراعهـا لتوجهـه ناحيـة ر أسها

- رانيا .... لا

ثـم ... ثـم دوى صـدى صـوت الطلقة التـي أخترقـت لتوها رأس رانيـا لتسـقط عـلى الأرض أمـام عينـي المغمضـة مـن هول الموقـف، سـلمت زمـام قدرهـا كـما سـلم المسـاجين، فلحقـت رانيـا بأبيهـا، وتركـت العـالم الـذي أنـا فيـه، أننـا لا نحـزن عـلى المخطئـين عندمـا يتعرضـوا لسـوء ولكننـا نشـفق عليهـم لأنهـم ربـما اضطـروا إلى ذلـك حقًـا، مـن جديـد أنـدم، أنـدم أننـي مـا أظهـرت تسـامحي لهـا، احتفظـت بـه لنفسـي وبخلـت بـه عليها، لربـما أوقـف إعلامـي لهـا بمسـامحتها نزيـف الـدم المنسـال مـن رأسـها، أن رانيـا هـذه أشـبه مـا تكـون بجـرّاح أمسـك مبضعـه وشـق صدرنـا ليـزرع الحـزن في قلوبنـا، وتـرك صدرنـا مفتـوح ورحـل، لا تعلـم عـلى مـاذا تحاسـبه، وضـع الحـزن أم تـرك الجـرح، ارقـدي يـا رانيـا في سـلام، فليغفرلـك الله مـا فعلتـه لحياتـك ومـا فعلتـه لإنهائهـا .

قـد تمثـل نهايـة القصـة عدالـة شـاعرية لطيفـة، يعـود الحـق لصاحبـه بعدمـا ضـاع ويعاقـب المذنـب بعدمـا هـرب، ولكننـي أنظـر لـكل مـا حـدث عـلى أنـه تهيئـة كـما قـال أبي، أو منطقيـاً كـما قلـت أنـا عـلى لسـان وصـورة أبي .

***

الساعة ٤:٣٥ م

وصلنــا إلى الشركـة ودخلنـا المكتـب يجـذب أطـراف ثيابنـا الحـزن والحـداد، أستشـعر حـداده مـع أنهـا ظلمتـه، وأستشـعر حزنـه مـع أنـه نـال براءتـه

- ولكن ليس لك ذنب في ذلك !!

قلتها ونحن نجلس عندما شعرت أن حزنه قد طال

- ذنبي أني أحببتها يوماً ما، وخطيئتي أني وثقت بها

- وكيف تكون ثقتك بها خطيئة بعدما أحببتها؟

- لم أكـن احتفـظ بمسـاحة بينـي وبـين الحيـاة، ربـما أدركـت ذلــك مؤخـرًا، عــلي أن أذهــب إلى الحــرب في عــدتي كاملــة، دون اصطحـاب الغنائـم، حتـى إذا مـا خـسرت لا أخـسر شـيئًا ثمينًـا، فـكان عـلي أن أحـب رانيـا، بـل أن أعشـقها مـن مسـافة، فـإذا مـا خذلتنـي أكـون بأمـان

- وهل تفعل ذلك مع زوجتك الآن ؟!

تلفـت وصمـت فشـعرت أننـي تبجحـت عندمـا سـألته عـن أمـر شـخصي

- أعتذر على هذا السؤال الشخصي

- لا، لا تعتـذر، دعنـي أخـبرك أمـرًا، أحيانًـا الأمـر يعتمـد عـلى حصـون قلعتـك، لا عـلى قـوة أو ضعـف محـاصرك

- فلسفة، أليس كذلك ؟!

- لا ليسـت فلسـفة أو أي شيء، كل مـا أعنيـه هـو أن بعـض الأشـخاص لا تسـتطيع أن تقـاوم وأنـت في رحابهـم

- أنت حزين على موت رانيا رغم أنها ظلمتك !!

- أنا مشفق على اختيارها، وحزين على تأخري

- لـو لم تسـجن ولم تقـرر أن تقتـل نفسـها، كانـت نظرتـك تتغـير وتعـود لهـا ؟!

- .... بصراحـة أنـا لا أملـك إجابـة، ولكـن أغلـب الأسـئلة التـي تكـون بهـذا النمـط، نمـط لـو كان كـذا هـل كنت سـتفعل كـذا، هـذا النمـط احمـد الله ربي أنـه لا يحـدث لأنني لـن أملـك القـوة للإختيـار وقتهـا

- أنا آسف ...

- ... بعـد أيـام، وقفـت وأخـذت عزائهـا، بجـوار أخيهـا يوسـف، زوجهـا الخنزيـر الـذي لم أراه في حيـاتي رفـض أن يحـضر ورفضـت أنـا أن أتـرك أخيهـا في هـذا الموقـف، وأيضـاً

لأنني شعرت بفضل أبيها - رحمه الله - علي، وأردت أن أرد بعضا منه، لم آخذ العزاء فقط، بل كنت في الدفن أيضًا

مسح خده بعدما باغتته دمعة هاربة من عينيه بغير أذنه، فأردف:

- لم يكن الأمر عادياً، بل كان غريباً، عندما أدخلها أخوها لمثواها الأخير، شعرت أن الد.رشاد معنا يدفن بطريقة لائقة، سمعت صوت عبد الحميد الحقيقي، أبي وأمي، عمر، المساجين، قتلى ميدان التحرير وميادين مصر من شباب الربيع، وكل من مات ظلمًا، في السجون وعلى أعتاب المستشفيات وفي الطرق، كان الجميع حاضرًا، ربما يطلبوا مني أن أسامح الفقيدة

قاطعته لأرضي فضولي، فقلت:

- وهل سامحتها ؟! ....

ربما أرتبك من السؤال، وربما توقعه، وربما لم يرده أن يُطرح، ولكنه أجاب بهدوء:

- سامحتها، نعم

سكتنا لبعض الوقت، ثم قلت:

- ثم عادت حياتك لطبيعتها ...

- ربما عادت، ولكن ينقصها بالطبع الكثير من الأمور

- ولكن سارت الحياة

- سارت ولكنها سارت عرجاء، أمي و دكتور رشاد وعبد الحميد وعمر وغيرهم ممن فقدتهم خلال السبع العجاف، كانت الحياة الجديدة التي وهبني الله إياها، تنقصهم

- وماذا تتذكر من الفترة القصيرة بعد خروجك من السجن ؟

- ربما أتذكر هذه الأيام القليلة في بضع مشاهد وخطوط عريضة مختلفة، دفن رانيا وعزائها، زيارتي لقبر أمي التي دفنت بجوار أبي، رفضي لإجراء لقاءات تليفزيونية أو صحفية، تسجيل براءة اختراع الخلية، أحد الممولين قرر الاستثمار في فكرة مشروعي، توثيق أوراق الشركة، شركة دواير، مروة تخبرني بضرورة الزواج، وأخبرها أن هناك عدد من الأمور لها الأولوية

- ولماذا رفضت هذه اللقاءات ؟

- شـعرت أننـي لم أفعـل شيء في حيـاتي يسـتحق كل هـذا، مـا الإنجـاز في أنـك صمـدت في مواجهـة الحيـاة ..... كنـت أرى الإنجـاز فيـما فعلتـه الآن، لـذا رأيـت أنـه مـن الممكـن الآن فعـل ذلـك، الآن وفقـط

- .. مـا الأولويـة التـي تمنعـك مـن الـزواج وقتهـا وقـد تأسسـت الشركـة، وقـد أخـبرت سـارة بالفعـل بأنـك تريـد الـزواج بهـا ؟!

- كان عـلي أداء بعـض الفـروض، كان عنـدي موعـد مـع سـجين !!

***

(٢٦)

بعد بحث طويل، عرفت اسمه، طاغية من طواغيت الأرض الصغار، ساعدتني سارة في الوصول إلى معلومات عنه، في آخر قضية له تم إحالة أوراقه إلى المفتي، وقد اقترب ميعاد تنفيذ حكمه كثيرًا، ولكننا وصلنا له قبله بعدة أيام، ذهبت مع سارة في زيارة له في سجنه، خرج مستغربًا لمن في قلبه ذرة رحمة ليزوره قبل إعدامه، مأمور المعتقل الذي كنت فيه

- جئت لتفرح بما سألقاه

قالها بسخرية كأن وضعه ما بات يعنيه

- أعوذ بالله من الشماتة ولو في أعدائي، فقط أتيت لأسألك عدد من الأسئلة وأرجو أن تجيبني عليهم:

- ولمـاذا أجاوبـك عليهـم، ولمـاذا لا أتـركك تبحـث وتبحث إلى أن تمـوت ولا تجـد إجابـة مـا حييت

- على الاقل حتى تُكفر عن خطاياك السابقة

صمت قليلًا كأنما يعقل كلمتي ثم قال:

- ماذا تريد أن تعرف ؟!

- أول سؤال، ما هذا المعتقل الذي كنا فيه ؟!

- معتقـل الحريـة، هكـذا أسـموه، أنـا مأمـوره الرابـع، تـم تأسيسـه لحبـس مـن لا يريـدون لـه صـوت، تـم ظلمـك في قضيتـك، وحتـى لا تتحـدث كثـيراً عـن ذلـك، فـلا مشـكلة أن يلقـوا بـك مـع أمثالـك في معتقـل وسـط الصحـراء، تحـدث، اصرخ وتـألم فلـن يسـمع أحـد بـك هنـاك

- معتقـل الحريـة، يـا للسـخرية، كان بـه كل شيء ماعـدا الحريـة

تحدثت سارة إليه للمرة الأولى فسألته:

- هل كان وجوده قانونيًا ؟!

- إذا كنـتِ تقصديـن قانونكـم فهـو ليـس كذلـك بالطبـع، ولكنـه قانـوني جـدًا في عرفنـا نحـن الكبـار

- هل لازلت تظن أنك من الكبار ؟

- كبير حتى أموت

ردت مروة بغضب:

- وعندما تموت لن تستطيع أن تقولها أمام الأكبر، أمام الله

بدا عليه كامل الاقتناع، ولكن ـــ لعنه الله ـــ التكبر يمنعه من الاعتراف بذلك، أمسكت بيد سارة أُهدأها حتى لا يقسم علينا ألا يجاوب على أسئلتنا، هذه الإجابات ستهدأ بالي كثيراً

- هل خرج أحد من هذا المعتقل من قبل ؟!

- لم يخرج منه أحد منذ أن تم تأسيسه، ولكن هرب شخص واحد فقط

ثم أنه قال منتفضًا ليبعد التهمة عنه

- ليس في عهدي بالطبع، ولكنه في عهد أول مأمور له، على ما أذكر كان مهندسًا وهو من صمم هذا المعتقل

- كان من الكبار إلى أن انقلبوا عليه، صحيح ؟!

- ربما، ولكن الوغد كان خائنًا لأبعد حد، يقولون أنه كان يكتب يومياته، وكتب بها كل تفاصيل هذا المعتقل،

ستكون كارثة إذا علم العامة عن هذا السجن، وانظر إلى أين وصلت خيانته، عندما وضع تصميم المعتقل وضع معه نفق من كل زنزانة لخارج المعتقل بأكمله بمسافة واحد كيلو متر

- كان يعلم أنه سيسجن يومًا ما في إحدى زنازينه

- إحدى زنازينه، وليس كلها هذا الغبي

- لماذا أنت ساخط عليه إلى هذا الحد ؟!

- لقد كسر هذا الخنزير القاعدة، لو لم يهرب، لظل للمعتقل الرقم القياسي في عدم هروب أي مسجون منه

أمسكت زمام أمري، فلا أريد أن أدخل السجن في قضية قتل، دعه سيموت وحده بعد عدة أيام، ثم أردف:

- لو تحليت بالشجاعة لبعض الوقت وأنت في زنزانتك، وحاولت زحزحة قطع البلاط وراء الحمام، لأكتشفت أن هناك الكثيرين ممن لقوا حتفهم محاولين الهرب من هذه الأنفاق، بعدما أغلقوا فتحة الهروب

ردت سارة باستغراب:

- ماتوا في النفق ولم ينتشل جثثهم أحد ؟!

– لم يفعلـوا وأنـا بـدوري لـن أفعـل ذلـك في عهـدي، لقـد صـاروا عظامًـا، ثـم أنهـم أغبيـاء يسـتحقوا مـا حـدث بهـم

– تذكر أنك مقبل على قيامتك بعد أيام

– ليـس عنـدي وقـت لأتذكـر، هـل أنتهيـت مـن أسـئلتك اللعينـة ؟!

ثم هم بالقيام والرحيل، ولكني أمسكت به

– لا، انتظـر !!، هنـاك أسـئلة مهمـة أخـرى، عندما راسـلتني أختـي وعندمـا أرسـلت الكتـب لي، مـا الـذي جعلكـم تحافظـوا بهـذه الدقـة عـلى إيصالهـا لي، وربـما إلى المسـاجين الآخريـن أيضـاً ؟!

– كان هـذا تقليـدًا قديـمًا أتيـت فوجدتـه، ولم أغـيره، وفي الحقيقـة لـو لم يكـن موجـودًا مـن قبـلي، لأوجدتـه أنـا، أتعلـم لمـاذا ؟!

– لماذا ؟!

– الشـعور بالذنـب، كل مـن تـولى مسـئولية هـذا المعتقـل، كان يحمـل في قـرارة نفسـه شـعور هائـل بالذنـب تجـاه هـؤلاء التعسـاء، ربـما تصـور مـن وضـع هـذا العـرف أنـه كفـارة عـن ذنبـه، وأضيـف لمعلوماتـك شـيئًا هامًـا، رغـم حفاظنـا

علـى تسـلم وإيصـال الرسـائل إلى السـجناء مـن ذويهـم، إلا أن أغلبهـم لا يتلقـوا رسـائل بالأسـاس، نسـوهم أهلهـم أو تناسـوهم، ربـما لأن اغلـب السـجناء هنـاك تـم تعويـض أهلهم عـن سـجنهم بمبلـغ مـا ينسـيهم أنفسـهم بالأسـاس

- حسـنًا أهـم وآخـر سـؤال، مـاذا كنتـم تفعلـوا بجثـث المنتحريـين أو الأمـوات في المعتقل ؟! أين يذهب بهم العسـاكر ؟!

- مدافـن المعتقـل، عـلى بعـد كيلـو مـتر منـه، بجـوار فتحـة النفـق، بعدمـا هـرب هـذا الوغـد، تبعـه الكثـير مـن البلهـاء في نفـس الطريـق، ولمـا خرجـوا مـن النفـق وجـدوا العسـاكر فـوق رؤوسـهم، يقولـون أن عددهـم كان خمسـة عـشر سـجين، أطلقـوا النـار عليهـم جميعًـا، فكانـوا النواة لهـذه المدافـن، يذهب العسـاكر بمـن ينتحـر إلى هنـاك، يحفـروا لـه قـبره ويلقـوه بـه

تحدثت سارة فسألته:

- ولماذا ينتحر هؤلاء المساجين ؟!

- هـذا السـجن صمـم للانتحـار أصـلًا، الزنازين وأسـاليب الطعـام والـشراب، العزلـة وحتى سـمك الحوائط، كلهـا عوامل نفسـية تذهـب بالعقـل إلى غياهـب الجنـون، ومـن ثـم الانتحـار

- وماذا عن عبد الحميد ؟!

صمت فترة كأنه قد نسيه ثم قال متذكراً:

- آه ... هـذا العجـوز المختـل، لقـد كان مميـزًا في سـجننا، فقـد كان السـجين الوحيـد الـذي تـأتي تعليـمات عليـا مـن أجلـه، بمنحـه الحـق في اسـتعمال التلفـاز الـذي أرسـلوه لنـا مـن قبـل وفـرش أرضيـة زنزانتـه

- لم يكـن الكبـار معكـم بعـد ذلـك فلـماذا سـمحتم لـه بالاحتفـاظ بـه بعـد ذلـك ؟

سألته سارة، فرددت أنا بالنيابة عنه:

- الخوف، الخوف من عصيان الأوامر حتى لو لم يعلموا

- بالضبـط، لـن أُخـفِ الحقيقـة عنـك فـأني راحـل، عندمـا مـات فرحـت كثـيرًا لأننـي سأسـتطيع أن أُغلـق هـذا التلفـاز للأبـد، ابـن السـافلة كان يــ..

لم أستطع الصبر أكثر، قمت فمسكته من قميصه، فقال:

- ماذا، ألا تستطيع تحمل سماع أحد يسب هذا الفاني

جذبـت سـارة يـدي، فتركتـه وهممـت بالانـصراف، قـد جاوبنـي عـلى كل أسـئلتي، ولكنـي فضلـت أن أخـبره تلـك الحقيقـة

- أنت منكسر !!

صمت قليلًا وعدل من هندام قميصه وقال:

- وهـل تعتقـد أنـك أنـت الصامـد، لقـد صرت حطامـاً يـوم دخلت ســجني

لم أجد ما اقوله له بعد جملته تلك، أردف:

- أنـا لم أجبـك عـلى كل أسـئلتك، لقـد نسيت أن أخـبرك أن العجـوز لم يدفنـوه بجـوار هـذه المقابـر

ألتفت إليه، أقتربت منه أسأله ماذا يقصد، فرد:

- والله الـذي سـأذهب إليـه بعـد أيـام لـن أُجاوبـك، حتـى تتـوه في الأرض ولا تصـل لمـرادك أبـدًا

همـت بضربـه، نويـت قتلـه، أردت إجابتـه، لكننـا خرجنـا ولم نمسـك بكامـل الحقيقـة، فلتذهـب للجحيـم، لـن يذكـرك أحـد في الأرض مـرة ثانيـة سـتصبح مثـل كل الفاسـدين والطغـاة ،إذا ذُكـرت، تُذكـر قرينـاً للعنـات وشـقيقاً للكـره والبغـض ومرادفـاً للبـأس والضيـاع، أمـا أنـا فعـلي الآن إتمـام زيـارة أخـرى، ليسـت الأخـيرة ولكنهـا مهمـة ولا مفـر منهـا رغـم كامـل كرهـي لهـا، زيـارة إلى المقابـر، مقابـر المعتقـل

***

(٢٧)

كانـت رائحـة المـوت في كل مـكان، شـواهد المقابـر المتناثـرة هنـا وهنـاك، بعـض المقابـر مفتوحـة ولا يوجـد بهـا سـوى عظـام بشريـة مكـسرة وملقـاة بعشـوائية بجـوار آثـار أقـدام ضـواري الصحـراء، طوقـت قـوات الشرطـة المـكان وأحـصى الرجـال أعـداد المقابـر التـي وصلـت إلى مئتـي مقـبرة، اللعـين مأمـور المعتقـل ومـن معـه، لـو لم يتـم الحكـم عليهـم بعـد لسـوف تضـاف هـذه الجريمـة إلى جرائمهـم، جرائـم حـرب عليهـم اللعنـة، تنقلـت بجـوار سـارة بـين المقابـر، لم يكلفـوا أنفسـهم بوضـع أسـماء مـن في القـبر، بـل وضعـوا أرقامهـم وحسـب عـلي قطعـة معـدن فضيـة مدفونـة عـلى رأس الشـاهد، ابحـث عـن الرقـم ٢٧١ رقـم زنزانـة عبـد الحميـد، وجـدت أربعـة قبـور تحمـل الرقـم ٢٧٠ رقـم زنزانتـي، هـا انتـم أولاء لم تنتظـروا الربيـع، لم تنلـوا حريتكـم ولكنكـم انتظرتـم حتـى أتيـت

أنـا لأمنحكـم إياهـا، عليكـم رحمـة الله، أقـف أمـام رقـم عبـد الحميـد بينـما تناديـني سـارة بأنهـا وجدتـه، اذهـب إليهـا أولاً، لأدرك أن صـدأ الزمـان قـد طـال القطعـة المعدنيـة، فعـدت معهـا إلى التـي كنـت عندهـا لأجدهـا أقـدم مـن الأولى، اسـتمر في البحـث، لا يوجـد مقـبرة تحمـل هـذا الرقـم غـير المقبرتـين السـابقتين، التـي أحمـل يقينًـا في قلبـي أنـه ليـس فيهـما، يحدثنـي قلبـي بـأني لـن أسـتطيع إيجـاده هنـا، ولقـد كنـت محقًـا، فعدنـا خائبـين إلى منازلنـا لا أعلـم أيـن تـم دفـن رفيـق محبسـي وأنيـس وحـدتي، ولكنـي لـن أمـل مـن البحـث عنـك وعـن أسرتـك

بعـد فـترة لم أفعـل شـيئاً فعـالاً في حيـاتي عـلي انتظـار أن أؤدي نـذراً قديـماً وهـو زيـارة أسرة عبـد الحميـد، اسـتطعت بصعوبـة أن أصـل لعنوانـه، ووصلـت لأسرتـه صاحبـة الحالـة الماديـة المنخفضـة، والتـي تتكـون مـن الأم والابنـة، قدمـت نفـسي لهـما بأننـي كنـت صديقًـا لـه، فرحبـا بي وأدخـلاني

– ولكـن مـا الـذي جعلـك تتذكـره الآن بالـذات، بعـد كل هـذه السـنوات التـي رحـل فيهـا عنـا؟

تسألت عن ذلك فأجبتها:

– حالمـا خرجـت مـن السـجن، بحثـت عـن قـبره فلـم أجـده ولكنـي توصلـت إليكـم بعـد بحـث قـاسي

عقدا المرأتان حاجبهن، وقالت إسراء ــ ابنته ــ

– ماذا تقصد ؟!، سجن وقبر وبحث

استغربت أنا ايضاً ولكن قبل ان أتسائل أكملت حديثها:

– من أنت ؟! وما قصتك ؟!

– .... لقد كنت رفيق عم عبد الحميد في السجن

– السجن !!، إن أبي لم يدخل السجن، ماذا تقول ؟!

– لحظة، ألا تعلموا أن عبد الحميد دخل السجن على خلفية قضية خصخصة الشركة التي كان يديرها؟

ردت الأم:

– خرج من الشركة معاش ولا توجد قضية خصخصة أو غيره

أكملت إسراء حديث أمها:

– يبدو أنك مختل عقليًا، ووجودك هنا خاطيء، هيا ارحل من هنا

قمت من مكاني حتى لا تدفعني بيدها، رفعت صوتي لأول مرة منذ دخلت البيت:

- هــل انتــم مجانــين، لقــد تــوفى أمــام عينــي في الزنزانــة المقابلــة لزنزانتــي

صاحت الأم من خلف ابنتها التي تقف أمامي قائلة:

- تــوفى أمامــك في الزنزانــة !!، لقــد تــوفي بــين يــدي عــلى سريــره

- قلــت لــك أنــك مختــل، اخــرج مــن هنــا قبــل أن أصرخ أو أبلــغ الشرطــة

- حســناً حســناً، ســأخرج، ولكــن صدقينــي، لقــد كنــت موظــف في الشركــة الحكوميــة التــي كان يديرهــا ويــوم تــم تسريحنــا منهــا، تمــت حادثــة عــلى خلفيتهــا دخلت ســجن اســمه الحريــة، في الصحــراء، ربــما ســمعتِ عنــه في التلفــاز، وبعدمــا بقيــت فيــه عــدة ســنوات جــاء هــو، وأخــبرني أنــه دخــل هــذا الســجن عــلى خلفيــة قضيــة خصخصــة شركتــه، صدقينــي، هذا كلــه حــدث معــي، أعلــم إنــك إسراء قبــل أن تخبرينــي وأعلــم أختــك روان المتزوجــة مــن مهنــدس بــترول وتعيــش معــه في الخليــج، كل هــذا هــو مــا أخــبرني بــه، وإلا كيــف عرفــت؟

بــدا عليهــا كل الاســتغراب، لمــا عرفــت أن كلامــي صحيــح، نطقت

– كيف عرفت هذه التفاصيل ؟!

– هذا ما أخبرك به، أن ابيكِ كان معي

– ولكــن هــذا مســتحيل والــدي تــوفي عــام ٢٠٠٤، بيننــا ولم يدخــل الســجن في حياتــه أبــدًا، إن أردت أن أريــك قــبره، ســأفعل، ولكنــي متأكــدة أنــك تتحــدث عــن شــخص آخــر غــير أبي

سرنــا مســافة ليســت بالكبــيرة ووصلنــا للمقابــر، أشــارت بيدهــا إلى قــبر قديــم مكتــوب عليــه:

– عبد الحميد سلطان، ٢٠٠٤

نظــرت إليهــا مســتغربًا، كيــف يحــدث هــذا، جــاء في تفكيري أن يكــون مــوت عبــد الحميــد كان مجــرد تغطيــة لحبســه، ولكنهــا أكــدت عــلى موتــه بينهــم، فــماذا كانــت قصتــك يــا عبــد الحميــد

– صرت أصدقــك ولكنــي لا أعلــم كيــف يمكــن أن يكــون هنــاك اثنــان مــن أبي رحمــه الله، شــخص معــك وشــخص يقــضي نحبــه بيننــا

ألتفت إليها وأخبرتها

– إن بعــض الأمــور تكــون بــلا ســبب لأن الله يريــد ذلــك، ســأقضي بقيــة حيــاتي كلهــا لا أعــرف سر أبيكــي في أن يلازمنــي

في استيقاظي طيلة هذه السنوات، وسأبقى أشكر وجوده معي حتى وإن كان مجرد تهيؤات

انتهت هذه الأولويات لتعلن أن وقت زواجي قد حان، تأخر كثيرًا ربما ولكنه تأخر ليكون الاختيار صحيح، طلبت يد سارة من أستاذي فوافق، القدر الغريب أبعدنا عن بعضنا وقتًا أو بالأحرى أبعدني أنا، لنعود في وقت آخر ونتزوج، وتم حفل الزفاف في نهاية عام الثورة، كان أفضل يوم في حياتي، حتى من يوم خروجي من المعتقل، وأيضًا لا أنسى أن محمد طلب يد مروة فوافقت، وعاد الاستاذ إمام والدي كما كان، تمت محاكمة المتهمين وكانت أقل عقوبة فيهم عشرة أعوام ثم تنوع العقاب ليصل إلى الإعدام لبعض كبار المسئولين وقتها وعاد لي حقي مرة أخرى لما رأيت من ظلموني إما في السجن المؤبد أو في حبل المشنقة، أجريت الإنتخابات الرئاسية وفاز مرشح مدني كان طبيب جراحة شاب عمره لم يتجاوز الخمس والثلاثين عامًا، واستقر الوضع لمصر وخلال هذه الفترة تحسنت الأوضاع الاقتصادية كثيراً فصارت مصر لأول مرة في تاريخها تصدر صناعات مهمة للعالم وأصبحت شركة مربعات من كبرى شركات مصر الإلكترونية ونشأت معها شركة « الهلال « للسيارات الحديثة والتي تترأسها المصرية «

مريـم هـلال « التـي أخبرتـك عنهـا، وسـارت أحـوال الشركـة مـن جيـد لأجـود ومثلهـا شركات مـصر الكـبرى وعـادت مـصر لعظمتهـا مـن جديـد، وهكـذا لم تعـد الأمـور إلى مـا كانـت عليـه، بـل أفضـل مـن ذلـك بمليـون ضعـف، كـرم الله الـذي يفاجئـك

***

(٢٨)

- أليس هذا ممتعاً ؟

قلتهـا وأنـا أجلـس بجـوار سـارة نشـاهد التلفـاز، كنـا في نهايـة عـام ٢٠١٢ م فـردت بعدمـا ألتفتـت إلي:

- ما هو الممتع بالضبط ؟
- أن انتظر فتاتي الجميلة
- وما أدراك أنها ستكون جميلة؟
- كيف تقولي ذلك وأمها سيدة الحسن والجمال
- ليس لهذه الدرجة
- لا بل لهذه الدرجة وأكثر بكثير
- إذا دخلت مسابقة ملكة جمال العالم هل سأفوز؟

- كيف ستفوزي في مسابقة أنتِ الوحيدة المشاركة فيها، لن تقبل أي أنثى أن تدخل هذه المسابقة وأنتِ فيها

- لا أعلم من أين تأتي بهذا الكلام

- من القلب، أيعجبك ؟

- بالتأكيد، إذاً ... آه ه ه ه آه منصور، يبدو أنني سألد الآن

انتفضت من مكاني بعدما تبينت أنها صادقة وأنها تتألم حقيقة

- الآن ماذا .. أنتِ .. أنتِ لازلت في السابع

- ألا يوجد من يلد في السابع يا منصور، اتصل بأمي حالاً

في هذه اللحظة كنت أغبى من على وجه الارض أنا لم أتعامل من قبل مع أنثى ستلد في الشهر السابع، أنا أصلاً لم أتعامل مع أنثى تلد، على كل حال هرعت لأطلب الاسعاف وجاءت فتم نقلها للمستشفى

كانت ولادتها صعبة ونحن واقفون على باب الحجرة وأطباء وممرضين يدخلوا ويخرجوا ولا نعرف شيئًا مما يحدث بالداخل، وبعد فترة سمعت صوت يهدأ من روعنا صوت طفلة .. طفلتي

اخرجــوا ســارة بسرعــة متجهــين إلى حجــرة العمليــات وأنـا ألهـث وراء الممرضـات، لم أسـتفهم كلام الممرضـة ولكنـي سـمعت كلمـة واحـدة منها هـي « نزيـف « كانـت كافيـة لأدرك في هـذه اللحظـة أن سـارة قـد يحـدث لهـا مكـروه، جلسـت عـلى الأرض مـكاني وشـعرت أن جسـدي تـم تخديـره ولم أفـق حتـى جـاءت الممرضـة وكان عـلى الأرجـح مـر نصـف سـاعة أو مـا يزيـد فقالـت:

- ألن تأتِ لترى ابنتك ؟

قمــت وأومــأت بــرأسي وسرت وراءهــا ببعيــد، حتــى دخلــت الحاضنــة فوقفــت عنــد واحــدة وأشــارت بيدهــا لداخلهـا فنظـرت إذ بي أرى قطعـة مـن الجـمال تنـام في سـكينة كانــت جميلــة جــداً وشــعرها ذهبــي لم أصــدق أن هــذه الفتــاة هــي ابنتــي وإن صدقــت لم أصــدق أنهــا مولــودة عــلى ســبع شــهور فقــط .. ولكــن ... ولكــن ســارة ..... لا ينبغــي أن أحتفــي بابنتــي وزوجتــي لازالــت في غرفــة العمليــات

خرجت فوجدت مروة في وجهي تقول:

- الحمــد لله ســارة في العنايــة المركــزة وأخبرنــا الدكتــور أن حالتهــا تســتقر وســتنقل إلى غرفــة عاديــة خــلال ســاعات

- الحمد لله

في الحقيقـة الفرحـة التـي سرت في قلبـي لا تقـل عـن فرحتـي بسـماعي كلمـة « الحكـم بالـبراءة »، في مثـل هـذه المواقـف تدرك كـم لازلـت ضعيفًـا، تتذكـر حقيقـة إنـك فـانٍ وإن الفانـين لا يملكـون أي قـوة، بـل يمدهـم الله بهـا .

بعـد بضعـة أيـام عدنـا مـن المستشـفى ثلاثـة أفـراد، بطفلـة رائعــة تولــت ســارة أمــر تســميتها فأســمتها بتــول، فاللهــم بــارك لي فيهــن مضــت الأيــام وراء الأيــام، لم يعكــر صفــو بلدنــا ســوى مــا حــدث عــام ٢٠١٤ م، وهــو اقتحــام القــصر الرئــاسي وقــت زيــارة الرئيــس الضيــف ولكنهــا مــرت عــلى خــير ولم تخسر مـصر شـيئاً، أمـا بالنسـبة لنـا، فقـد تعرضـت الشركـة إلى الكثـير مـن المتاعـب والمشـاكل، ولكـن قـوة الله جعلتنـا نعـبر هـذه الأزمـات ببسـاطة، كان مـن ضمـن الأزمـات التـي مررنـا بهـا حريـق المصنـع مثـلاً، لم تحـرق الخلايـا فقـط، بـل المصنـع بأكملـه، صـار ترابًـا، وهنـاك أيضًـا أزمـة انقطـاع الكهربـاء عـن المصنـع الجديـد، أمـر شـبه مضحـك، انقطـع التيـار الكهـربي مـدة لا تزيـد عـن الخمـس دقائـق، ولكنهـا كانـت كافيـة لإتـلاف البطاريـات، كنـا وقتهـا قـد بدأنـا في إنتـاج البطاريات، ضاعـت مبالـغ ضخمـة بسـبب أمـر تافـه، ولكـن الملفـت في كل هـذه المشـاكل، أننـي لم أحـزن ولم أجـزع، كنـت قـد أدركـت وقتهـا والآن أن مـا يحـدث يحـدث لسـبب وبسـبب ومـا هـو إلا تهيئـة لي ولمـن يتعـرض لمـا يحـدث، دعـم سـجني إيـماني بشـكل

غريب، وقوى قدرتي على مواجهة الدنيا بصورة ملفتة، وجعل الحياة بالنسبة لي فرص فقط ولا خسائر فيها، وفي عام ٢٠١٥ رزقني الله بمولودي الثاني، كان ولداً أسميته عمر، عمر منصور الشرقاوي، وإذا رزق الله أحداً أدهشه برزقه، قبل ولادة عمر، كنا ننوي نقل مقر الشركة الإداري إلى المقر الحالي، ولكن بعد الخسائر التي تكبدتها الشركة وقتها، حدثت أزمة مالية كبيرة لم تكن ستمنع انتقالنا للمقر الجديد وحسب، بل ربما تزداد إلى حد دفع شروط جزائية ضخمة لم تكن بحوزتنا وقتها، لنعوض تأخير الشحنات عن موعد تسليمها، ولكن لم يكمل عمر شهره الأول حتى انتهت كل المشاكل، من حيث لا ندري، كنا في حيرة عن كيفية تدبير الشرط الجزائي الأول عندما أعلمتنا الشركة المستوردة برغبتها في تأخير الشحنة حتى تستعد لاستقبالها، وبعدها بأيام طلب منا شحنة كبيرة دفع ثمنها كله مقدمًا، حتى عندما قررنا تأجيل أبحاث تطوير البطاريات بسبب عدم كفاية التمويل، اقترحت صاحبة شركة الهلال أن تشارك بالتمويل في هذا المشروع حتى تنتفع شركتها بالبطاريات في سياراتها الكهربائية، فسارت الأمور بخير وكما نريد، عطاء الله !



الساعة ٥:٠٠ م

أغلقت المسجل ثم تأملت المنظر خارج زجاج مكتبه، وسرحت قليلًا مع تلك المباني الشاهقة، شركة هلال للسيارات، شركة كوكب للاليكترونيات، شركة وظف وشركة مصابيح ومُكمل، شركات كثيرة تؤثر وتغير، أخرجني منصور من غيبوبتي هذه فسألني:

– هكذا انتهت القصة، ما رأيك فيها ؟

– أعجز عن التعبير ......

وبعد برهة صمت قلت:

– هل توافق أن أنشرها، بدلاً من الرواية المتوفية

– أعتقد إنك لم تأتِ إلا لذلك الهدف

– أقصد التفاصيل، كل التفاصيل التي ذكرتها توافق عليها، صحيح ؟

– نعم أوافق، التفاصيل تبني الكل، لا أعتقد أن سارة ستضيق بالتفاصيل الخاصة برانيا – رحمها الله، لأنها ستتفهم

– ... كيف ترى هذه القصة ؟

– دعنـي اسـألك سـؤالاً أولاً، مـاذا لـو لم تكـن هـذه القصـة حقيقيـة، مـاذا لـو كانـت مجـرد خيـالات او إسـقاط عـلى عـدة أشـياء أو أشـخاص أو مواقـف، مـاذا لـو كانـت رانيـا حلـم ليـس لي فرحـت بـه وسـعيت وراءه بالخطـأ، مـاذا لـو كان فراقنا هـو افـتراق الـدم الفاسـد عـن الجسـم، مـاذا لـو كانـت الزنزانـة هـي ضعفـي أو فشـلي، مـاذا لـو كان تخطيطـي للانتقام هـو مثال عـلى السـعي في الطريـق الخاطـيء، ومـاذا إن كانـت الثـورة هـي ثـورتي عـلى فشـلي، مـاذا لـو لم يكـن هنـاك عبدالحميـد أو سـجن نائـي في الصحـراء أو مـاذا لـو كان المسـاجين المنتحريـن هـم أشـخاص عاديـون يستسـلموا وحسـب إلى الفشـل أيـاً كانـت صورتـه، مـاذا لـو لم أكـن أنـا حقيقـي وأنـت تتخيـل وجـودي وتتخيـل كل هـذا كـما حكيـت لـك عـن تخيـل وجـود أبي وعبـد الحميـد، وأصـدق ذلـك التخيـل ... مـا رأيـك ؟!

– ... لا أعلـم .. ولكنـي أعلـم أن كل مـا أنـت فيـه الآن هـو ناتـج عـن جهـد كثـير .. أيـاً كان مـكان بذلـه، في الفشـل أو السـجن

– صحيـح، تشرفـت أننـي حكيـت لـك قصتـي وأتمنـى أن ينفعـك الله وغـيرك بهـا

– آمين، أود إخبارك شيء

- تفضل

- لـن أكـون ذلـك الشـخص الـذي جـاء إليـك صباحًـا، أعـدك بذلـك

- لا تعـدني أنـا بـل نفسـك، أنـت لا تسـتحق الفشـل، اذهـب وافعـل ولا تتحـدث كثـيراً عـما تريـد أن تصـيره

همـت أتحـدث ولكنـي توقفـت عندمـا دخـل أحدهـم إلى المكتـب، ممسـكاً ببعـض الأوراق ألقى السـلام فقـام منصور يرد:

- وعليكـم السـلام، حمـداً لله أنـك جئـت الآن قبـل أن يرحـل إبراهيـم

مـد الشـاب يـده فسـلم عـلى منصـور ثـم مدهـا لي فسـلمت وقـت قـال منصـور

- إبراهيم، جار قديم وصديق جديد

ثم وضع يده على كتف الشاب وقال وهو ينظر لي:

- وهـذا مـن أوائـل الموظفـين في الشركـة وأكفأهـم عـلى الاطـلاق، يوسـف ... يوسـف رشـاد زيـادة

نظـرت نظـرة بلاهـة شـديدة لـه، ولكنـه لم يبـالِ فقـط قـال وهـو يبتسـم ابتسـامة عريضـة:

- أهلاً وسهلاً

- أهلاً بك

وأعطى الأوراق لمنصور وحدثه لثوانٍ ثم رحل، فقال منصور:

- تزوج منذ أسبوع واحد فقط، ثم أتى إلى عمله في موعده، تزوج بإسراء عبد الحميد سلطان

انبهار جديد، لم أجد ما أقوله إلا بعد برهة فقلت:

- أرى أنك أظهرت تسامحك أخيراً ولم تبقه داخلك

- تعلمت ذلك

ابتسمنا، ضممته وودعته ثم خرجت من المكتب إلى الطابق الأول، كان موعد إنتهاء العمل، سرت مع الموظفين حتى خرجت من بوابة الشركة الرئيسية، تتبدد من أمامي كل الأفكار إلا فكرة واحدة هي فكرة الشخص الواحد الذي يستطيع أن يقلب العالم ويغير القوانين، تتضح أمامي صور أحمد الشقيري وحازم الصديق وحسام هيكل وأحمد أبو زيد وعبدالله وسية وأمير منير وأحمد شاهين وغيرهم الكثير من الذين أحسبهم « واحد « يغير قواعد اللعبة، يحسن حياتنا ويجعلنا نخجل من كسلنا وضعفنا وفشلنا،

أتذكر مفاتيح الهام غيرت تفكيري للأفضل، أخي الكبير الأكبر تهامي عادل سالم، أستاذي محمد إمام طربوش والدكتورة سارة منصور وأحمد مدحت ومحمد هيثم، وأتوقف قليلاً بعدما خرجت من بوابة الشركة لأُلقي نظرة أخيرة عليها، أنظر إلى الطابق الذي كنت فيه في مكتب منصور، ربما يقف الآن هناك ينظر إلى هذا المجد الذي دفع ثمنه عدة سنوات في السجن، أهمس قائلاً:

- لن اقبل بأقل مما أستحق ...

- تمت بحمد الله -

مشتول السوق

يناير ٢٠١٨

***

آمالنا نهراً تسيل .. عذباً كماء السلسبيل

ومذكرات في الحياة .. منها ارتوى جيل فجيل

بالعزم هيا نمضي سوياً .. نسمو ونرقى فوق الثريا

لا تقل لوحدي أو كيف السبيل .. أنت بالتحدي تصنع المستحيل

نمضي على سنن الهدى .. و عن المبادئ لا نميل

بالعزم نجتاز المدى .. و نسابق الدرب الطويل

افرض وجودك في الحياة .. و كن كما وقع المطر

و انثر حروفك في السماء .. نوراً كما ضوء القمر

بِالعَزْم هَيّا نَمْضِي سَوِيا .. نَسْمُو وَنَرْقَى فَوْق الثُّرَيّا

أغنية « تصنع المستحيل « أداء الرائعان حمزة نمرة ومحمود خضر، كلمات أحمد اليافعي، وألحان وتوزيع حمزة نمرة، ومن إنتاج أويكنينج ريكوردز عام ٢٠١٧

التواصل مع داركتاب

Email: darkitabone@gmail.com

fasbook: darkitabone

البدج داركتاب

٠١٠٩٧٥٥٣٣٢٨